رواية

مكتبة ياسين

نفوجي واثيونغو

حَبَّةُ قَمحٍ

ترجمة: عبد الكريم محفوض

على الرغم من وقوع حوادث هذه الرواية في كينيا المعاصرة فإن جميع الشخوص من نسج الخيال. وأما المجيء على ذكر أسماء من أمثال «جومو»، «كينياتا»، و«واياكي»، فقد كان أمراً لا مندوحة عنه باعتبارها تمثل قسماً من تاريخ بلادنا ومؤسساتها. بيد أن المواقف والمشكلات حقيقية تماماً - وحقيقية إلى حد مؤلم في بعض الأحيان بالنسبة لأولئك الفلاحين الذين حاربوا البريطانيين ويرون الآن أن كل ما حاربوا من أجله قد نُحّي جانباً.

نغوجي واثيونغو

ها هو ذا (ميوغو) تنهشه الهواجس مستلقياً على ظهره شاخصاً ببصره إلى السقف. ثمة خصل هامدة من الحشائش والسرخس تتهدّل من سقيفة القش وتتجه كلها صوب قلبه. وها هي قطرة من الماء الصافي تتدلى فوقه مباشرة. لقد أخذت هذه القطرة تنتفخ رويداً رويداً وتزداد اتساخاً كلما زادت تشبعاً بذرات السخام. ها قد بدأت الآن بالسقوط باتجاهه. حاول أن يطبق جفنيه ولكن هيهات... جرّب أن يزيح رأسه غير أنه وجده مقيّداً بهيكل السرير. لقد بدأت هذه القطرة تتسع شيئاً فشيئاً كلما زادت اقتراباً من عينيه فأراد أن يغطي عينيه براحتيه إلا أن يديه وقدميه، بل كل أعضائه رفضت الخضوع لمشيئته. وأخيراً استجمع ميوغو قواه وبجهد يائس أخير، هبّ مستيقظاً من نومه. وها هو الآن يلتحف الدثار نهباً للمخاوف والوساوس من أن تسملَ عينيه فجأة - كما تراءى له في الحلم - قطرة من الماء البارد. لقد كان الدثار خشناً وبالياً، كما كان وبره يخزه في وجهه وفي رقبته بل ويخز في الواقع كل الأقسام العارية من جسده. وقع ميوغو في حيرة من أمره؛ أيقفز من السرير أم يبقى فيه؟. لقد كان السرير دافئاً ولمّا تشرق الشمس بعد في الوقت الذي كانت تتسلل فيه خيوط الفجر إلى الكوخ من شقوق الجدار. حاول أن يلجأ إلى لعبة كان يمارسها دائماً كلما حاصره الأرق إبان منتصف الليل أو مع تباشير الصباح الأولى. إن معظم الأشياء في حلكة الظلام الدامس أو وقت الغسق تفقد حدودها المميزة لها ويختلط الحابل بالنابل. كانت اللعبة تتألف من محاولة تمييز الأشياء المختلفة بعضها عن بعض داخل الغرفة، بيد أن ميوغو وجد هذا الصباح أنّ من العسير عليه أن يركز انتباهه، وكان يدرك أن الأمر لا يتعدى الحلم: ومع ذلك فقد لازمه الشعور بالرعدة من فكرة قطرة الماء البارد وهي تسقط في عينيه.

9 789933 604844

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

نغوجي واثيونغو

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

حَبَّةَ قَمح

ترجمة : عبد الكريم محفوض

رواية

Author: **Ngugi wa Thiong'o** — اسم المؤلف: نغوجي واثيونغو

Title: **A Grain of Wheat** — عنوان الكتاب: حَبَّة قَمح

Translated by: **Abdul Karim Mahfoud** — ترجمة: عبد الكريم محفوض

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy** — تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada** — الناشر: دار المدى

First Edition: **2021** — الطبعة الأولى: 2021

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Ngugi wa Thiong'o 1967
This translation of A Grain of Wheat is published
by arrangement with Pearson Education Limited.

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

على الرغم من وقوع حوادث هذه الرواية في كينيا المعاصرة فإن جميع الشخوص من نسج الخيال. وأما المجيء على ذكر أسماء من أمثال «جومو»، «كينياتا»، و«واياكي»، فقد كان أمراً لا مندوحة عنه باعتبارها تمثل قسماً من تاريخ بلادنا ومؤسساتها. بيد أن المواقف والمشكلات حقيقية تماماً - وحقيقية إلى حد مؤلم في بعض الأحيان بالنسبة لأولئك الفلاحين الذين حاربوا البريطانيين ويرون الآن أن كل ما حاربوا من أجله قد نُحّي جانباً.

نغوجي واثيونغو -

ليدز - تشرين الثاني 1966

أنْ أيها الأبله، إنَّ ذاك الذي نبذره لا يتسارع إلا لكي يموت. وإن ذاك الذي تبذره لا تبذره كي يتخذ له شكلاً، بل مجرد حبة، قد تكون حبة قمح، أو حبة بذار آخر.

الكورنثيين (الأولى) 15:36

تقديم

في مقابلة معها في الملحق الأدبي لجريدة «الغارديان» البريطانية، نُشِرَ بتاريخ 3/ 10/ 20، تقول الكاتبة بتينا غاباه، ذات الأصل الكيني، إنها تعيد قراءة كتاب «تحرير العقل» لنغوجي واثيونغو مرةً في السنة على الأقل، وذلك لأنه «يساعدها على أن تتصالح مع لغتها الأصلية»، وعلى فهم وضعها كنتاج لـ«عملية التعليم الكولونيالية». ليست وحدها في ذلك. فهذا الكتاب قد ترك أثراً بالغاً على الأجيال اللاحقة لواثيونغو في بلده كينيا، وقد احتلَّ عن حق مكانة بارزة في دراسات ما بعد الكولونيالية على مستوى العالم، لمساهمته القيِّمة في تفكيك الخطاب الكولونيالي الثقافي، في بلدان الجنوب عموماً (أفريقيا، آسيا، وأميركا اللاتينية)، ومحاكمته الفكرية للأسس المضللة التي يستند إليها هذا الخطاب.

في هذا الكتاب، الذي جاء عنوانه الفرعي «سياسات اللغة في الأدب الأفريقي»، يرى واثيونغو أن اللغة، وليس التاريخ أو الثقافة، هي الشرط الضروري للوعي الإنساني، فـ«اختيار اللغة، واستخدام اللغة، هما عاملان مركزيان في عملية تعريف الناس لأنفسهم، وفي علاقتهم بالوجود كله»، كما أنه يعيد فيه طبيعة الصراع في أفريقيا إلى حقيقته: نضال شعوب مستلبة من جانب الكولونيالية، بجيوشها، وثقافتها، وإعلامها، وشركاتها الرأسمالية، وصندوق النقد الدولي الذي يسميه بـ«وزارة المالية العالمية الجديدة».

إنه ليس صراعَ قبائل ضد قبائل، كما روّجت وسائل الإعلام الغربية في تأويلات مضللة للوقائع الأفريقية.

في «تحرير العقل»، يلخص واثيونغو كل ما شغله طوال حياته الأدبية والفكرية، وهي القضايا نفسها التي طرحها في أعماله الروائية والمسرحية، ابتداءً من روايته الأولى «لا تبك يا طفل»، الصادرة عام 1964، تحت اسم «جيمس نغوجي»، وهي أول رواية تنشر بالإنجليزية لكاتب من شرقي أفريقيا. وقد كتبها وهو ما يزال طالباً في الجامعة. وتتألف الرواية من قسمين: القسم الأول ركز على قضية التعليم، والثاني على انتزاع أراضٍ زراعية واسعة من الفلاحين من جانب الاستعمار البريطاني والشركات الرأسمالية، مما قاد إلى انتفاضة كبيرة.

وجاءت روايته الثانية «حبة قمح»، التي كتبها عام 1967 أثناء دراسته العليا في جامعة ليدز البريطانية، أكثر نضجاً من الناحية الفنية، بالرغم من شهرة الأولى. وتعالج هذه الرواية المواضيع نفسها، التي شغلت واثيونغو طوال حياته، وظل يعيد إنتاجها بأشكالٍ مختلفة: العنصرية، والنضال من أجل الاستقلال، والتبعات الثقافية والاجتماعية والأخلاقية التي أنتجها الواقع الاستعماري، وتغلغلت في أعماق المجتمع حتى صارت جزءاً أساسياً من بنائه وتركيبته، وواصلت تغلغلها بشكل غير منظور في سلوك وتفكير أبنائه. والرواية ليست ذات بعدٍ واحد، بل تقدِّم وجهة النظر البريطانية والكينية على حدٍّ سواء. الكل يشعرون أنهم على حق. لكن في الجوهر تبقى الكولونيالية ممارسةً غير أخلاقية، وأداةَ اضطهاد، قبل أن تكون أيَّ شيءٍ آخر. كما تفضح الرواية أولئك الكينيِّين الذين تبنّوا، كما يحصل في بلدان كثيرة مستعمَرة، وجهة نظر المستعمرين الذين كانوا يروِّجون بأن مهمّتهم الأساسية هي «تحديث» كينيا، إدارياً وتكنولوجياً، بينما كانوا في الواقع يجرّدون بالقوة السكان الأصليين من مساحات واسعة من الأرض، تشكل مصدر وجودهم وحياتهم. والفترة الزمنية التي تدور فيها الأحداث هي ما بين 1952-1960، وهي الأعوام التي فرضت فيها حالة الطوارئ، عقب انتفاضة «مو مو». ويتداخل في الرواية، العالم شبه الأسطوري ممثلاً بموغو، المنعزل في قرية ثاباي، الذي يطارده سر

رهيب، والذي يعتبر نفسه «موسى شعبه»، مع العالم الواقعي الممثل بأماكن وشخصيات حقيقية، وضمنهم جومو كنياتا، أول رئيس في تاريخ كينيا منذ استقلالها عن الاستعمار البريطاني عام 1964 حتى وفاته عام 1978، إلى قصص جيكوتيو، ومومبي، وكرانجا، وكل منهم يحمل ماضياً بغيضاً.

ومن خلال كل ذلك، يتكشَّف السرد عن تواطؤات، ومساومات، وخيانات. إنه ينطلق في روايته هذه من المثل الكيني الذي يقول: «إن من يلدغك موجود في ملابسك»، لكن الرسالة التي تريد أن توصلها «حبة قمح» هي أن الكولونيالية ليست ببساطة صراعاً بين أمتين، بل بين مُثُل أخلاقية: الإمبريالية الغربية مقابل التقاليد الكينية، والأفريقية عموماً.

في روايته الثالثة «النهر ما بين»، وهي في الحقيقة روايته الأولى، لكنها نشرت بعد «لا تبكي يا طفل» و«حبة قمح»، يتناول واثيونغو قصة عاشقين، ومن خلال ذلك يصوّر لنا الصراع بين رجال الدين المسيحي المتعصبين والإيمان الشعبي التقليدي. وهي توحي من خلال ذلك، بأن محاولات تحقيق الوحدة بين المجموعات المختلفة ثقافياً عبر عملية التعليم محكومٌ عليها بالفشل في ظل استغلال الشركات الرأسمالية، الأجنبية والمحلية، للعمال والفلاحين.

ولد نغوجي واثيونغو سنة 1938. وبدأ يكتب وهو بَعْدُ طالبٌ في الجامعة. وبعد تخرُّجه، واصل دراسته العليا في الأدب المقارن، الأفريقي والإنجليزي، في جامعة «ليدز» في بريطانيا، ثم عُيِّنَ أستاذاً جامعياً في بلده. ونتيجة نشاطه السياسي، اضطر لمغادرة كينيا، حيث قضى سنواتٍ طويلة في المنفى. وعاد مع زوجته إلى بلده عام 2004، ليتعرض إلى هجوم كبير على بيته، كاد يودي بهما.

إضافة إلى الرواية والكتابة السياسية، كتب واثيونغو للمسرح أيضاً، وكانت أولى مسرحيّاته «الناسك الأسود». وبعد تحوله إلى الكتابة بلغة كيكويو، أصدر مسرحيته «سأتزوج عندما أريد». والطريف أنه اختار

أن يكتب بهذه اللغة المحلية أولاً، ثم يتولى الترجمة بنفسه إلى اللغة الإنجليزية. ولعله يذكّرنا هنا بالروائي والكتاب المسرحي كاتب ياسين، صاحب رواية «نجمة»، الذي اختار في عز شهرته في فرنسا بعد إصداره هذه الرواية، أن يستقر في مدينة بلعباس الجزائرية، ويكتب مسرحياته بالدارجة المحلية، كوسيلة لمحاربة «الاستعمار اللغوي».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الأول

ها هو ذا (ميوغو) تنهشه الهواجس مستلقياً على ظهره شاخصاً ببصره إلى السقف. ثمة خصل هامدة من الحشائش والسرخس تتهدّل من سقيفة القش وتتجه كلها صوب قلبه. وها هي قطرة من الماء الصافي تتدلى فوقه مباشرة. لقد أخذت هذه القطرة تنتفخ رويداً رويداً وتزداد اتساخاً كلما زادت تشبعاً بذرات السخام. ها قد بدأت الآن بالسقوط باتجاهه. حاول أن يطبق جفنيه ولكن هيهات... جرّب أن يزيح رأسه غير أنه وجده مقيَّداً بهيكل السرير. لقد بدأت هذه القطرة تتسع شيئاً فشيئاً كلما زادت اقتراباً من عينيه فأراد أن يغطي عينيه براحتيه إلا أن يديه وقدميه، بل كل أعضائه رفضت الخضوع لمشيئته. وأخيراً استجمع ميوغو قواه وبجهد يائسٍ أخير، هبّ مستيقظاً من نومه. وها هو الآن يلتحف الدثار نهباً للمخاوف والوساوس من أن تسملَ عينيه فجأة - كما تراءى له في الحلم - قطرة من الماء البارد. لقد كان الدثار خشناً وبالياً، كما كان وبره يخزه في وجهه وفي رقبته بل ويخز في الواقع كل الأقسام العارية من جسده. وقع ميوغو في حيرة من أمره؛ أيقفز من السرير أم يبقى فيه. لقد كان السرير دافئاً ولمّا تشرق الشمس بعد في الوقت الذي كانت تتسلل فيه خيوط الفجر إلى الكوخ من شقوق الجدار. حاول أن يلجأ إلى لعبة كان يمارسها دائماً كلما حاصره الأرق إبان منتصف الليل أو مع تباشير الصباح الأولى. إن معظم الأشياء في حلكة الظلام الدامس أو وقت الغسق تفقد حدودها المميزة لها ويختلط الحابل بالنابل. كانت اللعبة تتألف من محاولة تمييز الأشياء المختلفة بعضها عن بعض داخل الغرفة، بيد أن ميوغو وجد هذا الصباح

أنّ من العسير عليه أن يركز انتباهه، وكان يدرك أن الأمر لا يتعدى الحلم: ومع ذلك فقد لازمه الشعور بالرعدة من فكرة قطرة الماء البارد وهي تسقط في عينيه. واحد اثنان، ثلاثة، طرح الدثار جانباً عن جسده وغسل وجهه وأشعل النار في الموقد. اكتشف في إحدى زوايا الكوخ مقداراً ضئيلاً من طحين الذرة في أحد الأكياس بين الأواني المنزلية، فوضع هذا الطحين في قصعة على النار وأضاف إليه الماء وحركه بملعقة خشبية. لقد كان يحب العصيدة في الصباح، ولكنه كان كلما تناولها تذكَّر العصيدةَ المُنَصَّفة في المعتقل. يا للزمن كيف يمرُّ متثاقلاً وكيف تعيد الأشياء سيرتها الأولى، هذا ما تصوَّره ميوغو: إن الغد سيكون تماماً كالبارحة وكالأمس البعيد أيضاً.

تناول المجرفة والفأس كي يكون مسلكه اليومي الذي أصبح مألوفاً في حياته منذ أن غادر (ماغوينا) وهو آخر معتقل حلَّ به. لقد كان على ميوغو أن يجتاز الدروب الترابية في القرية لكي يصل إلى مزرعته الصغيرة الجديدة التي كانت تقع على الجانب الآخر من ثاباي. وكالعادة وجد ميوغو أن بعض النسوة قد بكّرن قبله وأن بعضهن قد عدن أدراجهن من النهر وقد تقوست ظهورهن الواهنة ضِعف تقوسها المألوف بسبب جرادل المياه، لقد عدن أدراجهن في الوقت المناسب لتحضير الشاي والعصيدة لأزواجهن وأطفالهن. ها قد ارتفع قرص الشمس الآن: كانت ظلال الأشجار والأكواخ والرجال ظلالاً رفيعة وطويلة على الأرض.

- كيف تسير الأمور معك هذا الصباح؟ بادره (واروي) وقد برز من أحد الأكواخ.

- إنها حسنة. وكالعادة كان بودّ ميوغو لو مضى في سبيله غير أن واروي بدا تواقاً للحديث.

- أتداهم الأرض باكراً؟

- نعم.

- هذا ما أقوله دائماً لنفسي. امض إليها حين تكون التربة طرية. لتجدك

الشمس قد سبقتها وحينئذٍ لن تكون الشمس ندّاً لك. لكن إذا وصلت الشمس قبلك إلى المزرعة فتبّاً لك من مزارع.

كان واروي، وهو قروي عجوز، يلبس كساءً جديداً يكشف بشكل صارخ عن تجاعيد وجهه وعن خصل الشعر الأشيب على رأسه وعلى سَبلَة ذقنه. لقد كان هو من أعطى ميوغو قطعة الأرض الخالية كي يستنبت عليها ما يقيم به أوده، وأما أرضه فقد صادرتها له الحكومة حينما كان نزيل المعتقل. وعلى الرغم من أن واروي كان محباً للحديث واللغو فقد توصل إلى احترام تحفّظ ميوغو، ولكنه كان في هذا اليوم ينظر إلى ميوغو باهتمام جديد، بل بفضول.

– «كما يقول لنا كينياتا»، تابع حديثه «فإن هذه الأيام هي أيام الانتصار على الغزاة». توقف عن حديثه وقذف على السياج بصقة كبيرة. وقف ميوغو مرتبكاً لهذه المواجهة. «وكيف حال كوخك. هل أعددته للاحتفال؟» تابع واروي حديثه.

– آه. إنه على ما يرام»، قال ميوغو بعد أن اختلق لنفسه عذراً ومضى في سبيله. وبينما كان يعبر القرية كان يشحذ تفكيره محاولاً العثور على تفسير للسؤال الأخير الذي وجهه إليه واروي.

كانت ثاباي قرية كبيرة ضمّت أثناء بنائها عدداً من النجود: ثاباي، كامندورا، كيهنجو، وأقساماً من ويرو. وحتى في عام 1963 لم تتطور القرية تطوراً كبيراً عما كانت عليه في عام 1955 حين تمّ على عجل تجميع سقائف القش والجدران الطينية في الوقت الذي كان فيه سيف الإنسان الأبيض مسلطاً بشكل خطير على رقاب العباد بحجة حمايتهم من إخوانهم الذين التجؤوا إلى الغابة. لقد تداعت بعض الأكواخ من تلقاء نفسها وأما بعضها الآخر فقد تمّ تقويضه. ومع ذلك فقد حافظت القرية على تناسق مطلق؛ لقد كانت تبدو من مسافة بعيدة على شكل كتلة ضخمة من الحشائش التي ينطلق منها الدخان في عنان السماء وكأنه دخان قربان محروق.

سار ميوغو وقد أطرق برأسه يحدق في الأرض كأنه خجل من التلفّت حوله. وبينما كان يستعيد في ذهنه صورة تلك المقابلة مع واروي سمع فجأة من ينادي باسمه، فأجفل وتوقف وحدق إلى غيثوا الذي جاء نحوه يعرج متوكئاً على عكازيه. وحين وصل إلى ميوغو وقف أمامه باستعداد وخلع قبعته البالية وصاح بأعلى صوته:

- «باسم حرية الإنسان الأسود أحييك» ثم انحنى بعد ذلك مرات عديدة في خضوع هزلي.

- هل تسير، هل تسير الأمور معك على ما يرام؟ سأله ميوغو وهو لا يعرف كيف يجب عليه أن يرد على تصرف غيثوا. واجتمع حولهما في غضون ذلك طفلان أو ثلاثة يسخرون من تصرفات غيثوا المضحكة. لم يحر غيثوا جواباً مباشرة. كان قميصه ممزقاً وتلمع قبته سواداً من القذارة. كانت الساق اليسرى لبنطاله مطوية ومشكولة بشكال كي تغطي جذعة ساقه. وعلى حين غرة تقريباً تشبّث بيد ميوغو.

- كيف أحوالك يا صاح! كيف أحوالك يا صاح! إنني سعيد لرؤيتك تبكر إلى المزرعة. الانتصار على الغزاة... قه، قه، قه، أتزاول العمل حتى في أيام الآحاد، اسمع لقد كنت مثلك قبل حالة الطوارئ. قبل أن يُفعل في الإنسان الأبيض بطلقاته ما تراه، كان بإمكاني أن أمارس العمل بكلتا يدي يا صاح. إن رؤيتي لحيويتك تجعل قلبي يرقص طرباً. الانتصار على الغزاة. أحييك أيها الزعيم.

حاول ميوغو أن يشد يده منه، وبدأ قلبه بالخفقان ولكنه لم يجد الكلمات المناسبة. وزاد تضاحك الأطفال من اضطرابه. وعلى حين غرة تبدلت لهجة غيثوا: «لقد حطمتنا حالة الطوارئ»، قالها بصوتٍ تخنقه العبرات وولى الأدبار بشكل مفاجئ. حث ميوغو خطاه وهو يدرك بأن عيني ذلك الرجل تلاحقانه. ثلاث نسوة كن عائدات من النهر توقفن حينما شاهدنه، وقالت إحداهن شيئاً ما بصوت مسموع ولكن ميوغو لم يحر جواباً ولم يتطلع إليهن. كان يثير خلفه غباراً كالغبار الذي يثيره إنسان هارب. ومع

ذلك فقد سار وهو يسائل نفسه: ترى ما العيب الذي يظهر عليّ هذا اليوم؟ ولماذا يتطلع الناس إليّ فجأة بفضول، هل علق غائط بساقيّ؟

وسرعان ما اقترب من نهاية الشارع الرئيس حيث كانت تقطن المرأة العجوز. لم يكن إنسان يعرف كم عمرها: لقد كانت هناك كشيء ألفته العيون في القرية القديمة التي انقلبت الآن إلى قرية جديدة. كانت تعيش في القرية القديمة مع ابنها الوحيد الذي كان أصم أبكم. كان غيتوغو، وهذا اسم الصبي، يتكلم بمساعدة يديه اللتين كان يرافقهما غالباً صخب حيواني صادر عن البلعوم. كان وسيماً قوي البنية وأثيراً لدى الساحة الرئيسة في رونجي القديمة حيث كان الشباب يقضون طيلة يومهم بالأحاديث. وكان هؤلاء الشباب من وقت لآخر يؤدون بعض الخدمات لأصحاب الحوانيت يتكسبون من ورائها شيئاً من النقود «مجرد مصروف الجيب، ولكي يبقى البنطال دافئاً ليس إلا» كما كان ينوه بعضهم باستخفاف. لقد كانوا يتضاحكون ويقولون بأن المال يجر إليه المال الآخر (أقاربه يا هذا!) في الوقت المناسب.

كان غيتوغو يشتغل في المطاعم الرخيصة وفي حوانيت القصابين، وكثيراً ما كان يحمل ويرفع الأحمال الثقيلة التي كان يتملص منها الآخرون. وكان يتباهى بعرض عضلاته المفتولة. وأما الإشاعات التي كانت رائجة وقتها في رونجي وثاباي فقد كانت تفيد بأن العديدات من النساء الشابات قد خبرن وطأة ساقيه فوقهن. وفي الأمسيات كان غيتوغو يشتري الطعام - رطلاً من السكر أو رطلاً من اللحم - ويأخذه إلى البيت لأمه التي كانت تنفرج أساريرها ويستعيد وجهها المتغضّن نضارة الشباب. يا له من صبي. يا له من رجل - هذا ما كان الناس يتناقلونه عنه وقد سحرهم حدب هذا الصبي الأبكم الأصم على أمه.

وفي صبيحة أحد الأيام استيقظ الناس في ثاباي ورونجي ليجدوا أنفسهم ضمن طوق كامل من الجنود السود والبيض حملة البنادق. ومن الدبابات التي لم يشاهدوا مثلها على قارعة الطريق لآخر مرة إلا أثناء

حرب تشرشل على هتلر. ولعلع أزير الرصاص في السماء فكتم الناس أنفاسهم هلعاً. لقد احتجز بعض الناس أنفسهم في المراحيض كما اختبأ بعضهم الآخر في الحوانيت بين أكياس السكر والفول، ومع ذلك فقد حاول بعض الناس التسلل خارج القرية باتجاه الغابة لا لعلة إلا لكي يجدوا أن كل الدروب إلى الحرية موصدة في وجوههم. وبعد أن تمّ حشد الناس في الساحة الرئيسة في السوق بقصد غربلتهم ركض غيتوغو إلى أحد الحوانيت وقفز فوق الطاولة وكاد يقع على صاحب الحانوت الذي كان يرتعد هلعاً بين الأكياس الفارغة. فقام ببعض الحركات التعبيرية واصطخب بجلبة مرتبكة واختلس النظر إلى الجنود وأومأ إليهم. فما كان من صاحب الحانوت إلا أن ألقى في الفراغ – مروراً بغيتوغو – نظرة بلهاء تطفح برعب خسيس. وسرعان ما تذكر غيتوغو أن أمه العجوز تمكث وحيدة في الكوخ، وفي الحال جمح به خياله إلى تصور الأفعال المنكرة ومناظر الدماء فاندفع خارجاً من الباب الخلفي وقفز من فوق حاجز إلى الحقول يحفزه الآن تصور ما قد تتعرض له أمه من مخاطر. البيت، الأم، ضرورة وجوده هناك. كلها صور خطرت في ذهنه. ما من شيء يحمي أمه سوى عضلاته. لم ينتبه إلى وجود إنسان أبيض يرتدي بزة عسكرية ويكمن في أجمة صغيرة. «قف» صاح به الرجل الأبيض. تابع غيتوغو عدوه. شيء ما خبطه على ظهره. رفع ساعديه في الهواء وهوى على بطنه. كان من الواضح أن الطلقة قد أصابت منه مقتلاً في قلبه. ترك الجندي مكمنه. ها قد قتل إنساناً آخر من عصابة الماو ماو.

حينما بلغ النبأ العجوز لم تضف شيئاً على قولها: يا للهول. وأولئك الذين كانوا معها قالوا بأنها لم تذرف الدمع وحتى إنها لم تسأل كيف لقي ابنها مصرعه.

وبعد أن غادر ميوغو معسكر الاعتقال شاهد مرات عديدة تلك المرأة العجوز خارج كوخها، وكان كل مرة يشعر بالاضطراب وكأن هذه العجوز تعرفه على حقيقته. كان لها وجه صغير حفرته التجاعيد كما كانت عيناها

صغيرتين يبرق فيهما بريق الحياة من حين لآخر. ما خلا ذلك كانتا تبدوان كعينين ميتتين. كانت العجوز تلبس الخرز حول مرفقيها وعدة أطواق نحاسية حول عنقها وصفائح تشبه الأصداف حول كاحليها، وكانت حينما تسير تسمع لها خشخشة مدوية كخشخشة أجراس الماعز. كانت عيناها أكثر ما يثير الاضطراب في ميوغو، وكان يشعر دائماً بأنه عار ومكشوف أمامهما، وفي أحد الأيام تحدث إليها بيد أنها لم تضف على أن نظرت إليه وبعد هنيهة أشاحت بوجهها بعيداً عنه. شعر ميوغو بأنه ثقيل الظل عليها ومع ذلك فإن وحدتها كانت تثير فيه فيضاً من مشاعر الشفقة. رغب في مساعدتها. هذا الشعور زوده بالدفء داخلياً فاشترى بعض السكر وطحين الذرة وحزمة من الحطب من أحد حوانيت كابوي، وفي المساء اتخذ دربه إلى بيت المرأة. كان داخل الكوخ مظلماً وكانت الغرفة عارية من الأثاث كما كانت الرياح الباردة تعوي من خلال صدوع الجدار، وأما العجوز فقد كانت تفترش الأرض قرب الموقد. وتذكر ميوغو أنه هو نفسه كان ينام على الأرض قرب الموقد في كوخ عمته، يقاسم الماعز والشياه دفء الموقد. ولطالما كان يزحف ويجثم قرب المعزى طلباً للدفء. وفي الصباح كان يجد وجهه وثيابه معفرة بالرماد ويديه وقدميه ملطختين ببعر الماعز. وفي خاتمة المطاف جسأت نفسه على رائحة الماعز. ومن خلال هذه الأفكار كان ميوغو يشعر بأنه مسمّر في مكانه من جراء ما تلقيه عليه تلك المرأة من نظرات يبرق فيها اليقين. وفجأة بدأت ترتعد فرائصه لفكرة احتمال لمس تلك المرأة له فولى الأدبار يعصف به الغثيان. لربما نجم أمر جلل عن اتصاله بهذه المرأة العجوز.

هذا اليوم كانت هذه الفكرة طاغية في ذهنه حين شعر للمرة الثانية برغبة الدخول إلى كوخها والتحدث إليها. لقد كان هناك وثاق بينها وبينه ربما لأنها تحيا وحيدة مثله. فتثاقلت خطاه عند الباب وخارت عزيمته فانهار ووجد نفسه يسرع في الهرب مخافة احتمال دعوتها له بالرجوع من خلال قهقهة مجنونة.

في المزرعة شعر بأنه خاو. لم تكن ثمة محاصيل في الأرض. تبّاً لتلك الأعشاب اليابسة التي لا نفع فيها وتباً لحرارة الشمس. لقد بدت المنطقة قفراء جدباء، كما بدت المجرفة أثقل من المعتاد والقسم الأجرد من المزرعة بدا أكبر بكثير مما تستطيع إنجازه عضلاته المسترخية. حفر قليلاً وحين شعر برغبته في التبوّل سار إلى سياج قريب من الممر: لماذا يا ترى تصرف معه واروي وغيثوا والنسوة بتلك الطريقة؟ اكتشف أن مثانته قد خدعته في إلحاحها عليه بالتبول. ليس إلا بضع نقاط قليلة تقطرت منه فنظر إليها وكأن كل نقطة منها قد ملأته سحراً. امرأتان شابتان كانتا ترتديان أنفس ثيابهما بنيّة الذهاب للكنيسة مرتا بالقرب منه ولاحظتا فيه رجلاً ضخماً يداعب قضيبه فقهقهتا ضاحكتين. فشعر ميوغو بالبلاهة وجرّ نفسه عائداً لمزاولة عمله.

رفع مجرفته وتركها تسقط على التربة، ثم رفعها وأسقطها مرة ثانية. كانت التربة تبدو رخوة وكأن أنفاق الخلد تقوم تحت سطحها مباشرة. لقد استطاع أن يسمع التربة وهي تنهال إلى الأسفل جافة وخاوية. ثار الغبار في السماء. طمره. ومن ثم استقر في شعره وثيابه، واستقرت ذرة غبار داخل عينه اليسرى، فأسرع بإلقاء المجرفة غاضباً وفرك عينه التي بدأت تؤلمه ألماً شديداً وقد بدأت الدموع تَنهَلُّ من كلتا عينيه. ثم جلس: أين منه ذلك السحر الذي كان يجده في الأرض قبل حالة الطوارئ؟

لقد مات أبوا ميوغو فقيرين وتركاه وحيداً في رعاية عمة بعيدة له... كانت عمته ويثيريرو أرملة لها ست بنات متزوجات. وكانت تذكّر ميوغو بهذه الحقيقة كلما عادت سكرى إلى البيت.

«البنت نجس»، كانت تقول ذلك وتكشف عن لثة فقدت أسنانها. كانت تسمّر ميوغو في مكانه من خلال نظرة قاسية وكأنما قد تآمر مع الإله عليها، «إنهن حتى لا يأتين لزيارتي»، أتضحك، أنت... ما جدوى قضيبك؟ آه يا إلهي. انظروا إلى هذا الناكر للجميل الذي أناخ بعبئه على كاهلي. لولاي لكنت لحقت بأبيك إلى القبر. تذكر ذلك وكف عن الضحك.

وفي يوم آخر كانت تبدي تذمرها من ضياع نقودها.

- «إنني لم أسرقها» كان يجيبها ميوغو متراجعاً إلى الخلف.

- ليس في البيت إلا أنت وأنا. ليس من المعقول أن أكون أنا سارقتها، فمن يمكن أن يكون قد سرقها؟

- أنا لست لصاً.

- هل تقول بأنني أكذب؟ كانت النقود هنا وأنت رأيتني أطمرها تحت هذا العمود. بالطريقة التي ينظر بها. إنه يتصنّع المسكنة.

كانت امرأة جدعاء تشكو دائماً من أن الناس يريدون قتلها. لقد وضعوا لها الزجاجات المكسورة والضفادع في معدتها. وأرادوا دس السم لها في طعامها أو شرابها.

ومع ذلك فقد كانت تغادر البيت طلباً للمزيد من البيرة. وكانت تضايق رجالاً من أتراب زوجها إلى أن يقدموا لها الشراب. وفي أحد الأيام عادت وهي في حالة سكر شديد:

«ذلك الإنسان واروي، إنه يكره أن يراني آكل وأتنفس، وتلك الابتسامة - الماكرة - إنه - يحبو - يسعل - مثلك - أنت - اذهب وانضم إليه».

وحاولت أن تقلد سعلة واروي ولكنها إبان محاولتها تلك انتابها السعال فعلاً. وفجأة أمسكت برقبتها، وقفت، ترنحت وسقطت، ومن ثم اندلقت كل البيرة التي شربتها والقيء على أرض الكوخ. جثم ميوغو بين الماعز آملاً وخائفاً من أن تكون قد أسلمت الروح. وفي الصباح أجبرت ميوغو على رش التراب على القيء. زكمت أنفه الرائحة الحريفة وخنقه الغثيان مما منعه من الكلام أو البكاء. لقد تآمرت الدنيا بأسرها عليه، أولاً لحرمانه من أمه وأبيه وبعدئذ لاضطراره الاتكال على عجوز حيزبون.

وأخذت كلما اشتد بها الوهن تزيد من بغضها له، وتسخر من أفعاله مهما فعل أو تصرف، وبذلك أصبح ميوغو مهووساً بصورة عجزه. لقد كانت لها دائماً طريقتها الخاصة في الإساءة إليه، وربما من خلال توجيه ملاحظة ما

إلى ثيابه أو وجهه أو يديه، ملاحظة تقوض له كبرياءه كله. فتظاهر بتجاهل آرائها ولكن أنّى له أن يغلق عينيه عن نظراتها وابتساماتها الساخرة.

صارت رغبته الوحيدة تتمثل في قتل عمته.

وفي إحدى الأمسيات استحوذت عليه هذه الفكرة الجنونية. كان يستشيط غضباً في داخله، هذه الليلة عادت ويثيريرو غير مخمورة. إنه لن يستخدم فأساً أو ساطوراً، بل سوف يمسك بخناقها ويخنقها بيديه المجردتين. هبني العزم يا إلهي، هبني العزم. كان يرقبها وهي تكافح كذبابة وقعت بين يدي عنكبوت. أنّاتها وصرخاتها المخنوقة طلباً للرأفة، بلغت مسامعه. لسوف يضغط أكثر ويجعلها تشعر بقوة الرجل في يديه. اندفع الدم إلى رؤوس أصابعه، وطفق يلهث مسحوراً جداً بجرأة وجسارة فعلته.

«لماذا تحملق بي بهذه الطريقة؟» سألته ويثيريرو، وضحك في سرّه. «إنني أقول دائماً بأنك إنسان غريب الأطوار، إنسان من ذلك الصنف الذي يقتل أمه، أفليس كذلك؟»

أجفل. إن تبصّرها بسريرته أمر مؤلم.

ماتت ويثيريرو بشكل مفاجئ بسبب تقدمها في السن وإفراطها في الشراب. بناتها جئن إلى الكوخ لأول مرة منذ زواجهن، وتظاهرن بأنهن لم يلمحن ميوغو، ودفنّها دونما أية تساؤلات أو دموع. عدن إلى بيوتهن. ومن ثم – يا للغرابة – بدأ ميوغو يشعر بالحنين إلى عمته. فمن هو بعد الآن ذلك الإنسان الذي بإمكانه أن يطلق عليه صفة القرابة؟ لقد شعر بحاجته لإنسان ما، لأي إنسان ينفعه أو يضره باسم حق القرابة، ولسوف يكون هذا الإنسان أو ذاك، طالما لا يتركه وحيداً، إنساناً دخيلاً عليه.

اتجه إلى الأرض. لسوف يعمل ويُعرف، ولسوف يجبر المجتمع على الاعتراف به من خلال النجاح والثروة. لقد كان يتمثل العزاء بالنسبة إليه في مجرد العمل بتفتيت التربة: في بذر البذار وفي مشاهدة الأوراق الخضر تتمايل وتطل بأعناقها من تحت التراب، وفي رعاية النباتات إلى أن تنضج ومن ثم في جني المحصول. كانت هذه الأمور هي الشغل الشاغل للعالم

الذي خلقه لنفسه وهي التي كونت الأساس الذي انطلقت منه أحلامه في عنان السماء. إلا أن كيهيكا جاء في تلك الآونة، وفي تلك الآونة بالذات، كي يعترض مسيرة حياته.

عاد ميوغو إلى بيته أبكر من المعتاد. وعلى الرغم من أنه لم يقم بعمل كبير فقد كان منهكاً. لقد سار إلى بيته كإنسان يدرك بأنه مطارد أو مراقب، ومع ذلك لا يريد فضح ذلك الإدراك من خلال مشيته أو تصرفه. وفي المساء سمع وقع خطى خارج الكوخ. فمن تراه هذا الطارق؟ فتح الباب وفجأة تمثل له خليط كل تلك المشاعر التي انتابته طيلة النهار خوفاً وحقداً. واروي أكبر المجموعة سناً، كان على رأس المجموعة، وبجانبه كانت تقف وامبوي، إحدى نساء النهر. ها هي تبتسم الآن وتكشف عن صف مفقود من الأسنان في فكها السفلي. وأما الإنسان الثالث فقد كان غيكونيو الذي كان متزوجاً من أخت كيهيكا.

«تفضلوا بالدخول» قال بصوت قلما تمكن معه من إخفاء اضطرابه. اختلق لنفسه عذراً وذهب باتجاه المرحاض. «ابتعدْ عن كل هؤلاء الناس... لم أعد أعير اهتماماً»... لم أعد أعير اهتماماً. دخل المرحاض وأنزل بنطاله حتى ركبتيه، هوّمت في أفكاره صور عجلى لزواره الجالسين في كوخه. حاول مرات عديدة أن يقسر نفسه على إسقاط شيء ما في حفرة المرحاض. ولما أخفق في ذلك رفع بنطاله. ولكنه شعر براحة أكبر لقيامه بهذا الجهد. عاد أدراجه إلى زواره ولم يتذكر بأنه لم يلق التحية عليهم حتى الآن.

«لسنا إلى ممثلين مرسلين لك من الحزب» - قال غيكونيو بعد أن صافح ميوغو الجميع.

- الحزب؟

- «نعم... نحن مجرد أصوات من الحزب»، أعاد عليه القول غيكونيو بصوت بطيء وقد برقت عيناه وخلب لبّه قوله الغامض.

* * *

الفصل الثاني

لقد كان الناس كلهم تقريباً أعضاء في الحزب، ولكن لم يكن بمقدور أي إنسان أن يحدد موعد ميلاد الحزب على وجه الدقة؛ فبالنسبة إلى معظم الناس، ولا سيما بالنسبة إلى الجيل الصاعد، كان الحزب موجوداً دائماً، مركز تجمع لمصلحة العمل. لقد استبدل الحزب أسماء عديدة، جاءته القيادات ومضت، ولكن بقي الحزب يفتح آفاقاً جديدة، يستجمع قوة تتزايد شيئاً فشيئاً إلى أن امتد نفوذه، عشية الاستقلال، من ذلك الأفق الذي يلاصق البحر إلى الأفق الذي يستند إلى البحيرة الكبرى.

ويمكن تتبع أصوله، كما يقول الناس، إلى ذلك اليوم الذي جاء فيه الإنسان الأبيض إلى البلاد شاهراً كتاب الله بكلتا يديه كشاهد سحري على أن الإنسان الأبيض جاء رسولاً من الله. كان كلامه معسولاً كما كان تواضعه يثير الشفقة. وتجاهل الناس، ردحاً من الزمن، صوت متنبئ قبيلة الغيكوبو الذي قال ذات مرة: سيأتي إليكم قوم بثياب كالفراشات. ومنح الناس ذلك الإنسان الغريب ذا البشرة المسمّطة موطئ قدم كي يشيد ملجأ مؤقتاً له. وبعد أن استكمل هذا الغريب بناء كوخه أشاد بناء آخر على بعد ياردات قليلة. هذا البناء دعاه بيت الله حيث كان بوسع الناس ارتياده للعبادة وتقديم القرابين.

وتحدث الإنسان الأبيض عن بلاد أخرى تقع خلف البحر وتتربع فيها امرأة قوية على العرش بينما كان الرجال والنساء فيها يرقصون تحت ظل سلطانها وكرمها. وكانت على استعداد لبسط نفوذها حتى يشمل

الآغيكويو. لقد سخر الناس من هذا الإنسان الغريب الأطوار الذي انسمطت بشرته على نحو عميق جداً مما أدى إلى انسلاخ بشرته السوداء الخارجية. لا بد من أن الماء الساخن قد دخل في رأسه.

ومع ذلك فإن كلماته عن امرأة تتربَّع على العرش قد لامست شغاف القلوب وغاصت في أعماق تاريخهم. حدث ذلك منذ سنين عديدة جداً خلت. بعدئذ حكمت النسوة أرض الآغيكويو. لم يكن لدى الرجال أية أملاك وما وجدوا هناك إلا لتلبية نزوات النساء ورغباتهن. كانت تلك السنون سنين عصيبة. وهكذا اغتنم الرجال فرصة ذهاب النساء إلى الحرب فدبروا ثورة وتعاهدوا سراً على إبقاء النساء مكبلات واحدتهن بالأخرى في مسعاهن العام ابتغاء الحرية. ولسوف يضاجعون كل النساء في وقت واحد. ألم يتعودوا على أن الأبطال يعودون جياعاً للحب والدعة؟ وفعل القدر البقية. وأصبحت النساء حبالى، والاغتصاب لاقى مقاومة طفيفة.

ولكن ذلك لم يكن نهاية تربع المرأة على السلطة في البلاد؛ إذ بعد مضي عدة سنوات أصبحت امرأة أخرى قائدة وحكمت قطاعاً واسعاً في مورانغا. كانت امرأة جميلة، وكانت في حفلات الرقص تهز أردافها المكتنزة ذات اليمين وذات الشمال، كما كان شعرها المضفور يرتفع ويهبط خلفها وفقاً لوقع خطواتها. وهذا ما جعل الرجال، بالإضافة إلى بريق أسنانها البيضاء بياض الحليب، يلعقون شفاههم ويتلمظون شهوة. والتفوا حول بلاطها، شيباً وشباناً، دونما خجل يحدوهم الأمل. وأنغو ماكري اصطفَت لنفسها محاربين شباباً أصبحوا هم أنفسهم موضع غيرة وحسد الآخرين الأقل حظوة منهم. وأدى لها الولاء رجال أكثر عدداً، وما تخلّفوا عن حضور حفلة راقصة واحدة كانت تظهر بها، وكان العديد منهم غاية في الشوق لأن يتسنى لهم إلقاء نظرة على فخذيها. إلى أن جاءت في إحدى الأمسيات وقد حفزها دونما ريب إما الإعجاب الذي كانت تثيره، وإما أنها كانت ترغب في إشباع اشتياقهم الوقح، فتجاوزت وانغو ماكري نفسها. فرقصت، بعد أن نضت عنها ثيابها كلها، عارية تحت ضوء القمر.

وألهب مشاعر الناس، مدة لحظة، ذلك السلطان الذي يفرضه جسد امرأة عارية. وتلاعَبَ بها القمر: رفرفت على وجه المرأة نشوة، خليط من الغم والبهجة. ولربما عرفت هي أيضاً بأن هذه الليلة هي النهاية؛ ما من امرأة سارت أو رقصت عارية على مرأى من الملأ، فخلعت عن العرش وانغو ماكري، آخر عظيمات نساء الغيكويو.

مسألة المسيح لم يستطيعوا فهمها في البداية، إذ كيف يسمح الله بأن يُصلب هو نفسه على شجرة؟ وتحدث الإنسان الأبيض عن ذلك الحب الذي لا تدركه العقول. لم يكن لدى أي إنسان آخر حب يفوق حب ذلك الإنسان. وقرأ من الكتاب الأسود الصغير عن إنسان قدم حياته في سبيل أصدقائه.

وأما النفر القليل من الناس الذين صبؤوا إلى المسيحية فقد شرعوا يدافعون عن معتقد غريب على عادات البلاد. داسوا بأقدامهم على الأماكن المقدسة لكي يبيّنوا للآخرين أن الأذى لا يمكن أن يحلق بأولئك الذين تصونهم يد الرب. وسرعان ما لاحظ الناس أن الإنسان الأبيض قد حاز بشكل تدريجي على أرض أكثر من ذي قبل تلبية لحاجات وضعه المتزايدة. لقد قوّض الكوخ المسقوف بالقش ليشيد مكانه بناءً أرسخ منه. احتج شيوخ البلاد. لقد كانوا يبصرون ما يقع خلف الوجه الضاحك للإنسان الأبيض وشاهدوا فجأة رتلاً طويلاً من الغرباء الحمر الجدد الذين كانوا يشهرون السيف لا الإنجيل.

واياكي وغيره من قادة المحاربين حملوا السلاح. الحية الحديدية التي تحدث عنها ميوغو وكيبيرو كانت تتسلل بسرعة باتجاه نيروبي بغية استثمار كامل للمناطق النائية من البلاد. فهل استطاعوا طردها؟ تشبثت الحية بالأرض وهي تسخر من جهودهم حدّ الاحتقار. والإنسان الأبيض، بقضبان الخيزران التي كانت تبصق اللهب والدخان، دافع عن نفسه، وضحكاته المتوعدة بقيت أصداؤها في قلوب الناس إلى أجل طويل بعد اعتقال واياكي ونقله إلى الساحل مكبل اليدين والقدمين. وفيما بعد، كما

يقال، دفن واياكي حياً في كبوازي ورأسه ناتئ من الأرض كتحذير حيّ لأولئك الذين قد تسول لهم أنفسهم في السنوات القادمة، محاولة تحدي سلطة المرأة المسيحية التي تجاوز ظل حمايتها الآن السهل والبحر.

لم يعر أحد اهتماماً إلى دم واياكي في ذلك الحين، ولكن إن عدنا بأبصارنا إلى الوراء لوجدنا أنه كان يحمل معه بذرة، حبة، خلقت حزباً سياسياً انبثقت قوته الأساسية فيما بعد من ميثاقه مع الأرض.

في غضون ذلك، فرّخت المراكز التبشيرية قادة جدداً، رفضوا أن يأكلوا من طيبات فرعون واختاروا، بدلاً من ذلك، قطع الحشائش وصنع الطوب مع الأطفال الآخرين.

ولذلك رأى الناس في شخص هاري ثوكو رجلاً يحمل رسالة الله: امض إلى فرعون وأبلغه: دع شعبي يمضي، دع شعبي يمضي. وأقسم الناس أن يسيروا خلف هاري عبر الصحراء. ولسوف يشدون أحزمتهم على بطونهم استعداداً لمكابدة العطش والجوع والدموع والدماء إلى أن تطأ أقدامهم أرض كنعان. لقد تقاطروا لحضور اجتماعاته زرافات ووحدانا ينتظرون منه أن يعطيهم الإشارة. وشهّر هاري بالإنسان الأبيض ولعن ذلك الكرم وتلك الوقاية اللتين تنكران على الناس الأرض والحرية. لقد أذهلهم بقراءته عليهم جهاراً رسائل إلى الإنسان الأبيض، رسائل صوّر فيها بعبارات واضحة سخط الناس على الضرائب وعلى العمل الإجباري في أرض المستوطن الأبيض، وعلى خطة بناء الثكنات العسكرية التي تركت العديد من الناس السود، بعد الحرب الكبرى الأولى، بلا بيوت أو أراض حول تيغوتي وأمكنة أخرى.

طلب منهم هاري أن ينضموا إلى صفوف الحزب ليجدوا القوة في الوحدة.

تحدثوا عنه في بيوتهم وأنشدوا الأهازيج في مديحه في حوانيت شرب الشاي وفي الأسواق كما كانوا ينشدونها في طريقهم إلى كنائس الغيكويو الأنكليكانية أيام الآحاد. كانت كل كلمة ينطق بها هاري تصبح

أنباءً تتناقلها الألسن من تل إلى آخر في طول البلاد وعرضها. كان الناس يتوقعون حدوث شيء ما. كانت ثورة الفلاحين قاب قوسين.

ولكن الإنسان الأبيض لم يكن غافلاً. فاقتيد هاري الشاب مكبلاً بالأصفاد، وما تجنب الحفرة التي دفن فيها واياكي حياً إلا بصعوبة. فهل كان هذا الحدث هو الإشارة التي كانوا ينتظرونها؟ وتدفق الناس على نيروبي من كل فج عميق، وأقسموا أن يقيموا أيامهم ولياليهم حول دار الحكومة حتى أعاد لهم الحاكم بنفسه محبوبهم هاري.

كان واروي حينئذٍ في مقتبل العمر، سار على قدميه كل تلك المسافة من ثاباي إلى نيروبي كي ينضم إلى تلك المسيرة. إنه لم ينس قط ذلك الحدث العظيم. وحين اعتقل جوم وكينياتا وقادة الحزب الآخرون في عام 1952، تذكر واروي مسيرة 1932.

خطب واروي: «يجب أن يفعل الشباب من أجل جومو ما فعلناه من أجل هاري. ما شاهدت في حياتي أبداً شيئاً يشبه حجم ذلك الرتل من الرجال والنساء»، قال ذلك وهو ينتف شعر لحيته برفق. تابع: «جئنا من تلال هنا ومن تلال هناك، من كل مكان. جاء معظمنا سيراً على الأقدام، وآخرون لم يتزودوا بالطعام فتقاسمنا كل كسرة خبز جلبناها معنا. ما شاهدته هناك كان الحب العظيم بعينه. لقد سقطت حبة فول على الأرض وسرعان ما تم تقسيمها بين الأطفال. بقينا نتجمع لثلاثة أيام في نيروبي وأقسمنا بدمائنا على تحرير هاري».

وفي اليوم الرابع ساروا إلى الأمام وهم ينشدون. والشرطة التي كانت بانتظارهم بالبنادق والحراب المشرعة فتحت النار عليهم. ثلاثة رجال رفعوا أذرعهم في الهواء. يقال بأنهم حين سقطوا تشبثوا بقبضاتهم بالتراب. وابل آخر من الرصاص فرّق الجمهور. سقط رجل وامرأة وتدفق دمهما على الأرض. وركض الناس في اتجاهات شتى. وفي ثوان معدودة كان الجمهور الكبير قد تشتت، ولم يبق خارج المبنى الحكومي إلا خمسة عشر لصاً متفرجاً على الساحة.

«لقد وقع خطأ ما في اللحظة الأخيرة» قال واروي وقد كفّ عن نتف شعرات ذقنه. «ربما لو أن الحراب كانت في أيدينا...»

لقد أخفقت ثورة الفلاحين، وهدأت سورة شبح المرأة العظيمة التي وضعت يدها الرحيمة حداً للحروب القبلية، ولذلك رقدت في قبرها بسلام.

وأما هاري الشاب فقد تم ترحيله إلى مكان قصي من البلاد.

وخاب فأل الحزب مؤقتاً. ولكن صادف في هذه الآونة أن برز على المسرح الرجل ذو العينين اللتين تقدحان شرراً. ما كان يعرفه وقتها إلا نفر قليل، ولكنه أصبح، فيما بعد طبعاً، مشهوراً لدى الدنيا بأسرها باسم الحرية الملتهبة.

حضر ميوغو ذات مرة اجتماعاً للحزب في سوق رونجي وذلك لأن إشاعة سرت تفيد بأن كينياتا، الذي عاد مؤخراً من بلاد الإنسان الأبيض، سوف يتحدث فيه. وعلى الرغم من تحديد بداية الاجتماع في وقت ما بعد الظهر لم يبق في السوق موطئ قدم لإنسان منذ الساعة العاشرة صباحاً. وقف الناس على سطوح الحوانيت. بدوا وكأنهم أسراب من الجراد تتكدس فوق الأشجار. جلس ميوغو في مكان بحيث يستطيع منه مشاهدة الخطباء عن كثب. وغيكونيو، الذي كان حينها نجاراً مشهوراً في ثاباي، جلس على بعد أقدام قليلة منه. وبجانب النجار كانت تجلس مومبي. كان يقال عنها بأنها أجمل امرأة في كل النجود الثمانية، حتى إن بعض الناس كانوا يطلقون عليها واتغو ماكري بسبب نظراتها.

بدأ الاجتماع بعد أن تأخر ساعة واحدة. وعلم الناس بأن كينياتا لن يحضر الاجتماع. ولكن على الرغم من ذلك فقد كان هنالك عدد كبير من الخطباء من مورانغا ونيروبي، كما حضر خطيب من قبيلة ليو من نيانزا ليشير بحضوره إلى أن الحزب قد حطم الحواجز بين القبائل. كيهيكا من ثاباي كان أحد الخطباء الذين هلّل لهم الجمهور بحماس كبير. لم يخطب بلغة توجيه الرسائل إلى الإنسان الأبيض كما كانت الخطابات في أيام هاري.

«ليست هذه السنة هي سنة 1920 عينها. إن ما ينقصنا اليوم هو العمل، هو توجيه ضربة تتردد أصداؤها»، قال كيهيكا بينما كانت النساء من ثاباي يمزقن ثيابهن وشعورهن ويزعقن مبتهجات، أشير وقتها إلى كيهيكا، أحد أبناء الأرض، بأنه واحد من أبطال الإنقاذ. ميوغو، الذي كان قد رأى كيهيكا على التل مرات عديدة، ما ساوره الشك قط بأن هذا الإنسان كان يتمتع بقوة خارقة ومعرفة واسعة. فتح كيهيكا سجل القبيلة، ومجيء الإنسان الأبيض وولادة الحزب. نظر ميوغو إلى غيكونيو وومبي، عيونهما كانت متسمّرة على كيهيكا، حياتهما بدت وكأنها معتمدة على كلماته الهادرة.

«لقد ذهبنا إلى كنيستهم. موبيا، مرتدياً مسوح الرهبان، فتح الإنجيل. قال: دعونا نركع كي نصلي. ركعنا. موبيا قال: لنغلق عيوننا. ففعلنا ذلك. ولكن عينيه. أتعلمون؟ بقيتا مفتوحتين كي يتمكن من قراءة الكلمات. وحينما فتحنا عيوننا كانت الأرض قد طارت منا وكان سيف اللهب لنا بالمرصاد. وأما مومبا. الذي ما كف عن قراءة الإنجيل، فقد كان يرجونا أن نخبئ كنوزنا في السماء كي لا يتمكن العثّ من إفسادها. في الوقت الذي كان هو يرسي كنوزه على الأرض، على أرضنا».

ضحك الناس. ولم يشاركهم ضحكهم كيهيكا. كان رجلاً صغيراً ذا صوت جهوري. لقد أشار مرة أو مرتين، وهو يخطب ببطء ويشدد على الكلمات الهامة، إلى الأرض والسماء وكأنه يُشهدهما على أن ما قاله هو الحقيقة عينها. تحدث عن التضحية الكبرى.

«سيأتي يوم يهجر فيه الأخ أخاه والأم وليدها، ونسمع فيه، أنتم وأنا، غليان نداء الأمة».

شعر ميوغو بغصة في حلقه. لم يكن يصفق لكلمات لا تقع منه موقع القلب. بأي حق يتحدث فيه مثل هذا الصبي. لربما هو أصغر سناً من ميوغو. بذلك الأسلوب؟ يا للأسف؟ لقد تحدث كيهيكا عن الدم بكل بساطة وكأنه يتحدث عن جر مياه النهر، تصور ميوغو، وبدأ ينتابه الغثيان لمرأى الدم ورائحته. إنني أكرهه، سمع نفسه تقول وخاف من ذلك،

ونظر إلى مومبي متسائلاً عما كان يدور في ذهنها. عيناها كانتا ما تزالان مسمّرتين على أخيها. كانت عينا كل إنسان شاخصتين صوب المنصة. شعر ميوغو بلسعة الغيرة حينما التفت وتطلع أيضاً إلى الخطيب. في تلك اللحظة تلاقت عيونهما، أو هكذا تخيل ميوغو، على الإثم. ولهنيهة بدا أن الجمهور والدنيا كلها قد غرقت في صمت مطبق، ولم يُترك على المسرح إلا كيهيكا وميوغو. كان شيء ما يجيش في صدر ميوغو ويفتش له عن مخرج، شيء كان، في الواقع، جيشاناً من الرعب والكراهية.

«ليس عليكم أنتم إلا أن تتفرجوا وتؤدوا صلواتكم»، قال كيهيكا داعياً بذلك جمهور مستمعيه إلى تذكر المثل السواحلي الشهير: «من مأمنه يؤتى الحذر»[1].

لقد عاش كيهيكا كلمات التضحية التي كان قد تفوه بها على مسامع الحشود، إذ بعد اعتقال جومو وبقية القياديين في أكتوبر عام 1952، اختفى فوراً كيهيكا في الغابة لكي تلتحق به فيما بعد حفنة من شباب ثاباي وروتجي.

إن أعظم انتصار مؤزر لكيهيكا كان الاحتلال الشهير لـ (ماهي). كانت (ماهي) موقعاً حصيناً للشرطة في وادي (ريفت) الذي بَقي بطنه يدعى لسنوات عديدة بالمرتفعات البيضاء. وكان يقوم في (ماهي) أيضاً سجن مؤقت للرجال والنساء الذين تم ترحيلهم سريعاً إلى معسكرات الاعتقال. وبما أن (ماهي) كانت تقوم في موقع متوسط فإنها كانت تزود بالبنادق والعتاد لمراكز أخرى أصغر منها للجنود والشرطة متوزعة في وادي (ريفت) كي تصون المستوطنين في كينيا وترفع من معنوياتهم. وإذا أنت وقفت في (ماهي) في أي وقت من أوقات النهار رأيت أسوار الخندق المحيط بها وكأنها حارس يسحر الألباب لواد من أجمل وديان البلاد. كانت الأسوار عبارة عن مدرجات ترتفع نحو المرتفعات، ومن ثم صف من الهضبات الأصغر - قمم بعضها منحوت على شكل دائري وقمم

1- «Kikulacho Kiko nguoni mwako» - المترجم

بعضها الآخر مليئة بالجروف وفوهات البراكين - تتراجع إلى الوراء على شكل حجب من الضباب والسر.

وفي الليل كانت الظلمة تحجب الوادي، لا بصيص فيه إلا ذلك النور المنبعث من (ماهي). كان كل شيء هادئاً. كان الحراس قد سكروا وغطوا في سبات عميق (على غرار ضباطهم البيض الذين اعتادوا حياة الدعة وذلك لأن اسم (ماهي) نفسه كان يعني المنيع ضد أي هجوم) مخلفين وراءهم حفنة من الحراس مراعاة للتقاليد. وفجأة مزقت سكون الليل أصوات الأبواق والمزامير والصنوج كلها في آن واحد. من داخل السجن استجابت لها صيحات التهليل للاستقلال. الضابط المسؤول، وقد أيقظته هذه الجلبة من تأثير الويسكي الذي كان قد تناوله من قبل، مدّ يده غريزياً إلى الهاتف، محاولاً القيام بعمل فذ يتمثل في رفع بنطاله واستعمال الهاتف في وقت واحد. وفجأة وجدت اليد التي رفعت سماعة الهاتف نفسها تسقط على الأرض التي تكوّم عليها بنطاله أيضاً. لقد كانت أسلاك الهاتف مقطوعة ولذلك لم تستطع (ماهي) طلب النجدة من المراكز النائية عنها. والشرطة، وقد أخذت على حين غرة، أبدت مقاومة ضعيفة حين اندفع كيهيكا ورجاله كالإعصار إلى الداخل. وتسلق الجدران بعض رجال الشرطة وقفزوا عنها للنجاة بأرواحهم. ومن ثم اندفع رجال كيهيكا إلى السجن وحرروا المساجين وقادوهم في الظلام خارج الموقع، الذي أضرمت النار فيه وهرب رجال كيهيكا إلى الغابة بعد أن حملوا معهم ذخائر جديدة من الرجال والبنادق والعتاد ليتابعوا الحرب على نطاق لم يكن يحلم به أحد في أيام واياكي وهاري الشاب.

أصبح الناس يعرفون كيهيكا بأنه بعبع الإنسان الأبيض، وقالوا عنه بأنه كان يستطيع أن يزلزل الجبال وأن يخطف الرعد من السماء.

وُضع مبلغ من المال ثمناً لرأسه.

إن أي إنسان يأتي بكيهيكا، حياً أو ميتاً يتلقى مبلغاً ضخماً من المال.

بعد سنة ألقي القبض على كيهيكا وقد كان وحيداً عند طرف غابة كينني.

افتراء. من يصدق هذه الأنباء؟ إن ذلك الإنسان الذي كان يزلزل الأشجار والجبال. ذلك الإنسان الذي كان بمقدوره أن يزحف على بطنه لعشرة أميال فوق الرمال والأشواك، كان من المؤكد أنه بعيد المنال بالنسبة للإنسان الأبيض.

خضع كيهيكا للتعذيب. يقول بعض الناس أنهم أدخلوا عنق زجاجة في أسته حين كان الناس البيض من المكتب الخاص يحاولون انتزاع أسرار الغابة منه. ويقول بعضهم الآخر بأن مبلغاً كبيراً من المال قد دفع له بالإضافة إلى رحلة مجانية إلى إنكلترا لمصافحة المرأة الجديدة التي تربعت على العرش – ولكنه ما كان ليتكلم.

شنق كيهيكا على مرأى من الملأ، في أحد أيام الآحاد، في سوق رونجي في مكان لا يبعد كثيراً عن المكان الذي وقف فيه ذات مرة يدعو لبذل الدماء وإرواء شجرة الحرية. قوة مشتركة من الحرس القومي والشرطة جلدت الناس وساقتهم من ثاباي ومن النجود الأخرى لكي يشاهدوا جسد الثائر متأرجحاً على شجرة من الأشجار – ولكي يتعظوا أيضاً.

الحزب على أية حال، بقي حياً وانتعش، كما يقول الناس، على جراح أولئك الذين خلّفهم وراءه كيهيكا.

* * *

الفصل الثالث

«لن تمكث عندك طويلاً» قال غيكونيو بعد برهة صمت. «جئناك في الواقع كي نقف على رأيك بالنسبة لاحتفالات الاستقلال التي ستجري يوم الخميس».

إذا تطلعت إلى غيكونيو لا يمكنك أن تصدق بأنه هو نفسه ذلك الرجل الذي أثار زواجه من مومبي، منذ ثلاثة عشر عاماً تقريباً، حفيظة خطابها من الشباب الآخرين؛ ماذا وجدت فيه مومبي؟ كيف كان بوسع امرأة روعة في الجمال أن تلقي بنفسها في حمأة الفقر وهي مفتوحة العينين؟ والآن بعد عودة غيكونيو من المعتقل إلى البيت بأربع سنوات أصبح واحداً من أغنى الناس في ثاباي. لقد ابتاع مؤخراً قطعة أرض هي عبارة عن مزرعة تبلغ مساحتها خمسة آكرات (الآكر = 4000 م^2)، وكان له حانوت في رونجي يحمل اسم «مخازن غيكونيو العامة»، وبالأمس فقط اشترى شاحنة مستعملة لاستخدامها في العمل التجاري. وفوق كل هذا تم انتخابه أمين الفرع المحلي للحزب مكافأة له – كما قال الناس – على صلابة رجولته التي امتنع تحطيمها على أي معتقل. لقد كان غيكونيو محط احترام وإعجاب كرمز من الرموز التي يصبو إليها أي فرد: إنساناً حراً إلى حد رهيب يحوّل أي جهد في أي مضمار إلى نجاح.

«ماذا – ماذا تريد؟» سأل ميوغو وقد شخص ببصره إلى واروي.

كانت حياة واروي، على نحو ما، هي قصة حياة الحزب: لقد شارك في الاجتماعات التي كان يعقدها هاري الشاب، وساهم في تعمير مدارس

الشعب وأصغى إلى خطابات جومو في العشرينيات. لقد كان واروي أحد الناس القلائل الذين رأوا في ذلك المستخدم الجديد في المجلس البلدي لنيروبي، رجلاً تهيئه الأقدار للسلطة.

«سيقوم بأمور عظيمة» كان يقول عن جومو، «يمكنكم رؤية ذلك في عينيه».

نظر واروي إلى الموقد. كان ينتصب على أثافيه سراج يظهر السخام على عنق زجاجته وجوانبها.

«نحن أهالي قرية ثاباي يجب أن نلعب دورنا أيضاً»، بدأ حديثه بصوت على الرغم من ضعفه كان يلف الغرفة بأكملها. «نعم يجب أن نلعب دورنا بالطريقة التي نعرفها. إذ يجب ألا يقال إن ثاباي قد وصمت بالعار أسماء أبنائها اللذين فقدتهم في الحرب. لا. يجب أن تبعثهم – حتى من بين الأموات – كي يشاركونا دورنا. (يا شعبنا) هل هنالك نشيد للحرية أعذب منه؟ وفي الحقيقة فقد أرّقنا انتظار هذه المناسبة ليالي عديدة. وأولئك الناس الذين قضوا قبلنا، وأولئك الذين تُركوا كي يشهدوا شروق شمس هذا اليوم، وحتى أولئك الذين سيولدون غداً، يجب عليهم جميعاً أن يسهموا في الاحتفال. وفي اليوم الذي نضع فيه أيدينا على واياثي نريد أن نشرب من طاسة اليقطين نفسها – نعم – من طاسة اليقطين نفسها».

خيّم الصمت بعد هذه الكلمات، وبدا أن كل واحد من الحضور قد انكمش على نفسه وكأنه يقلّب هذه الكلمات في ذهنه. تنحنحت المرأة، إشارة إلى أنها ستستلم دفة الحديث من واروي. تطلع إليها ميوغو.

لم تكن وامبوي طاعنة في السن على الرغم من أنها كانت قد فقدت معظم أسنانها. وأثناء حالة الطوارئ كانت تنقل الأسرار من القرى إلى الغابة ومن الغابة إلى الدساكر والقرى. كانت تعرف الحركات السرّية في ناكورو وانجورو وألبيرغون وفي أمكنة أخرى داخل وادي ريفت وخارجه. تروى رواية عنها تفيد بأنها كانت ذات مرة تحمل مسدساً معلقاً بفخذيها قرب الحقو، وكانت ترتدي ثياباً طويلة فضفاضة وسميكة،

وتمثل صورة البلى والخرف والوهن. كانت تريد نقل المسدس إلى نايفاشا. وشاءت الأقدار أن تُحتجز على حين غرة في إحدى عمليات التفتيش التي كان يمارسها الجنود والشرطة من حين إلى آخر، تلك العمليات التي كانت تبتلى بها البلاد في تلك الآونة. لقد تم حشر الناس في الساحة خلف الحوانيت. وسرعان ما جاء دورها في التفتيش. بدأ ضرسها يؤلمها: فلوت شفتيها وبدأت تئن وطفق اللعاب يسيل من شدقيها وينصب على ذقنها. الشرطي الذي بدأ بتفتيشها كان من قبيلة الغيكويو قال لها باللغة السواحلية: آسف يا ماما، ثم قام بحشرجات حنونة أخرى وتابع تفتيشه. بدأ بصدرها. تحرى تحت إبطيها بشكل دقيق، ماداً يديه بشكل تدريجي إلى الأسفل نحو المنطقة الحرام. وفجأة زعقت وامبوي فتوقف الرجل مذهولاً.

«يا لصبيان هذه الأيام» بادرته بالقول. «هل تلاشى لديكم الخجل؟ ولمجرد أن يقول لكم الإنسان الأبيض أن تفعلوا ذلك، إنك على وشك أن تجس فرج أمك... أمك التي ولدتك، حسناً، سأرفع ثيابي كي تمتع ناظريك بفرج أمك، لقد شاخ كثيراً، ولكن لنر ما الفائدة التي ستجنيها من ذلك طيلة ما تبقى من عمرك؟».

وتظاهرت عملياً بأنها على وشك رفع ثيابها وعرض عريها، فأشاح الرجل ببصره بعيداً عنها على نحو عفوي.

«ابتعدي من هنا» هرّ عليها. «... من التالي؟». لم تتحدث وامبوي بتاتاً عن هذه الرواية ولكنها ما دحضتها قط، وكانت حين يسألها الناس عن صحة هذه الرواية لا تضيف شيئاً على ابتسامة مبهمة.

«يجب أن نفعل كما كان يفعل شيوخنا الذين كانوا يصبّون دائماً قليلاً من البيرة على الأرض قبل أن يشربوا هم أنفسهم»، قالت وامبوي، «فلماذا كانوا يفعلون ذلك يا ترى؟ كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا دائماً يتذكرون أرواح أولئك الناس المدفونين تحت الأرض. نحن أيضاً ليس بوسعنا أن ننسى أبناءنا. ولقد كان كيهيكا رجلاً عظيماً، وأي رجل كان!».

كان ميوغو يقتعد كرسيه بوقار. وكان واروي ينظر إلى السراج الذي كان يلقي نوراً خافتاً على الكوخ ويلقّمه بغموض مخيف.

كانت وامبوي تستند بمرفقيها إلى ركبتيها وتحتضن ذقنها براحتي كفيها المكورتين، بينما كان غيكونيو يحملق في الفراغ مذهولاً.

«ماذا تريدون؟» سألهم ميوغو بصوت يخالجه شيء من الهلع.

وفجأة سمعوا قرعاً على الباب، فانشدت كل العيون باتجاهه وشحن الفضول جو التوتر السائد، وذهب ميوغو إلى الباب.

«الجنرال!» صاح واروي حالما دخل ضيفان جديدان. عاد ميوغو في إثر الرجلين. كان أولهما طويلاً حليق الذقن مقصوص الشعر بينما كان شعر الرجل الأقصر معقوصاً. لقد كان من بين تلك الحفنة من المحاربين دفاعاً عن الحرية، من أولئك الناس الذين هُجروا للغاية مؤخراً بمناسبة إصدار العفو عنهم عشية الاستقلال.

«تفضلا بالجلوس – على السرير» دعاهما ميوغو وقد أدخلت الروع في قلبه نبرة صوته. لقد أصبحت هرماً... واهناً جداً... هذا اليوم... هذه الليلة... كل شيء يبدو غريباً... إن نظرات الناس إليّ وغمزاتهم تخيفني... لست خائفاً في الواقع لأن... لأن... حياة فرد من الأفراد، كحياتي، لا تنطوي على أية أهمية... و... و... يا إلهي... لم يعد يثيرني أي اهتمام... لا... لا... إن قدوم الرجلين قد حطم التوتر المتصاعد، وتحدث الجميع وأصبح الكوخ ينبض بالحياة من جراء التمتمات المثيرة. كانت وامبوي تحاول توضيح أمر ما عن استعدادات الاحتفال بالاستقلال للرجل المعقوص الشعر. في الغابة كان يدعى بالملازم الأول كويتاندو. الرجل الطويل كان الجنرال، الجنرال ر.

«يا للأضحية! يا للأضحية!» صاح كويتاندو. «آه ما أطيب اللحم. خروف بأكمله. في الغابة لم نكن نأكل إلا براعم الخيزران والخنازير البرية».

«ماذا تعرف عن الأضحية؟» قاطعته وامبوي وهي تشاركه الضحك.

آه لقد ضحّينا بالفعل - ضحينا بالخنازير - وأكلنا لحمها فيما بعد. كنا نصلي مرتين يومياً ومرة إضافية أخرى قبل القيام بأية غارة على مزارع الأوروبيين لانتزاع الأسلحة. كنا نقف قبالة جبل كينيا:

موينانياغا[1] نبتهل إليك لعلّك تصون مخابئنا.

موينانياغا نبتهل إليك لعلّك تلقي سحابة فوقنا.

موينانياغا نبتهل إليك لعلّك تحمينا من خلفنا وقدامنا من أعدائنا.

موينانياغا نبتهل إليك لعلّك تبث الشجاعة في قلوبنا.

كما كنا ننشد أيضاً:

مطلقاً لن نستريح

دون أرض

دون حرية حقيقية

يا كينيا يا موطن الرجال السود

لقد كفّ الجميع عن الحديث وأصغوا إلى نشيد كويناندو. إن اللحن الحزين الذي كان يكمن خلف كلمات كويناندو كان يقف على الطرف النقيض مع مرحه. ساد صمت مفاجئ مفعم بالقلق تقريباً. لا شيء من هذا صحيح... لسوف أستيقظ سريعاً من هذا الحلم... ولسوف يكون كوخي خالياً وأجد نفسي وحيداً كما كنت دائماً... سعل غيكونيو سعلة جافة. انفجر واروي.

«أتشعر بالبرد؟» أنا دائماً أقول هذا. إن شباب هذه الأيام قد فقدوا قواهم. إنهم لا يستطيعون مقاومة مرض طفيف. هل تعلمون أننا في أيامنا كنا نقضي أياماً بلياليها في الغابة ونحن بانتظار الماساي[2]؟ كانت الريح

1- اسم إله محلي - المترجم.

2- قبائل إفريقية تعيش على الصيد والرعي وتقطن إلى الشرق من بحيرة فكتوريا في كينيا وتنزانيا.

تعصف برقابنا، وأما ثيابنا فقد كانت تتبلل بالندى، ومع ذلك فما كنت لتسمع سعلة في الصباح، لا، حتى ولا سعلة طفيفة.

تطلع المجاهدان إلى واروي. لقد مضى على وجودهما في الغابة سبع سنوات. ولكن لم يدحض زعم واروي أي إنسان من الحضور.

«ما جدوى الصلاة؟» سأل فجأة الجنرال ر وكأنما يتابع المحادثة السابقة. «إنها لم تسعف كيهيكا. كان كيهيكا يؤمن بالصلاة، بل وكان يتلو الإنجيل يومياً ويحمله معه في حلّه وترحاله. إن الشيء الذي لن أفهمه بتاتاً هو التالي: لماذا تصادف أن الله لم يهمس له بكلمة، مجرد كلمة واحدة – كي يحذره من الوقوع في الفخ؟».

«وأي فخ؟» سرعان ما سأل غيكونيو. «هل تريد التلميح لنا بأن كيهيكا كان ضحية خيانة ما؟».

«قالت الإذاعة بأنه اعتقل إثر معركة قتل فيها العديد من أفراد عصبته» قالت وامبوي.

استغل الجنرال ر الفرصة السانحة له كي يعمق هذا الاهتمام الذي تمت إثارته، فحملق في الأرض مستغرقاً بالتفكير.

في ذلك اليوم كان في طريقه لمقابلة إنسان ما. لقد كان يخرج غالباً وحيداً إما لتصيّد المعلومات وإما للإجهاز على شخصية خطرة مثل د. و. روبسون. مع ذلك فقد كان دائماً يطلعني على خططه، ولكنه في ذلك اليوم لم يطلعني على شيء. لقد كان يبدو متهيجاً بل يمكنكم القول بأنه كان مبتهجاً. ولكنه كان يستشيط غضباً حينما كان يقاطعه أي إنسان. وأقولها للمرة الثانية بأنه لم ينس أن يصطحب إنجيله معه قط. بيد أنه في ذلك اليوم خلّفه وراءه. لربما كان يظن بأن غيابه لن يطول.

دس الجنرال ر يده في جيبه وأخرج منه إنجيلاً صغيراً ناوله إلى غيكونيو. واروي وامبري مدّا عنقيهما للأمام وقد استثارهما هذا الأمر كطفلين صغيرين. قلّب غيكونيو صفحات الإنجيل الصغير على عجل

متوقفاً بين الحين والآخر عند آيات ترتسم تحتها خطوط سوداء وحمراء. كانت أصابعه ترتعش. توقف عند المزمور 72 حيث ارتسم خط أحمر تحت آيتين:

«ما معنى هذه الخطوط الحمراء؟» قالت وامبري بفضول خاشع.

«اتل علينا بعض الأسطر» قال واروي.

فقرأ غيكونيو:

(إنه سوف ينصف فقراء الناس، وسيسعف أطفال المحتاجين، ولسوف يمزق الظالم إرباً.

إنه سينقذ المحتاجين حين يجيء، كل الفقراء وأي إنسان لا معين له). ومرة ثانية خيم صمت مطبق إثر هذه التلاوة. ثم تابع الجنرال ر قائلاً:

«بعد ذلك اليوم الذي أطلق فيه كيهيكا النار على د. و. روبسون لم يعد عملياً كما كان من قبل. وهذا هو السبب الذي جاء بنا إلى هنا هذه الليلة». طيلة هذه المدة كان الجنرال ر يحدّق في نقطة واحدة. وكان يتكلم بهدوء، يختار الكلمات اختياراً وكأنما ثمة تساؤلات تجيش في صميم فؤاده. وفجأة شخص ببصره إلى ميوغو والتفتت جميع عيون الحضور إلى ميوغو.

«أعتقد بأنك أنت هو الإنسان الذي آوى كيهيكا تلك الليلة. وذلك هو السبب الذي أدى إلى اعتقالك فيما بعد وإرسالك إلى المعتقل، أليس كذلك؟ إن ما نريد معرفته منك هو ما يلي: هل ذكر لك كيهيكا بأنه كان سيقابل إنساناً ما من القرية – في غضون أسبوع؟»

شعر ميوغو في حلقه بالاختناق، ولو أنه تكلم لبكى. هزّ رأسه بالنفي وحدق مباشرة إلى الأمام.

«ألم يأت على ذكر كاراتجا؟»

وهز ميوغو رأسه بالنفي مرة ثانية.

«هذا كل ما أردنا معرفته. لقد حسبنا أن بمقدورك مساعدتنا». وغاص الجنرال ر في صمته السابق.

«الآن، الآن، من كان يخطر في ذهنه»، بدأ واروي ثم ركن إلى الصمت. كان يبدو على وامبوي أنها أكثر افتتاناً بالإنجيل منها بالأنباء التي كان يرويها الجنرال ر.

«أكان يحمل إنجيلاً؟ وكأن أباه كان قسيساً...» قالت نادبة. «كان يقضي الواجب أن يكون ولدنا هذا قسيساً...».

«ولقد كان قسيساً... وقسيساً جليلاً لحريتنا هذه»، قال واروي. تبسّم غيكونيو مبدياً عدم ارتياحه. وشاركته تبسمه وامبوي وكذلك الملازم الأول كويناندو. ولكن ميوغو لم يتبسم وكذلك الجنرال ر. انتهك جو التوتر مرة ثانية. سعل غيكونيو وتنحنح.

«أيها الجنرال، كدت تنسينا الأمر الذي جئنا لأجله إلى هنا»، قال بلهجة رجل أعمال ليس لديه متسع من الوقت للشكليات. «ولكنني سعيد بقدومك لأن هذا الأمر يهمك أيضاً. إن الأمر هو التالي: يعتقد الحزب وقيادات القرية بأن فكرة تكريم الأموات فكرة طيبة. في يوم الاستقلال سوف نستمطر الرحمة على أولئك الناس من قريتنا ومن النجود المجاورة الذين قضوا نحبهم في الصراع من أجل الحرية. ليس بوسعنا أن ندع اسم كيهيكا يطويه النسيان. سيبقى كيهيكا حياً في ذاكرتنا ولسوف ينقل التاريخ اسمه إلى أبنائنا في السنوات القادمة». توقف عن الكلام وتطلع مباشرة إلى ميوغو، وأما كلماته التي وجهها إلى ميوغو فقد كانت تزخر بالإعجاب بكل بساطة. «لا أريد أن أخوض في التفاصيل - ولكننا نعرف جميعاً الدور الذي لعبته في الحركة. وسيبقى اسمك مقروناً باسم كيهيكا أبد الدهر. وكما قال الجنرال هنا فإنك أنت من آوى كيهيكا دونما وجل من الخطر الذي كان يحيق بحياتك. لقد عملت لمصلحة ثاباي في المعتقل وخارجه الشيء نفسه الذي فعله كيهيكا في الغابة. ولذلك فقد فكرنا بأنك في هذا اليوم المهم ستقود الأضحية والمراسم لتكريم أولئك الناس الذين ضحوا بحياتهم لكي نبقى على قيد الحياة. سوف يرشدك الشيوخ إلى تفاصيل الطقوس. وأما بالنسبة لك فإن الشيء الأساسي سيكون الخطاب. إننا بصدد تدبير اجتماع

حاشد في سوق رونجي قريباً من المكان الذي تدلّت فيه جثة كيهيكا من إحدى الأشجار. إنك أنت من سيلقي الخطاب الرئيس في ذلك اليوم».

حملق ميوغو في عمود ينتصب قبالته، حاول أن يدرك مغزى ما قاله غيكونيو. لقد كان دائماً يجد أن من العسير عليه اتخاذ القرارات. ولما كان وكأن الغريزة قد ساقته للإحجام عن دفع الأمور وتحريكها باتجاه لا تحمد عقباه ولا يستطيع فيه تقدير النتائج قبل البدء بذلك، فقد ترك نفسه تنجرف مع الأمور أو تنجرّ إليها بواسطة عفريت هائل، وركب موجة هذا الظرف الطارئ واسترخى على زبدها، مذعوراً من القدر، ولكن مفتوناً به. وبدأت عيناه الآن تبرقان ببعض ذلك الافتتان الشيطاني، بيد أن جسمه كان ساكناً سكون الموت.

«ما هو رأيك؟» سألته وامبوي وقد عيل صبرها بنظرته الثاقبة. ولكن واروي كان مهووساً بتأويل نظرات الناس ولطالما قال هذا عن ميوغو: إن له مستقبلاً، مستقبلاً عظيماً، من يعرف ذلك سواي؟ يمكنكم أن تروا ذلك في عينيه، قال الآن:

ليس عليك أن تخطب النهار بطوله. لقد شاهدت عدداً من الخطباء يفسدون خطابات رائعة لأنهم كانوا يخطبون حتى تبح أصواتهم وتجف حلوقهم. كلمة تلامس شغاف القلب – وكفى. كتلك الخطبة التي ألقيتها في ذلك اليوم.

«لا أفقه ما تقولون؟» قال ميوغو أخيراً.

«نحن أهالي ثاباي نحب أن نكرّم أبطالنا. فما الضير في ذلك؟» سأله واروي.

«إنني أعرف حقيقة شعورك»، قال غيكونيو. «إنك تفضل أن تترك وشأنك. ولكن تذكر هذا على أية حال: ليس من السهل على أي إنسان ضمن تجمع معين أن يترك وحيداً، ولا سيّما إنسان بمقامك. لا، ليس عليك أن تتخذ قرارك الآن، ولكننا نريد معرفة الجواب سريعاً، إن الثاني عشر من كانون الأول لا يفصله عن اليوم إلا أربع ليال».

بعد أن قال غيكونيو هذا نهض كي يغادر الكوخ. الآخرون وقفوا أيضاً. تردد غيكونيو قليلاً وكأن فكرةً لا خلاص له منها تدور في خلده.

«ثمة شيء آخر أحب إضافته. إنك تعلم أن الحكومة. التي يسيطر عليها الحزب الآن، سوف تترك الشعب ينتخب الزعماء، والفرع هنا يريدك أن تمثل هذه المنطقة عندما يحين الوقت».

خرجوا جميعاً.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شدقي ميوغو. كان من الممكن أن توحي بالبهجة أو الهزء أو المرارة. ترك الزوار الباب مفتوحاً فأغلق الباب وجلس على السرير. وتدريجياً بدأ مغزى ما قاله غيكونيو ينجلي أمام معميات إدراكه. ماذا يريدون؟ ماذا يريدون حقاً؟ سأل نفسه وهو يحتضن رأسه بكلتا يديه كي يشد من أزر نفسه.

خارج كوخ ميوغو انفصل الثائران عن غيكونيو. وامبوي وواروي كانا يتقاسمان كوخاً في الطرف الآخر من القرية. هذا الكوخ تم شراؤه لهما من الفرع المحلي للحزب.

- هل تعتقد بأنه سيكون عوناً لنا؟ سأل كويناندو فجأة.

- من؟

- ذلك الرجل.

- آه، ميوغو. لا أعلم. قلما جاء كيهيكا على ذكره. ولا أعلم علم اليقين إن كان على معرفة وثيقة به.

سارا بقية الطريق دون إضافة أية كلمات أخرى.

بحث كويناندو عن أعواد الثقاب لإضاءة السراج. كان رجلاً دقيق العظم رقيق الجلد وذا عروق ضخمة ناتئة على وجهه ويديه. الجنرال ر جلس على السرير مستغرقاً بالتفكير. وقف كويناندو وحدق في اللهب الشاحب.

«ومع ذلك يجب أن نكتشف الخائن» قال الجنرال وكأنما يكمل محادثته السابقة مع صاحبه. كان صوته منخفضاً وينمّ عن عزم أكيد.

لم يجب كويناندو مباشرة. لقد تذكر ذلك اليوم الذي خرج فيه كيهيكا. خرج وما رجع بتاتاً. كان كيهيكا يترأس مجموعة تضم أكثر من ثلاثمائة رجل موزعين إلى جماعات يبلغ عدد أفراد الواحدة منها خمسين رجلاً أو خمسة وعشرين. وكانت تعيش هذه الجماعات منفصلة إحداها عن الأخرى في كهوف مختلفة، حول غابة كينّي، وما كان يجتمع شملها إلا إذا كانت هنالك مخاطرة كبرى كمخاطرة احتلال ماهي. كان كويناندو يصاب بالذهول من جراء تلك اللامبالاة المطلقة التي كان يبديها كيهيكا تجاه أي خطر شخصي يحيق به. وأما تلك الطريقة التي أجهز بها على د. و. روبسون فقد تحولت إلى ضرب من الأساطير في المخيمات التي كانت تنتشر حول لونغونوت وانغونغ بل ونياندااروا. كان كويناندو يشعر نحو كيهيكا بإعجاب يصل إلى حد العبادة. ولذلك كان في مثيلات تلك المناسبات يقسم بقوله: «لن أتخلى عنه. أقسم بالله العلي العظيم بأنني لن أتخلى عن كيهيكا. لقد كنت إنساناً بلا عقيدة، وهو الذي أمدّني بها». نعم لقد أمدّه كيهيكا، وقد كان مجرد طباخ، بروح جديدة حين جعله يدرك قوة السود. لقد شعر كويناندو بهذا في ذلك اليوم الذي احتلوا فيه ماهي. وحينما كانوا ينتظرون عودة كيهيكا خالجه شعور عارم حيال الخطر الوشيك لتلك القوة السوداء. فأرسلوا فيما بعد الرواد الذين عادوا وتحدثوا عن وقوع عملية ضخمة. وانتشر النبأ. فأمر الجنرال ر رجاله بالاستعداد لانسحاب عاجل إلى مخبئهم الكبير الآخر، إلى لونغونوت. لقد علموا بنبأ اعتقال كيهيكا فبكاه أنجري. وحتى هو. وقد كان رجلاً بكل ما في الكلمة من معنى، لم يجد سبيلاً لإخفاء دموعه.

– هل تعتقد بأنه كان في طريقه لمقابلة امرأة؟ سأل كويناندو.

– لا. لا أتصور ذلك. ولا بد من أن يكون كارانجا فعلاً هو الرجل الذي نبحث عنه إذا كان ما تقوله لي عنه صحيحاً.

«إن أي إنسان في غيثيما يروي لي الرواية نفسها. إذا ربت إنسان على كتفه من الخلف فإنه يرتجف ارتجافاً يصعب عليه التحكم به. إنه لا يسير

في الظلمة وحيداً أبداً، ولا يفتح باب بيته لأي طارق بعد الساعة السابعة مساءً، إن كل هذه التصرفات ليست إلا أمارات إنسان مذنب ولكن...».

«يا إلهي! إن كان لهذه القملة أدنى صلة بصلب كيهيكا!» قال الجنرال ر ووثب واقفاً على قدميه، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. «نحن كلانا أقسمنا معاً. نحن كلانا أقسمنا معاً».

كان كويناندو يجلس على السرير مذهولاً بتلك العاطفة والحماسة في صوت الجنرال. لقد كان كويناندو يرهب جانبه أيضاً بل وكان يشعر بالصّغار في حضرته. لقد خاض الاثنان الحرب العالمية الثانية؛ فالجنرال حارب في بورما وأما هو، كويناندو، فما توصل مطلقاً لمرتبة تعلو مرتبة الطباخ. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها اشتغل الجنرال خياطاً، وأما كويناندو فقد تنقل من عمل لآخر، وكان آخر عمل له مع الدكتورة لايند، امرأة بيضاء عانس وقبيحة، شعر نحوها كويناندو بالكراهية منذ النظرة الأولى. لقد عرف هو والجنرال إنساناً رابط الجأش. وحين اعتقل كيهيكا بقي الجنرال ر رزيناً، لم تبد عليه الدهشة أو أية إشارة من إشارات الوجوم. وعلى مر السنين نسي كويناندو، الذي أجهش في البكاء في تلك المناسبة، مصرع كيهيكا ولم يعد يشعر بحاجة للثأر. والآن كان الجنرال هو من يغلي حماساً. بينما كان كويناندو يجول ببصره حول الكوخ الأجرد من الأثاث متجنباً تلك القامة التي كانت تروح وتجيء فيه. قصعة وصحنان وبعض الزجاجات الفارغة وتنكة ماء كانت على الأرض تتبعثر بشكل يكاد يفطر القلب حزناً.

تنحنح:

«ربما لا جدوى من الأمر. ربما علينا أن ننسى الموضوع برمته».

الجنرال ر توقف من رواحه ومجيئه فجأة. تطلع إلى كويناندو يقيمه من الأعلى إلى الأسفل. تململ كويناندو في مقعده وقد شعر بالخصومة تتجلى في نظرة الآخر إليه. «أننسى!» سأل الجنرال بصوت رزين مضلل. «لا يا صاح. يجب أن نكتشف الخائن وإلا فإننا نكون. أنت وأنا، قد خُتِنّا

دونما هدف، من أجل لا شيء. غداً يجب أن تعود إلى غيثيما وتقابل موارا بشأن الخطة الجديدة».

المبعوثون الآخرون الثلاثة ابتعدوا مسافة معينة عن كوخ ميوغو قبل أن ينبس أحد منهم ببنت شفة.

- إنه رجل غريب الأطوار. علّقت وامبوي.

- من؟ سأل واروي.

- ميوغو.

«ذلك نتيجة المعاناة» قال غيكونيو. «أتدري ما معنى الحياة في المعتقل؟ لربما كانت تنطوي على سهولة أكثر بالنسبة لأولئك الذين لم يُصنفوا من ذوي الرؤوس العنيدة. ولكن ميوغو صُنف منهم ولذلك تعرض للضرب، ومع ذلك فإنه لم يخن العهد».

«ليس الاعتقال كالسجن» تابع غيكونيو مندهشاً من جيشان عواطفه المفاجئ. «ففي السجن أنت تعرف جريمتك، وتعرف مدة سجنك. ولتكن سنوات عديدة جداً، سنة واحدة، عشر سنوات، ثلاثين – وبعد ذلك تغادر السجن».

وعلى نحو مفاجئ ضبط غيكونيو نفسه. لم يستطع أن يرى وامبوي أو واروي بوضوح، وبدا الأمر إليه وكأنما كان يكلّم الفراغ.

«عمتما مساءً». ودّعهما خارج البيت الذي ابتناه حديثاً.

ابتعد «واروي» و«وامبوي» دون أن يردا على تحيته. أناخ الصمت المطبق على غيكونيو. لم يكن يحب ولوج البناية. ظهر النور في غرفة الجلوس من خلال الستائر والنوافذ الزجاجية. لا بد إذاً من أن تكون مومبي في انتظاره. لماذا لا تستطيع الذهاب للنوم. ابتعد عن النور دون أن يعلم إلى أين يمضي. اغتاظ من انفجاره مؤخراً بحضور «واروي» و«وامبوي». لماذا لم يكن بمقدوره أن يتحكم بعواطفه في كوخ ميوغو؟ فالرجل ليس هو من يشكو مطلقاً. وأما الانخراط في العمل الدؤوب فقد

كان بالنسبة لغيكونيو عقاراً من العقاقير ضد الذكريات التي تنغّص عليه حياته.

لقد ابتنى لنفسه بيتاً من أفخم بيوت القرية وأكثرها عصرية، وكانت له ثروة - وإن كانت صغيرة، كما كانت له مكانة سياسية في القرية: كل هذه الأمور تبتعد به كثيراً عن الأيام التي عاشها كنجار فقير. ومع ذلك فهذه الأمور كلها قد فقدت نكهتها. لقد كان يتناول الطعام ليس لأنه كان يستمتع بالطعام، بل لأن الإنسان يجب أن يحيا.

أصبحت القرية الآن بعيدة خلفه. ادلهمّ ظلام الليل. وخطر له فجأة - وكأنما ذلك شيء جديد عليه - أنه وحيد. فأصاخ السمع. وبدا له أنه يسمع حفيف أقدام على الرصيف يصل إلى مسامعه من بعيد. اقتربت منه الخطوات. أسرع في مشيته وهرع مبتعداً عن الخطوات.

ولكنه كلما أسرع في سيره كانت الخطوات تصبح أعلى وقعاً. لهث. كان جسمه كله دافئاً على الرغم من برودة الهواء. حينئذٍ طفق يعدو. على نحو جنوني. تسارع خفقان قلبه. الخطوات على الرصيف، وقد بدت قريبة جداً منه، تناغمت مع خفقان قلبه. كان يشعر بالحاجة للتحدث مع أي إنسان. كان يشعر بالحاجة لسماع أي صوت بشري آخر. ميوغو. ولكن ماذا تعني الأصوات البشرية المجردة؟ أفلم يحيا معها مدة ست سنوات؟ وفي معتقلات عديدة؟ لربما كان يريد صوت إنسان يستطيع تفهمه. ميوغو. توقف عن الركض فجأة. ها هي الخطوات على الرصيف تتباعد عنه. ولكنها ستعود مرة ثانية، كان يعلم بأنها ستعود كي تنغّص عليه أمره. يجب أن أتحدث إلى ميوغو. إن الكلمات التي قالها ميوغو في أحد الاجتماعات منذ سنتين قد لامست شغاف قلب غيكونيو. يا إلهي، سوف يعرف ميوغو.

ولكنه في الوقت الذي وصل فيه إلى كوخ ميوغو فترت حماسة تصميمه. وقف عند الباب متردداً أيقرع الباب أم لا: ماذا جاء يقول فعلاً لميوغو؟ شعر بالسخف لدى وقوفه هناك وحيداً. لربما من الأفضل أن

يعود في اليوم التالي. لربما يستطيع في وقت آخر أن يكتشف أحسن طريقة يفتح فيها مغاليق قلبه أمام إنسان آخر.

في البيت وجد أن مومبي لم تأو إلى فراشها بعد. جلبت له الطعام. وهذا ذكره بأنه قلما تناول طعاماً اليوم بطوله. جلست قبالته وأخذت تتطلع إليه. تذوَّقَ قليلاً من الطعام ودفع بالباقي بعيداً عنه. لقد فقد شهيته.

- «حَضِّري لي فنجاناً من الشاي» همس لها من بين أسنانه.

- «يجب أن تأكل» ناشدته مومبي. والتمع أنفها الدقيق تحت نور المصباح. التضرّع في صوتها وفي عينيها كان يناقض وجهها الوقور والحمل الفخور الذي تحمله في جسدها المكتنز. ربما كانت الحاجة تقضي بأفضلية زيارته لميوغو بغية إجراء حديث بين الرجال.

- «لا أريد أن آكل شيئاً» نخر غيكونيو.

- «إن طعامي وحده هو الشيء الذي لا تريده».

بقي غيكونو هادئاً. لكمْ اشتاق في المعتقل للعودة إلى مومبي. هل هذه المرأة هي نفسها تلك المرأة السابقة؟ نظر إليها ملياً. كانت قد أشاحت بوجهها باتجاه الباب. لربما كانت تذرف الدموع.

«لا أشعر برغبة في الطعام، هذا كل ما في الأمر» قال لها وقد لان بعض الشيء.

«لا بأس بذلك» همست وذهبت إلى غرفة أخرى في البيت وجلبت الفناجين والإبريق وأوراق الشاي والحليب والسكر. أضافت عدة قطع من الفحم إلى الكانون وحملته إلى خارج الكوخ كي تذكي ناره في مهب الريح، وبقيت خارج الكوخ في الظلمة.

أخرج غيكونيو دفتر حسابات عتيق من إحدى جيوب سترته الداخلية. وبحث عن قلم، عثر عليه، ولما رأى أنه مكسور براه بسكين. وأخذ يدوّن أرقاماً. جمع وطرح وضرب وشطب. استأثرت الأرقام باهتمام غيكونيو حتى إنه نسي مؤقتاً كل شيء خارج إطار عائدات العمل وآفاقه في اليوم التالي.

أعادت مومبي النار إلى الداخل. وضعت الإبريق المليء بالماء على النار وجلست ثانية تتطلع إلى زوجها. كانت تبدو متحفزة كطير على أهبة الطيران لدى أول إشارة أو كلمة من سيده. ولكن مومبي كانت قد تعلمت كيف تشذّب رغباتها، أن تتقبل ما تقدمه لها الحياة والقدر.

«هل قابلت ميوغو؟» غامرت بسؤاله.

«نعم».

«هل وافق على قيادتنا؟».

«سيفكر بالأمر». لم يرفع غيكونيو رأسه عن دفتر الحسابات.

«وامبوي قالت ذلك لي»، قطعت عليه سلسلة أفكاره. فلم يحر جواباً. «لِم لَمْ تقل لي عن ذلك؟» تابعت. «لا تنس أنني وكيهيكا قد جئنا من رحم واحد».

«ومتى كنا نتقاسم الأسرار، أنت وأنا؟»

وسرعان ما كره نفسه لركونه لتلك اللهجة. كان قد أقسم أن يكون مهذباً معها دائماً، وألا يسمح لزلة لسان قاسية أن تفلت منه أو أن تكشف عما يجيش في صدره من انفعالات.

«إنني آسفة»، قالت وقد شعرت بالصّغار. «لقد نسيت بأنني لا أعني شيئاً بالنسبة لك».

سرعان ما أصبح الشاي جاهزاً. صبت له بعضه وملأت لنفسها فنجاناً. وبعدئذ قامت مومبي من مقعدها ووقفت قبالة زوجها وكأنما ثمة قوة خفية طاغية دفعتها لذلك. وضعت يديها الصغيرتين حول عنقه متكئة على منكبيه. كانت عيناها تحتدمان انفعالاً كما كانت شفتاها تتراقصان ارتعاشاً.

«هيا بنا نتكلم عنه» همست في أذنه.

«عن ماذا؟» سألها وقد رفع رأسه.

«عن الطفل».

«ليس ثمة شيء للتحدث عنه» قال لها بتوكيد لاذع.

«إذاً تعال لزيارة مخدعي هذه الليلة، أنت هو من كنت أنتظره طيلة هذه السنين».

«ما خطبك هذه الليلة؟» رفع غيكونيو ذراعيها عن رقبته ودفعها برفق بعيداً عنه. «أرجوك أن تذهبي وتجلسي، أو الأفضل لك أن تذهبي وتنامي. يبدو أنك متعبة».

وقفت مومبي هناك بفتور. طفق نهداها يضطربان صعوداً وهبوطاً. فتحت فمها وكأنها تريد أن تصيح. وفجأة تناولت كبة الصوف والصنارة من على الأرض وهرعت إلى مخدعها.

لقد كان غيكونيو في الواقع هو من يشعر بالإرهاق، بالإرهاق والهرم. أسند رأسه على يده اليسرى ومرفقه على الطاولة. رفع القلم بيده اليمنى وحاول أن يخربش رقماً من الأرقام، ولكن يده لم تكن ثابتة فترك القلم يسقط من يده. بذل جهداً حتى قام من مقعده وأمسك بالسراج ووقف لعدة ثوانٍ عند باب مخدع مومبي. ثم اتخذ قراره ومضى نحو مخدعه.

***

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

وقال الرب لموسى،
امض إلى فرعون وأبلغه،
هذا الذي قاله الرب،
اسمح لقومي بالخروج.

سفر الخروج 8 :1
(آية وضع كيهيكا تحتها خطاً أحمر في إنجيله)

الفصل الرابع

في تلك الأيام التي كان يحتدم فيها الصراع بين المهاجرين الأوروبيين وبين المهاجرين الهنود للسيطرة على كينيا - وكانت وقتها أية فكرة عن اقتراب إنسان أسود من كرسي السلطة فكرة بعيدة كل البعد عن أي خيال جامح - كان مستر روجرز، وهو موظف في الزراعة، يسافر بالقطار من نيروبي إلى تاكورو في أحد الأيام، فرأى تلك الغابة الكثيفة في غيثيما وسرعان ما انشدّ إليها ذهنه البارع التخطيط. لم تكن اهتماماته منصبّةً على العمل السياسي - وهذا أمر مستغرب في تلك الأيام - بل على تطوير الأرض. لماذا لا يقوم في هذا الموقع مركز أبحاث حراجي؟ سأل نفسه في الوقت الذي كان فيه القطار يهدر نحو الجرف نزولاً إلى الوادي الكبير. وعاد فيما بعد إلى غيثيما كي يتفحص الغابة. وبدأت خطته تتخذ لها شكلاً، فكتب إلى كل إنسان مرموق بل جاهد عبثاً لمقابلة الحاكم.

مجنوناً، قالوا عنه؛ أَعِلْمٌ في أفريقيا السوداء!

غيثيما والغابة الكثيفة استحوذتا على فكره كالروح الشريرة. هجرته الراحة وطفق يحدث نفسه عن الخطة وأخذ يتحدث عنها لكل من كان يقابله. وفي أحد الأيام دهسه قطار عند منعطف غيثيما وسرعان ما أسلم الروح. وأقيم فيما بعد مركز أبحاث حراجي في تلك المنطقة نفسها، ليس تخليداً لذكرى استشهاده، بل كجزء من خطة استعمارية جديدة بغية التطوير. وسرعان ما أصبح مركز غيثيما للأبحاث الحراجية والزراعية يغصّ بالأوروبيين من علماء وموظفين إداريين.

يقال بأن شبح ذلك الرجل يهوّم عند معبر القطار، وأن القطار الهادر يتطلب

كل سنة ضحية بشرية من موقع غيثيما. وآخر ضحية كانت الدكتور هنري فان دايل، موظف سكّير سمين في الأرصاد الجوية، كان يحلف بأغلظ الأيمان، كما قال العمال الأفريقيون، بأنه سوف يقتل نفسه إذا أطلق سراح كينياتا من لودوار ولوكينوانغ. وسرعان ما اصطدمت سيارته بالقطار بعد عودة كينياتا إلى وطنه من مارالال. وأصيب الناس في غيثيما بالذعر، حتى خصومه، لدى سماعهم ذلك النبأ. فهل كان مقتله مجرد حادث أم عملية انتحار؟

كارانجا الذي كان يعمل موظفاً في مكتبة غيثيما لنفض الغبار عن الكتب وتنضيدها في رفوفها وكتابة القسائم عليها، كان يتذكر الدكتور فان دايل بشكل رئيس بسبب لعبة غريبة كان يمارسها أحياناً: كان يخرج إلى العمال الأفريقيين ويضع ذراعه حول مناكبهم ومن ثم يضربهم فجأة على أعجازهم التي لا يرقى لطهرها أي شك. كما كان من عادته أن يرخي يده على إلياتهم تدغدغها بشكل غرائزي والكحول ينبعث من لهاثه على أكتاف ضحاياه. ويتفجر من ثم على غير انتظار بقهقهة صاخبة مدوية. كان كارانجا يمقت الضحك، ولم يكن يعرف معرفة أكيدة فيما إذا كان الدكتور فان دايل يتوقع منه المشاركة فيه أم لا. ولذلك فقد كان كارانجا يجلس مكشراً بشكل عصبي مما جعله يكره الدكتور فان دايل أكثر من ذي قبل. ومع ذلك فإن نبأ موت هذا الرجل، حيث تمزقت سيارته وجثته إرباً بواسطة القطار، دفع بكارانجا إلى التقيؤ.

اختار كارانجا ورقة «استنسل» من كومة على الطاولة وبدأ بكتابة القسائم؛ فالكتب التي كان من المفروض أن تؤول إلى غيثيما آلت إلى وزارة الزراعة في نيروبي. وسرعان ما انصرف فكر كارانجا عن جميع الأمور – الاستقلال أو الدكتور فان دايل – وأخذ يولي كل اهتمامه للقسيمة التي بين يديه. «دراسات في الهندسة الزراعية، المجلد...» وفجأة شعر بوجود رجل في الغرفة. فترك صفيحة الاستنسل واستدار مكفهر الوجه وحاول جاهداً أن يتحكم بالقلم المرتجف في يده.

«لماذا أنتم أيها الناس لا تقرعون على الأبواب قبل اقتحامها؟» نبح على الرجل الواقف بالباب.

- «لقد قرعت الباب، وقرعته ثلاث مرات».

- إنك لم تقرع الباب. أنت تدخل دائماً إلى هنا وكأن هذا المكتب كوخ أبيك.

- لقد قرعت على هذا الباب، وهنا بالذات.

- ربما نقرته نقراً خفيفاً وكأنك امرأة. لماذا لا تستطيع أن تقرع قرعاً عنيفاً كما يقرعه الذكر المختون؟ زاد كارانجا من حدة صوته وخبط على الطاولة في الوقت نفسه كي يؤكد كل نقطة في حديثه.

- اسأل أمك، حين نكحتها.

-أنت توجه الإهانة إلى أمي، أنت -

- حتى الآن أستطيع ممارسة ذلك معها ثانية، أو مع أختك. هما من بإمكانهما إخبارك بأن موارا رجل مختون.

وقف كارانجا. وحدج كل منهما الآخر نظرة يقدح منها الشرر. ولهنيهة بدا الأمر وكأنهما على وشك الاشتباك بالأيدي.

أنت من يقول هذا لي؟ ألمثلي توجه هذه الإهانات العديدة؟ قال مغتاظاً.

شفة موارا السفلى تهدلت. وبدأ بطنه يجيش وتنفسه يتسارع ويحتدم. حينئذٍ بدا وكأنه قد تذكر شيئاً ما، فأمسك عن الكلام.

- «إنني آسف على أية حال»، قال فجأة ولكن بصوت مشحون بالوعيد.

- يجب أن تعتذر. ماذا تريد من هنا؟

- لا شيء. لا شيء سوى أن ثومبسون يطلبك لمقابلته، هذا كل ما في الأمر. خرج موارا. انقلب مزاج كارانجا من التوتر إلى القلق. فماذا ترى يريد منه ثومبسون. ربما يريد أن يخبره شيئاً ما عن أجوره. نفض الغبار عن كسائه الخاكي ومشط شعره الذي بلون شعر الخلد وهرع في الرواق باتجاه مكتب ثومبسون. قرع الباب قرعاً شديداً ودخل.

جون ثومبسون، المدير الإداري، رفع وجهاً متعباً عن كومة من الأوراق على الطاولة.

- ما خطبك؟ لماذا أنتم أيها الناس تقرعون بشكل صاخب؟

- «لقد ظننت، ظننت بأنك أرسلت في طلبي يا سيدي» قال كارانجا بصوت واهن، واقفاً، كما كان يقف دائماً أمام أي إنسان أبيض. قدماه متباعدتان قليلاً، ويداه مشبوكتان خلف ظهره، وكله إصغاء وخنوع.

- آه، نعم، نعم، هل تعرف موقع بيتي؟

- نعم سيدي.

- هرول إليه وقل للسيدة ثومبسون إنني لن أتناول غدائي في البيت، إذ إن عليّ أن أذهب - آه - انتظر لحظة، سأزودك برسالة.

لقد تشكل عند جون ثومبسون، على مر السنين، هوس بكتابة الرسائل. لقد كان يخربش وريقات إلى أي إنسان؛ إذ قلما كان يوفد رسولاً إلى أي مكان سواء كان إلى المدير أو إلى الإدارة المركزية بغية طلب الورق أو إلى المشغل بصدد مسمار أو مسمارين، دون أن يزود الرسول بوريقة تتضمن التفاصيل كافة. وأحياناً كثيرة كان يفضل إرسال رسالة إلى أحد الموظفين حتى حين تكون مقابلته شخصياً أمراً أيسر من الرسالة.

أخذ كارانجا الرسالة وتمهل هنيهة أو اثنتين آملاً أن يقول له ثومبسون شيئاً حول الطلب الذي كان قد تقدم به مؤخراً بشأن زيادة أجره، ولكن المدير واصل نظرته الجوفاء في كومة الأوراق المتكدسة على طاولته.

كان جون ثومبسون والسيدة ديكنسون يستخدمان كارانجا رسولاً شخصياً بينهما، وكان كارانجا يتقبل تنفيذ طلباتهما بخفة مشوبة بشيء من الامتعاض: أفلم يكن هنالك سعاة مأجورون في غيثيما؟

كانت السيدة ديكنسون تعمل قيّمة للمكتبة. كانت امرأة شابة انفصلت عن زوجها ولم تكن تتكتم على حياتها مع عشيقها. قلما كانت تواظب على الوجود في مكتبها، ولكن حينما كانت تزوره كان يعجّ بالنساء والرجال الوافدين لزيارتها، كما كانت أصوات الضحك والهرج والمرج تلعلع مسموعةً إلى خارج المكتب طيلة النهار. وبما أنها كانت شديدة الحماس لرحلات القنص الأفريقية الشرقية فقد كانت تشارك بها دائماً وتقود سيارتها بالتعاون مع عشيقها.

ولكنها لم تكن تكمل الرحلة مرة واحدة. وأما المهمات التي كانت توفد فيها كارانجا فقد كانت من أبغض المهمات على نفسه: غالباً ما كانت توفده مثلاً إلى الأحياء الأوروبية لشراء اللحم لكلبيها.

واليوم بينما كان راكباً دراجته التي كان يُسمع لها صريف، تبادر إلى ذهنه فيض من المخططات: لسوف يشكو أمر هذه المهمات التافهة إلى جون ثومبسون بالتأكيد. لا. إن أشد ما كان يمقته كارانجا لم يكن يتمثل بتلك المهمات أو تفاهتها، بل في الموقف المحرج الذي تضعه فيه بين العمال الأفارقة الآخرين. ولكن على العموم كان كارانجا يفضل تحمل الذل على فقدان تلك السمعة الحسنة التي اكتسبها لنفسه بين كل الناس البيض. لقد كان يعيش على تلك السمعة وعلى النفوذ الذي أسبغته عليه. كان الناس في غيثيما يعتقدون أن مجرد شكاية صغيرة منه كانت كافية لصرف أي إنسان من عمله. كان كارانجا يدرك مخاوفهم تلك. ومراراً كان، حين يدخل الناس إلى مكتبه، يحدجهم فجأة بنظرة فاترة أو يمطرهم بالتلميحات أو يكتفي بمجرد الدمدمة، فكان بهذه الطريقة يزيد من مخاوفهم ومن زعزعتهم. ولكنه كان في الوقت نفسه يرهب جانب الرجال البيض ويستبدل أمامهم هذه الوضعية البغيضة بتودد ذليل.

كان يحيط بدارة آل ثومبسون سياج دقيق التقليم من شجيرات الفواكه، وفي المدخل كانت العرائش الخضراء تلتف على عمود خشبي وتتكوم لتشكل قوساً في القمة وتتهدَّل من ثم على جوانب السياج. وكان السياج يطوق خمائل من الورود: زنابق أرجوانية، ونجمة الصبح، وعباد الشمس وزهر البحّار. ولكن اللون الطاغي كان لون خمائل الزهور. لقد كانت السيدة مارغري ثومبسون قد زرعت أزهاراً حمراء وأزهاراً بيضاء وأزهاراً قرنفلية - أزهاراً من جميع الأجناس. والآن برزت من قلب خميلة الألوان هذه وجاءت إلى الباب. كانت تلبس بنطالاً رقيقاً أبيض وفوقه قميص فضفاض كأنما كان يتدلى من نهديها النافرين.

«ادخل البيت» قالت بغنج بعد أن قرأت رسالة زوجها. كانت برمة

بوجودها وحيدة في البيت. وكانت تتسلى عادة بتجاذب أطراف الحديث مع خادمها أو بستانيّها. كما كانت تشاجرهما بعض الأحيان ويعلو صوتها حتى يصل إلى الطريق. والآن كان هذان الشابان قد غادرا البيت وبدأت تتيقّن، خلال هذه الأيام القليلة، كم كانا يمثلان شيئاً مهماً في البيت.

أصيب كارانجا بالدهشة لأنه ما دعي قط من قبل لدخول البيت. فجلس على طرف الكرسي ويداه المرتعشتان على ركبتيه، وحدق بكل بلادة في السقف والجدران كي يتحاشى النظر إلى نهديها.

شعرت مارغري بسطوة شهوانية للرهبة والهزيمة اللتين أوقعتهما في نفس كارانجا. لماذا لم ينظر إليها؟ لقد رأته مراراً ولكنها لم تكن تعتبره رجلاً قط. والآن تحولت فجأة إلى إنسانة فضولية تحب أن تعرف الأفكار التي تدور في خلده: ما هو رأيه في البيت؟ وفي عيد الاستقلال؟ وبها شخصياً؟ وتركت العنان لخيالها. أحست برعشة الهيجان تسري في كل أوصالها، فوقفت وقد أثارت فيها هذه الرعشة شيئاً من الغضب.

- أتحب أن تتناول شيئاً من الشاي أو القهوة أو أي شيء آخر؟

- «أنا - أنا يجب أن أذهب» أفصح كارانجا عن أفكاره تأتأة.

- «هل أنت واثق بأنك لا ترغب ببعض القهوة؟ لا تعر وجود السيدة ديكنسون كبير اهتمام» قالت باسمة وهي تشعر بأنها تحوك مؤامرة سعيدة على قلبها بعض الشيء.

- «حسناً» قال واقتعد كرسيه بشكل أفضل وعيناه تتوقان إلى الباب وإلى السياج الذي خلفه. وحتى في هذه اللحظة خانته الشجاعة في أن يسند ظهره إلى الكرسي ويجلس جلسة مريحة. ولكنه في الوقت نفسه خالجته رغبة عميقة تمنى فيها لو رآه أحد العمال وهو موضع حفاوة سيدة بيضاء، زوجة المدير الإداري، تناوله القهوة.

وفي المطبخ عبثت بالأباريق والفناجين. وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال تشعر بالخجل من تلك الرعشة التي سرت في كيانها فإنها عقدت عزمها على عدم تركها تفلت سدى. وما كان لها بدّ من أن تتذكر مرة مضت

أحست فيها بلهيب مماثل. كان ذلك في اليوم الذي رقصت فيه مع الدكتور فان دايل في فندق غيثيما. حدث ذلك مباشرة بعد كارثة (ريرا). لقد كان لهاثه المخمور هو الذي جذبها إليه وهو الذي، في الوقت نفسه، أصابها بالتقزز أيضاً. وحينما أخذها في نزهة بسيارته في المساء استسلمت أمام قوته وتركته يضاجعها واختبرت لأول مرة في حياتها تلك الفتنة الرائعة التي ترافق الهيجان.

ولما كان كارانجا ينتظر في الغرفة لاحظ أن توتره العصبي قد تلاشى وحلّت محله رغبة مختلفة. أيصح أن يسألها، وقع في حيرة من أمره. لربما تعطيه ما كان يريده فعلاً: ليتحدث إليها عن الإشاعات المتناقضة التي كانت تفيد بأن آل ثومبسون عائدون بالطائرة إلى إنكلترا. مرات عديدة سار كارانجا باتجاه ثومبسون وقد صمّم على توجيه السؤال إليه مباشرة. كان الماء البارد يتلاطم في أمعائه كما كان يشتد وجيب قلبه كلما اقترب من هذا الإنسان الأبيض. وكان تصميمه يضمحل دائماً بالطريقة نفسها: كان يلقي التحية على جون ثومبسون ويتخطاه متظاهراً بأن عمله يقوم في مكان أبعد. إن ما كان يخشاه كارانجا أكثر من الإشاعات كان احتمال توكيدها. وطيلة ما كان يجهل الحقيقة فقد كان يفسر الرواية بالشكل الوحيد الذي يزرع الأمل في نفسه: إن قدوم حكم السود لا يعني ولا يمكن أن يعني بتاتاً نهاية سلطة البيض. لقد كان ثومبسون، وهو مدير المنطقة السابق والمدير الإداري الآن. يبدو دائماً لكارانجا بمثابة الرمز المرهوب الجانب لتلك السلطة. فكيف يجوز إذاً رحيل ثومبسون؟

عادت مارغري بفنجانين من القهوة.

- أتحب إضافة شيء من السكر إلى قهوتك؟

- «لا» أجاب غريزياً وهو يعلم في الوقت نفسه أن الجرأة تنقصه لسؤالها عن الإشاعات. كان كارانجا يشمئز من الشاي أو القهوة إن كانت خالية من مقدار كبير من السكر.

جلست مارغري قبالة كارانجا ولفّت ساقاً على ساق، ووضعت فنجانها

على ذراع كرسيها. بينما أمسك كارانجا فنجانه بكلتا يديه مخافة انسكاب نقطة منه على السجادة. كان يجفل كل مرة يقرب فيها الفنجان من شفتيه وخياشيمه.

«كم زوجة تقتني؟» سألته سؤالها المفضّل الذي كانت تطرحه على الأفارقة. لقد أصبح هذا السؤال محبباً لها منذ أن اكتشفت أن آخر طباخ عندها كان له ثلاث زوجات. فأجفل كارانجا وكأن مارغري قد نكأت عليه جرحاً ما اندملت بعد إلا قشرته الخارجية فقط.

مومبي.

- لست متزوجاً.

- ألست متزوجاً؟ كنت أحسبكم هنا - أفلن تبتاع لك زوجة؟

- لا أعلم.

- أفليس لك صديقة. أعني امرأة؟ صمتت. تعاظم فضولها واكتنف صوتها الدفء. شيء ما في جرس صوتها حرك مشاعر كارانجا. من أين لها أن تفهم؟ من أين؟

- «كانت لي امرأة. أنا - أنا أحببتها» قال بجرأة. أغمض عينيه وبجهد مفاجئ كبير تجرّع القهوة المرة.

- لماذا لم تتزوجها؟ هل هي متوفاة أو -؟

- لقد رفضت الزواج مني.

- «إنني آسفة» قالت بحنان. وفجأة تذكر كارانجا نفسه وتذكر بأنه في بيت المدير.

- هل بإمكاني الذهاب الآن سيدتي المصون؟ هل ثمة رسالة لمولانا؟

كانت قد نسيت الأمر الذي جاء به كارانجا إلى البيت، فقرأت رسالة زوجها ثانية.

- «لا، ليس ثمة رسالة. أشكرك جزيل الشكر»، قالت له عند الباب.

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة حين غادر كارانجا بيت ثومبسون. إن الجرح الذي نكأته مارغري طفق يبرّحه الآن. وبعد هنيهة بدأ كارانجا

يشفى من الجرح تدريجياً، وتمنى لو أن موارا شاهده في البيت. كما تمنى أن الخادم كان في البيت إذ ذاك لانتشرت أنباء زيارته هذه. وكما فرض عليه واقع الحال فقد كان عليه هو بالذات أن يقوم بالرواية: ولكن سيكون لهذه الطريقة وقع أقل وسلطان أدنى. ولما كان الوقت يقارب موعد الغداء فقد ذهب مباشرة إلى المطعم الصغير الذي يقوم في الحي الأفريقي وهو يتخيل زيارته وفنجان القهوة المر.

كان يطلق على المطعم الصغير اسم «صديقك حتّى الممات» وباختصار «صديقك». كانت جدرانه الحجرية مدهونة بالشحم وتشكل مرتعاً خصباً للذباب. فكانت الذبابات تئز حول الزبائن وتقفز فوق الفناجين والصحون بل وكانت تتساقط فوق الأطعمة الموضوعة على الطاولة. وورود بلاستيكية في صفائح من التنك كانت تزين الطاولات الصرّارة. شعار المطعم كان مدهوناً بأحرف كبيرة على الجدار: تعالوا يا معشر الجياع والعطشى وسوف أوفر لكم الراحة. وعلى قسم آخر من الجدار كانت تتدلى قصيدة ضمن إطار دقيق:

بما أن الإنسان قد أصبح جائراً على أخيه الإنسان،
فدلوني إلى الإنسان الذي أستطيع الاعتماد عليه.
لقد محضت ثقتي للعديد وما نالني سوى الغم،
لذلك إن جئت بنيّة الدّين يا صاح، تعال غداً.

مطعم «الصديق» كان هو المطعم الوحيد المرخّص في غيثيما.

كارانجا التقى بموارا هناك. ليس خليقاً بك أن تخلق لنفسك الأعداء، هذا ما كان كارانجا يحدّث نفسه به دائماً بعد أن يكون قد أساء لأحد العمال ونفّره منه.

«إنني آسف بخصوص ما جرى بيننا»، عاجله كارانجا بالقول متصنّعاً دماثة غريبة عليه. «آمل أن تعتبرها هفوة بين صديقين. فكما تعلم إن بعض الناس لا يدركون أن العمل الذي نقوم به، كما تعرفه، من كتابة القسائم

لكل تلك الكتب العلمية يستدعي التركيز. وإذا فتح إنسان عليك الباب على مصراعيه دون سابق إنذار فإنه يضايقك، وحينها لا بدّ لك من تخريب الحروف. ولكن قل لي هل تعرف قيمة المكتبة – تلك المرأة – معرفة جيدة كما أعرفها أنا – وهل تعتقد بأنها قد انفصلت عن زوجها دون سبب وجيه؟»

– «أيها النادل: أسرع إليَّ بفنجانَين من الشاي...» والآن ما هي الأنباء الواردة من رونجي؟

جون ثومبسون – وهو رجل طويل القامة ذو بشرة مرنة ملتصقة بعظامه – لم يذهب إلى نيروبي بل بقي في غيثيما خلال ساعة الغداء يمارس بعض الأعمال الخفيفة: أي أنه كان يقف، يذهب إلى الخزانة المنتصبة حذاء الجدار، يتناول منها ملفاً ويعود إلى الطاولة، وجهه المرهق من الطقس في ذهول دائم، وكأنما فكره مشغول بأمور بعيدة وقديمة. كانت يداه النحيلتان وعيناه البراقتان تجوسان في كل ملف بدقة قبل إعادته إلى الخزانة. استوى في جلسته مرة أو مرتين وداعبت إصبعه بعض التغضّنات المحتشدة حول شدقيه.

كان ثومبسون يتأمل الورق النشاف ومسند الأقلام وأقلام الحبر، والدواة والسقف وجدران المكتب الناصعة البياض، كلّ بدوره، وكأنما يفتش عن نمط يوحّد بين هذه الأشياء كافة: إلا أن عقله كان يثب من فكرة إلى أخرى بكل خفة. بعدئذ تناول الصحيفة الصادرة في ذلك اليوم – الإثنين – نسخة من لواء شرقي أفريقيا – وهي أقدم صحيفة يومية في كينيا، واسترخى على كرسيه. وبينما كان يتصفح التقارير المكتوبة عن الاستعدادات الجارية لعيد الاستقلال الذي يصادف يوم الخميس، أجفل ثومبسون من جراء شعور غامض بالخيانة. ما كان بوسعه أن يحدد في الصحيفة ذلك الشيء الذي كان يسبب له – منذ قيام الحكم الذاتي المحلي في حزيران – ذلك الشعور: أهو نبأ الاستقلال الذي كان يعرفه من قبل، أم الروح المتمثلة بالاستعجال بتقبل مجريات الأمور. ذات مرة رأى صورة رئيس الوزراء على الصفحة الأولى: ما كان يطيق النظر إليها مرتين فعجّل في قلبها إلى الصفحة التالية:

فيما بعد شعر بالخجل من ردة فعله هذه ولكنه لم يتمكن من قسر نفسه على النظر إليها مرة ثانية. كان ثومبسون يعلم سلفاً أن دوق أدنبرة سينوب عن الملكة. لقد كان أي نبأ عن عيد الاستقلال يذكره بمعرفته هذه. ومهما كانت وجهة نظر ثومبسون حيال هذا الأمر فقد كان يؤرقه الحزن لمعرفته بأن الدوق سيكون حاضراً لمشاهدة إنزال العلم الذي لن يرفرف ثانية على هذا الجانب من شاطئ إنكلترا. هذا الغم كان يعمّقه فكره وهو يعود به إلى عام 1952 حينما قامت الملكة، وقد كانت وقتها أميرة، بزيارة كينيا. ولهنيهة نسي ثومبسون الصحيفة وعاش ثانية تلك اللحظة التي صافحته فيها تلك المرأة الشابة. كان وقتها مدير منطقة. شعر برعشة: تسارعت نبضات قلبه وكأنما قام ميثاق بينه وبينها. وبعدئذ شعر بأنه على استعداد للإقدام على فعل أي شيء إرضاءً لها، كطعن نفسه مثلاً، كي يبرهن لها عن استعداده لتنفيذ تلك المهمة التي بدت متجسدة - وإن كانت غير معلنة - في شخصها وابتسامتها. ولما عادت له ذكرى تلك النشوة ألقى بالأوراق بعيداً بشكل لا إرادي وهبّ واقفاً على قدميه. كان في عينيه بصيص، ومضة دامعة. فسار باتجاه النافذة وهو يتمتم هامساً: يا لقبح كل ما جرى.

انحسرت تلك النشوة الآنيّة في نفسه وحل محلها التجهّم، فاتكأ إلى الأمام وعيناه تحدقان بذلك المشهد الذي كان يقوم أمامه بشكل سديمي: كانت تمتد أمامه سقوف المخابر الثلاثة المصنوعة من الحديد المبروم. مخبر لأمراض النباتات والحراج. والثاني لفيزياء التربة والثالث لكيمياء التربة. وإلى يساره كانت تنتصب البيوت الزجاجية لاستنبات الخضراوات وهي مبعثرة هنا وهناك على شكل مجموعات من بيتين أو ثلاثة. لمح في المركز الدكتورة لايند، وهي عالمة بأمراض النباتات، تجتاز الطريق الأسفلتي ولكنها سرعان ما اختفت خلف البيوت الزجاجية، وبعد ثوانٍ معدودة تبعها كلبها، وقد كان ضاري حراسة بُني اللون ضخم الجثة تتهدل لغاديده السوداء. مندفعاً من المخابر. عن يمينه كان يرى المكتبة ومجموعات من الأفارقة يتمددون على الحشيش تحت الطنوف. كان كل ما حوله هادئاً،

تفكر ثومبسون، وها هو الآن يجيل بصره من ساحة الحشيش الأخضر إلى مبنى الكيمياء وهو أقرب مخبر إليه. أنابيب اختبار فوق أنابيب اختبار كانت منضدة بشكل أنيق قرب النافذة الزجاجية. هل ستبقى هذه الأشياء بعد يوم الخميس؟ ربما ستبقى مدة لا تزيد على الشهرين: وبعدئذ - أنابيب الاختبار والأكواب سوف تتكسر أو تلقى متسخة على الإسمنت. والبيوت الزجاجية وأحواض البذور التي نشرت فيها النباتات البرية والشجيرات المحيطة بها التي تقضَّبَت أطرافها بكل عناية، ستزحل تدريجياً إلى فسحة مليئة بالقمامة.

برز الضاري من الجانب الآخر لمبنى الكيمياء وهو يتشمّم سطح الحشيش. ثم توقف ورفع رأسه نحو المكتبة، فتوترت أعصاب ثومبسون: لا بد من وقوع أمر ما. لقد عرف ذلك الأمر وترقبه ولكنه كان عاجزاً عن كبت الرعدة التي حلت به. وفجأة بدأ الضاري ينبح وهو يقفز عبر الساحة باتجاه مجموعة الأفارقة. زعق بعضهم وتفرقوا في اتجاهات شتى. ثمة رجل واحد منهم لم يتمكن من الهرب في الوقت المناسب فاتجه إليه الضاري. حاول الرجل أن يشق درباً للنجاة بنفسه بيد أن الضاري حاصره عند الجدار. فانحنى فجأة والتقط حجراً ورفعه في الهواء. لم يكن الضاري يبعد عنه الآن أكثر من أقدام قليلة. وانتظر ثومبسون وقوع الأمر الذي كان يخشى وقوعه. وفي تلك اللحظة بالذات ظهرت الدكتورة لايند على المسرح، وبينما كان الضاري يتأهب للوثب على الرجل، صاحت شيئاً ما. استعاد ثومبسون أنفاسه أولاً على شكل شهيق طويل ومن ثم على شكل شهيق سريع قصير. زال توتره وأصيب بخيبة أمل غامضة لعدم وقوع شيء يذكر.

غادر مكتبه وعبر ساحة الحشيش باتجاه المكتبة حيث تجمع عدد قليل من الأفريقيين. كانت الدكتورة لايند تمسك طوق كلبها بيدها اليسرى وتشير بإصبع الاتهام إلى كارانجا بيدها اليمنى.

«إنني عاتبة عليك، عاتبة عليك أشد العتب» قالت بصوت ينضح بأشد أنواع الاحتقار. فأطرق كارانجا برأسه، كان الخوف والغضب باديين في عينيه، كما كانت حبّات العرق ما تزال تتصبب على وجهه.

- «الكلب – الكلب – جاء – سيدتي المصون»، قال متأتئاً.
- ما كنت أتوقع هذا منك بتاتاً – أأنت تقذف الحجارة على كلبي؟
- لا أحجار – لم أقذفه بالحجارة.
- «يا للطريقة التي تكذبون بها أنتم أيها الناس» – قالت وتلفتت حولها إلى الآخرين والتفتت من ثم إلى كارانجا قائلة: «ألم أضبطك ممسكاً بالحجر؟ كان عليّ أن أتركه يتناولك. وحتى هذه اللحظة تراودني فكرة ما بأن أسمح له بذلك».

عند هذا الموقف وصل جون ثومبسون إلى المسرح. أفسح الأفريقيون له الطريق وكفت الدكتورة لايند عن تقريع كارانجا وابتسمت لثومبسون. رفع كارانجا رأسه يحدوه أمل ما. تطلع الأفريقيون الآخرون إلى ثومبسون وكفوا عن التمتمة والغمغمة. انتاب القلق ثومبسون من جراء ذلك الصمت المفاجئ والعيون العديدة، وتذكر المعتقلين في (ريرا) في ذلك اليوم الذي أعلنوا فيه الإضراب. وها هو الآن يشمّ رائحة العداء نفسها. يجب أن يحافظ على رفعته – حتى النهاية. بيد أن الهلع سيطر عليه، ودون أن يلتفت إلى أي إنسان تفوه بأول كلمات سواحلية نطق بها لسانه:

«سأعالج أنا هذا الأمر». وسرعان ما أدرك بأن هذا القول كان القول الخاطئ الذي ما كان عليه أن يتفوه به – لقد كان هذا الكلام أقرب ما يكون إلى الاعتذار. ها قد انتهك الصمت. وطفق الرجال الآخرون يصيحون ويشيرون إلى الضاري. وقام آخرون بحركات إيمائية غامضة في الهواء. نظر كارانجا إلى ثومبسون نظرة ملؤها العرفان بالجميل. وسرعان ما طوق ثومبسون كتف المرأة بذراعه ومشى بها بعيداً.

لقد سار بها عبر الرواق الواصل بين مبنى المكتبة ومبنى الإدارة على غير دراية منه إلى أين يقصد بها. لقد بدا كل شيء وكأنه عقاب من الماضي: ريرا والضاري. كانت الدكتورة لايند هي المتحدث الوحيد طيلة هذا الوقت.

«لقد بدأت الوقاحة تظهر عليهم لمجرد أن موعد عيد الاستقلال قريب – حتى أفضلهم بدأ يتغير».

لقد أراد أن يفاتحها بموضوع الضاري ولكنه وجد ذلك أمراً عسيراً عليه. كان يدرك بأن عليه أن يقوم بتصرف ما، فماذا كان من الممكن أن يحدث لو أن الضاري لمس كارانجا؟ كان من المفروض به كمدير إداري أن يعالج العلاقات بين العمال والإداريين، ولقد تلقى عدداً من الشكايات على كلب الدكتورة لايند من سكرتير اتحاد المستخدمين الأفريقيين المدنيين في كينيا. لقد وصلا الآن إلى مشتل زراعي كبير مسوّر بالأسلاك الشائكة، فجلسا على بقعة معشوشبة من الأرض. أراد أن يكاشفها بالحقيقة - ولكن من يفضح عجزه لها: من أنه وقف مشلول الإرادة لأنه كان يتوقع إهراق الدماء.

«عملياً لم تكن الغلطة غلطة ذلك الشاب» بادرها بالحديث. «لقد رأيت الضاري يعدو باتجاههم».

كان ثومبسون، كالعديد من الأوروبيين الآخرين في كينيا، يحب الحيوانات الأليفة - ولا سيما الكلاب - حباً جماً. منذ عام مضى أخذ مارغري إلى نيروبي لمشاهدة مسرحية «أشهري مسدسك يا آني» حيث كان يجري تمثيلها على (المسرح القومي) من ممثلي المدينة. لم يكن قد زار ذلك المسرح بتاتاً من قبل - لأنه عملياً لم يقدم أية مسرحية هامة قط - بل كان يزور دائماً (نادي مسرح دونافان مول). كان الطريق بين غيثيما ونيروبي يمر عبر الريف. كان الظلام حالكاً. وفجأة ظهر أمام أنوار السيارة كلب على وشك عبور الطريق. كان بمقدور ثومبسون أن يكبح السيارة أو أن يخفف من سرعتها أو أن يستعمل النفير. كان أمامه متسع من الوقت والمسافة. ولكنه تشبث بالمقود. لم يكن يريد قتل الكلب على الرغم من أنه كان يعرف بأنه سوف يدهسه. كان ملتصقاً بالمقعد - خائفاً مما ليس منه بدّ. وفجأة تناهت إلى سمعه زعقة. فعادت إلى ثومبسون حيويته. كبح السيارة حتى توقفت وفتح الباب وخرج يحمل مصباح الجيب. رجع إلى الوراء عدة ياردات، لم يكن هنالك كلب. نظر على كلا جانبي الطريق ولكنه لم يعثر على أثر للكلب - حتى ولا على أثر للدماء. ومع ذلك فقد سمع الخبطة والزعقة. ولما رجع إلى السيارة وجد مارغري تجهش بالبكاء. وكم كانت

دهشته حين وجد نفسه أسير الارتعاش وغير قادر على مواساتها. «ربما يكون تحت السيارة» قالت له. خرج ثانية وأمعن النظر تحت السيارة. لم يكن هناك أي شيء. قاد سيارته وهو يشعر بالحزن وكأنه قتل إنساناً.

لقد عاش تلك القشعريرة مرة أخرى حين رأى الضاري يعدو نحو كارانجا. كان الحادث قريباً قرب سواد العين من بياضها، حينما كان يحاول أن يشرح للدكتورة لايند ما حدث على الحشيش – حذار من أن تقول لها غير ذلك – وبين ما كان يجيش في سريرته.

وأشد ما كانت دهشته وانزعاجه حين رآها تنتحب فأشاح بوجهه بعيداً عنها. وبينما كان الضاري يتجول بين الشجيرات توقف قرب أجمة من أشجار الكافور ورفع إحدى قائمتيه الخلفيتين وطفق يتبول.

«إنني آسفة» قالت الدكتورة لايند بصوت متهدج تخنقه العبرات وهي تمسح دموعها بمنديل أبيض. كانت امرأة مسنّة يتهدل اللحم من خديها وتحت عينيها. وكانت يومياً تجتاز الساحة – الساحة القائمة بين البيوت الزجاجية وبين المخابر وأحواض البذور – بخفة كمخلوق منعزل، كالشبح.

– «لا تدعي هذا الأمر يكدرك» قال وعيناه تلاحقان الضاري خلسة.

– «حاولت ألا أتكدر ولكن – ولكن – ولكنني أكرههم. ليس بوسعي أن أتجنب ذلك. إذ كل مرة أراهم فيها أتذكر – أتذكر –»

تململ فوق الشعب وشعر بموقفه المضحك اتجاه هذه المرأة التي أحب الابتعاد عنها الآن بعد أن خبا عنده الحافز للحديث معها عن الضاري. ولكن مزاج الدكتورة لايند كان ذلك المزاج – مزاج الرثاء الذاتي الطاهر المقدس – الذي يجد فيه المرء نفسه أقرب ما تكون إلى إنسان آخر، حتى لو كان غريباً، وعلى استعداد للبوح له بأعمق مكنونات نفسه من مخاوف ومتاعب. وهكذا أفضت له بالحادث الذي نغّص عليها حياتها وجلبب جسدها بالعار. كانت تعيش وحيدة في موغوغا في بيت ريفي عتيق تكسوه الأشجار من جميع جوانبه حتى السطوح. كانت تحب البيت، العزلة، الطمأنينة. وقع لها ذلك الحادث إبان حالة الطوارئ. ولقد حذرها مدير

المنطقة مرات عديدة بضرورة ترك المكان المنعزل والذهاب إلى غيثيما أو إلى نيروبي حيث تتوفر لها الحماية والأمن على نحو مؤكد. ولكنها ما كانت تلقي بالاً إلى تحذيراته: إن الروايات عن مقتل النساء في بيوت مزارعهن القصيّة لم تخفها. لقد جاءت إلى كينيا كي تمارس العمل وليس كي تمتهن السياسة. لقد أحبت المنطقة والمناخ ولذلك عقدت عزمها على البقاء. إنها لم تتسبب بالأذى لأي إنسان قط. وإن القول بأنها كانت تقرّع خادمها أحياناً لقول صحيح ولكنها كانت تهبه الهدايا والثياب أيضاً كما أنها ابتنت له مسكناً من الطوب خلف بيتها وما كانت تلزمه بالإفراط في العمل المضني. كان رجلاً صغيراً من قبيلة الكيكويو في منطقة رونجي، وكان من الواضح أنه كان طباخاً أو شيئاً من هذا القبيل خلال الحرب العالمية الثانية، ولكنه بقي عاطلاً عن العمل ردحاً طويلاً من الزمن قبل مجيئه للعمل عندها. وتوطدت بين الخادم والكلب صداقة كانت رؤيتها تحرّك مشاعر الآخرين. وحدث في إحدى الليالي، وقد كان الظلام دامساً في الخارج، أن طلب منها الخادم فتح الباب بإلحاح. ولدى فتحها الباب اندفع إليها رجلان وجرّاها جراً إلى غرفة الجلوس والخادم في إثرهما. كانت تتوقع منه النجدة ولكنه خذلها ووقف باسماً. توقعت منهما أن يقتلاها، إذ إنها أسلمت نفسها للموت بعد الصدمة الأولى. ولكنها حين اكتشفت رغبتهما بها شعرت ببرودة متناهية تسري في كل كيانها. يقول الناس في النساء إنهن يتعرضن للإغماء في أمثال تلك الحالات أو أنهن يقاومن. كم تمنت وقتها لو أصيبت بالإغماء أو لو ماتت في تلك اللحظة نفسها. ولكن الجانب المرعب في تلك العملية تمثل في أنها رأت كل شيء بأم عينها وكانت في حالة من الوعي التام... وفيما بعد ألقي القبض على رجلين وشنقا وأما الخادم فقد أفلت وتوارى نهائياً. وكان عليها أن تشتري كلباً آخر وتدربه (لأن الخادم كان قد دس السم للكلب الأول في تلك الليلة). أعيتها الحيل لانتزاع تلك الرائحة البغيضة من أنفها، ولنسيان تلك النظرات المسعورة الخبيثة في عيون الرجلين - لا - لا، لن تنسى تلك الحادثة مطلقاً إلى يوم تموت.

نظر إليها ثومبسون منكفئاً على ذاته بعيداً عن صوتها وعن جسدها وعن حضورها، غادر كلاهما الحقل وسارا في دربين مختلفين وكأنهما يشعران بالخجل من آخر وصال جنسي لهما. لقد كان شعوره بالخوف الذي استيقظ فيه بالمكتب يفوق إدراكه له. فحاول أن يكبت موجة الخوف الخفية، ولكن الكلب كان يسيطر على فكره. وتذكر الكلب الآخر الذي التقت عيناه بنور السيارة. ما الذي حدث له؟ ماذا كان جرى لو أن الضاري وثب على كارانجا ومزق لحمه إرباً؟ يا لذلك العداء الذي لاحظه في عيون الرجال حينما اقترب منهم. يا لهول الصمت. يا للمفاجأة. مثلما حدث في (ريرا) تماماً. هناك رفض المعتقلون الكلام. افترشوا الأرض ورفضوا الطعام أو الشراب. كان عنادهم كالحديد. عيونهم كانت تلاحقه أينما سار. يا للكرب الذي اعتراه، ويا للأرق الذي عاناه وهو يفكر في كيفية خرق الصمت. وفي الظلمة كان يستطيع رؤية عيونهم. وفي الرجال عند المكتبة، تعرّف ثانية على تلك العيون، النظرة نفسها فيها.

لقد عمل جون ثومبسون كمدير منطقة في أنحاء عديدة من كينيا. كان يعمل بدأب كبير مما جعل مقدرته على التعامل العاجل الناجع مع الأفريقيين موضع إقرار الجميع على نطاق واسع. كان وراءه سجل حافل في الإدارة الاستعمارية. وخلال حالة الطوارئ نقل مؤقتاً إلى معسكرات الاعتقال كي يعيد تأهيل مريدي الماو ماو إلى جادة الصواب كرعايا بريطانيين. في (ريرا) وقعت مأساة حياته. إضراب عن الطعام، ضرب خفيف ومات أحد عشر معتقلاً. رشحت هذه الحقيقة. وبما أن ثومبسون كان الضابط المسؤول فقد تناقلت اسمه الألسن في مجلس العموم والصحافة العالمية. وفجأة أصبح رجلاً ذائع الصيت. تألفت لجنة لاستقصاء الحقائق. نقل إلى غيثيما وطرد من الإدارة العامة التي كان يحب العمل فبها. لكن جرحه هذا ما اندمل قط. إن مجرد لمسة تعيد إلى ثومبسون كل ذلك الهوان الذي عاناه في ذلك الوقت.

ولما كان الآن يحدق في عيونهم تراءى له فيها مغزى مرعب جديد:

هل كان سيخضع ثانية إلى التحقيق، وفي ظل حكومة سوداء هذه المرة، لو حدث لكارانجا أي شيء؟

لقد مرت فترة العصر سريعاً على الرغم من أنه لم يزاول أي عمل يذكر. ربما سيعود غداً لإنجاز العمل. أغلق النافذة وعاش المشهد ومخاوفه مرة أخرى. في نهاية الرواق كان كارانجا في انتظاره. ماذا تراه يريد منه؟ ماذا يريد منه؟

- ماذا تريد؟
- لقد سلمت الرسالة.
- والمغزى؟
- أريد تقديم الشكر لك.

تذكر ثومبسون كذبته، فحدق في الصبي وعبره. ولما خطرت على باله فكرة ثانية نادى كارانجا.

- «بشأن حادثة ذلك الضاري...».
- أوامركم سيدي؟
- لا تقلق بشأنه. أنا من سيعالج الأمر.
- لكم الشكر يا سيدي.

ومضى ثومبسون يغلي حنقاً في داخله. هل كان عليه هو أن يهدئ من روع كارانجا؟ يا للنهاية التي وصلنا إليها!

شعر بالدموع تترقرق في عينيه واندفع إلى السيارة كالمسعور.

***

الفصل الخامِسُ

كانت لدى ثومبسون رغبة في أن يحدّث مارغري عن الدكتورة لايند، وفتح فمه مرتين لهذا الغرض وفي المرتين استحالت الرغبة إلى التذمر من قيظ النهار. حاول أن يركز انتباهه على المستقبل: حفلة الوداع غداً، ركب الطائرة والعودة إلى الوطن في اليوم الذي يليه، حياتهما الجديدة في بريطانيا، بيد أن فكره كان مهووساً بالماضي وفي الجانب التافه منه: مثل حادثة الضاري التي وقعت في باكورة ذلك اليوم.

- ماذا كنت تفعل في نيروبي؟ سألته وقد شعرت بقلقه علاوة على ما كانت تشعر به هي من أفكار.

- ما وصلتها عملياً - أجابها.

- لماذا؟

- «عمل أكثر مما يجب في المكتب»، تمتم وتناول نسخة قديمة من صحيفة «بانش» وكأنه يريد حماية نفسه بها من زوجته.

- آمل أن يكون كل شيء قد أضحى الآن على ما يرام - أعني في المكتب.

- نعم. كنت أمعن النظر ببعض الملفات، ثمة عدد آخر منها بحاجة للعمل غداً وعدد من الرسائل العاجلة بحاجة لإجابات. لقد أصبح كل شيء جاهزاً أمام الإنسان الجديد.

- وهل وجدوا إنساناً آخر؟

- نعم. لا. لا أتصور ذلك.

- ربما سيكون أفريقياً؟ أعتقد بأنهم يؤفرقون كل شيء الآن.

ألقى الصحيفة على ركبتيه، وتيبّس وكأن دبوساً قد وخزه في إسته. كابوسه السابق الذي تخيله صبيحة ذلك اليوم عاد إليه الآن وبشكل أكثر حيوية: قارورات وأنابيب اختبار متكسرة ملقاة على أرض المخبر ومكتبه هو مليء بالرسائل التي تنتظر الإجابات والغبار والورق المتناثر على أرض المكتب. شعر بالغيرة على مكتبه وعلى النظام الذي ابتكره فيه كما شعر بالبغض لذلك الرجل الذي سيخلفه وتمنى لو استطاع حماية كرسيّه من أية إهانة قد تلحق به. شعر ثومبسون بذلك الألم الصامت. بل بذلك الكرب الذي يعانيه الناس من جراء معرفتهم بأن الاستغناء عنهم أمر ممكن في خاتمة المطاف، وأن المدرسة التي تركوها أو النادي أو الجامعة سوف تتقبل رجالاً جدداً مهما بلغت درجة إهمالهم وانعدام شعورهم بالمسؤولية، دون أي اكتراث، وكأن السابقين ما وجدوا قط وما تركوا بصمات أصابعهم على تلك الأشياء التي اعتادوا أن يقولوا عنها بأنها لهم شخصياً. ولسبب مجهول شعر ثومبسون بأن غضبه هذا ينقلب على زوجته، فأراد أن يوجه لها سؤالاً، أن يتحداها، لعلّه يكتشف إن كانت هي ضده أيضاً. ولكن الشيء الذي أراد معرفته في الواقع كان التالي: لو أنه مات بالأمس في (ريرا) أو في غابة كينني، لو أنه مات اليوم، فهل ستقدم على الزواج من رجل آخر؟ وفجأة ألقى بالصحيفة ومشى إلى الغرفة التالية دون أن يجيب على السؤال الذي سألته مارغري. بعد عدة دقائق عاد يحمل ملفاً يشتمل على دفاتر وأوراق وطفق بتصحفها.

قامت مارغري كي ترفع الفناجين والصحاف. تمهلت عند فنجانه ونظرت إلى زوجها وتذكرت الأيام التي مضت قبل التحاقهما بالخدمة الاستعمارية حين كان من عادته أن يفتح لها مكنونات قلبه ويجنّح بها عالياً فوق أمواج تفاؤله وتطلعاته الأخلاقية. كان ذلك بعد أن عاد جون إلى أوكسفورد من الحملات الأفريقية في الحرب العالمية الثانية. رقّ

قلبها لهذه الذكرى ولاحظت الآن التوتر البادي على وجهه وتمنت، لثانية واحدة، أن تبدّده برفق وإلى الأبد. ولكن تلك الرغبة تلاشت بعد ذلك أمام الأفكار السوداء والذكريات المرة: مذ متى بالتحديد بدأ كل منهما يسير على طريق مستقل؟ وبسرعة تناولت بقية الأشياء ومضت إلى المطبخ. ربما كان العمل هو الشيء الذي أبعده عنها؛ إذ بعد أن غاص زوجها في العمل الإداري ووضع الترقيات نصب عينيه بدأت تطلعاته تتلاشى، وأما هي فقد تزايدت بالنسبة لها صعوبة اكتشاف ما تخبئه قسمات وجهه الغامض حتى أصبح من المؤلم لها بالنتيجة أن تكنّ له حتى الحد الأدنى من العواطف والرقة. فخلال أزمة (ريرا) بذلت جهوداً مضنية كي تشد من أزره وتواسيه. ولكن أين هو ذلك الحنان الذي كان من واجبها كزوجة أن تشعر به حياله؟ لم يكن بوسعها أن تشاطره همومه، وبدلاً من ذلك، شعرت بالخجل الذي يعتور طفلاً يشاهد فجأة شاباً يافعاً منهمكاً بمطاردة فراشة في الحقول والدروب.

لم تكن مارغري تسمح لأي فكرة أن تستحوذ عليها طويلاً، والآن وهي في المطبخ تغسل الصحون، وجدت نفسها تعيد إحياء ذلك الدفء الذي شعرت به صبيحة ذلك اليوم. كم من السخف، قالت لنفسها، أن تتذكر كل تفاصيل ذلك اللقاء القصير مع كارانجا. ربما يكمن السبب في أنني سأغادر أفريقيا. لا. ربما لأنني أتقدم في السن. يقولون بأن القيظ الأفريقي يفعل ذلك بالنساء. تبسمت ولكنها فجأة توقفت: هل صحيح أنها تدخل هذا المطبخ لآخر مرة؟ ألن ترى غيثيما أبداً مرة أخرى؟ هل ستعني أزهارها أي شيء بالنسبة لأية إنسانة تحتل مكانها في هذا البيت؟ كل زاوية من زوايا البيت، الكراسي، الطاولة، السرر وحتى الحيطان كانت تثير فيها الذكريات، وخلال تجوالها من مقاطعة إلى أخرى في جميع أرجاء كينيا، لم تجد أي بيت آخر ولا أي مكان آخر يحتل في نفسها ما احتله هذا البيت من تعلّق حميم. وليس ثمة مكان آخر غير هذا البيت وفّر لها ذلك الإحساس بالانعتاق، بالحرية، بالسلطان.

كانت غيثيما هي المكان الذي قابلت فيه الدكتور دايك وشيء ما في داخلها – شيء كانت تجهل تماماً وجوده لديها – تم إيقاظه بشكل عنيف إثر ذلك اللقاء. وشعرت أنها ضعيفة، ذلك الضعف اللذيذ أمام هذا الإنسان. ومع ذلك فكم كانت عادة شربه مقززة وكذلك ضحكه الصاخب. كان بالتأكيد نقيضاً لجون الذي كان دائماً أنيق الملبس مهذب التصرف مع الآخرين والذي ما كان يسمح لشربه قط أن يبلغ حد السكر. ومع ذلك فإن مارغري شعرت بأنها تغور في حيوية جديدة: الخلوة، الجرأة، البهجة الفوضوية الناجمة عن انتهاك إحدى القواعد، كلها شحذت اهتياج علاقتهما الغرامية. الليلة الأولى كانت تنطوي على روعة خاصة، لحظة حبلى بالخوف والفضول والانشداه. وفي اللحظة التي اختلق زوجها لنفسه العذر بعدم المشاركة في الرقص أدركت أن شيئاً ما سيحدث لها. وحين عرض عليها (فان) أن يوصلها إلى البيت شعرت بامتنان عميق حتى إنها كادت تطبع قبلة شكر على جبينه. وبعد أن توقفت السيارة بهما في إحدى الغابات الكثيفة العديدة في غيثيما، أغمضت جفنيها ولامست شفتاه شفتيها.

– هيا بنا إلى المقعد الخلفي، هَمْهَمَ في أذنها.

– ليس اليوم يا (فان)، ليس اليوم، همست مسترخية.

– اليوم. بل الآن. قال وهو يكاد ينتزع ثيابها عنها وينتقل إلى المقعد الخلفي. تبعته مستسلمة ولم تنبس ببنت شفة.

– ولكن يجب أن تتوخى الحذر رجاءً، عاد لها صوتها بعد أن شعرت بوطأته فوقها.

– نعم. نعم.

– رويدك، على رسلك – قالت ولكن سرعان ما قاطعت كلماتها دفعة من جسده، فالتصقت به وهي تخشى أن تتزلزل السيارة وكل الدنيا من تحتها. الصمت المطبق في الظلام والطنين الدائم في الغابة أضافا سحراً على سحر تلك اللحظة. وبعد أن فرغت من هذه المضاجعة بكت وهي تتعجب كيف سيكون بوسعها مقابلة زوجها بعد الآن.

- لماذا تنتحبين؟

- زوجي.

- بئس الرجل! قال متمتماً.

لم تكن علاقتهما الغرامية علاقة هنيّة. أخذت غيرتها عليه تشتد، وصارت تكره أن تراه في الحفلات يحادث أو يضاحك النساء الأخريات. ولكن أنّى لها أن تثير فضيحة علنية أو تدعي حقها فيه صراحة. ولذلك فإن مشاحناتهما ومنازعاتهما كانت تحدث بشكل سري، في اللحظات الثمينة لأنها لحظات مسروقة، في الوقت الذي كان يجب أن ينهبا المتعة فيه. في أحد الأيام ذهب جون ثومبسون لحضور مؤتمر في أوغندا. فجاء الدكتور فان دايك إلى البيت ولأول مرة تحدث إليها عن عمله. طفق يتحدث برصانة، دون تجديف، ويتباهى بعض الشيء بعمله.

الناس لا يدركون المصاعب التي نواجهها في كينيا؛ ففي منطقة مثل بريطانيا التي هي بلاد سهلية نسبياً كما تعلمين، يسهل على المرء أن يحدد، على سبيل المثال، موضع ضغط منخفض يزحف إلى المنطقة. ولكن في كينيا، حيث تكثر المرتفعات، تميل هذه المرتفعات إلى إحداث تغييرات مفاجئة وغير مرتقبة في مواضع الضغط، ولذلك يصعب على المرء أن يتنبأ بالطقس.

- ولكن يجب أن يكون لديكم ما يغطي ذلك.

- آه، نعم. مع أخذ العديد من العوامل بعين الاعتبار فإن الأرصاد الجوية تبقى، في أماكن مثل كينيا أو جنوبي أفريقيا، أمراً أشد إثارة.

ها قد دخلت عالماً جديداً رأت فيه الكثير مما يمت بصلات لدراستها في المدرسة عن مقاييس الأمطار، ومقاييس اتجاهات الريح، وخطوط تساوي الضغط الجوي، ومناطق الضغط الجوي المنخفض، والكتل الهوائية. كانت تعلم بأنه ولد وتعلم في جنوبي أفريقيا وأنه عمل في روديسيا الجنوبية، وأنه في كلا البلدين واجه أموراً لا يفقه عنها شيئاً

نغّصت عليه حياته، ولذلك بدأ بعملية التهرب منها، إذا جاز التعبير. حتى وصل به الأمر إلى غيثيما حيث لم يعد توازنه النفسي إليه إلا من خلال الشراب، كما استنتجت. ولكن هذه المرة كانت هي المرة الأولى التي تحدث فيها عن عمله. وبدأ الحديث تدريجياً ينجرّ إلى حياتهما الشخصية وهكذا بدأت بمحاولة سبر مغامراته مع غيرها من النساء. تباً لكِ، لست زوجك! صاح في وجهها وغادر البيت عند منتصف الليل. مخلفاً إياها وحيدة شقية على الأريكة. «لينصرفْ، لا أريد رؤيته مرة أخرى» حدثت نفسها. ولكنها في اليوم التالي دفعت إليه برسالة تطلب فيها منه العودة إليها على جناح السرعة.

مراراً عديدة كانت تجد نفسها في حمأة التحليل الذاتي الدقيق. كانت تمعن النظر في علاقتها بزوجها. لا يمكنها نكران حق زوجها فيها وانتمائها إليه. ولكن هل هذا هو المعنى الوحيد للحياة الزوجية؟ في أمثال هذه اللحظات، وهي تغوص في مستنقع الشعور بالإثم والكره الذاتي، كانت تشعر بالرأفة عليه. رغبتها الشديدة في الاعتراف والبوح له بمكنونات قلبها، كانت رغبة عارمة. كانت تكره الدكتور دايك. ولكنها كانت كلما زادت كراهيتها له زاد إدراكها لسطوته عليها: كانت بحاجة إلى جسده، إلى الطعنة النجلاء في صميم تيه مظلم لا قرار له، إلى التهتّك في الملذات، إلى الطيش اليائس والافتتان. بدأ الخوف والغيرة مما كان يفعل من خلف ظهرها يفسدان عليها راحتها وطمأنينتها.

بعد ذلك، وفي غفلة من الزمان، تصيّد القطار عشيقها: ولشد ما كانت دهشتها حين لم تشعر بالحزن عليه ولا بأي شعور آخر. وفي الواقع كان أول رد فعل لها يتمثل في تصورها لاستعادة طمأنينتها المسلوبة. ولكن سرعان ما بدأ القلق ينتابها كإنسان فقد شيئاً ما دون أن يعرف ما فقد بالتحديد. فالتفتت لتربية الأزهار (هواية أصبحت موضع إهمالها إبان مغامراتها) بهمة جديدة.

لقد تزاحمت كل الأمور في فكرها وهي تغسل الصحون. وتحول

الحزن إلى تعب من زوجها وتبرمها به. إنهما على شفير التغيير، على ما تصورت، ومع ذلك فإنه صامت لا يتكلم. عيد الاستقلال أوصل حياتهما إلى ذروة الأزمة، وزوجها يتصرف وكأن شيئاً لم يكن. لم تكن تعرف ما تريد منه أن يقوله لها بالتحديد: ولكن على الزوج والزوجة أن يتقاسما على الأقل همومهما حيال أي شيء: ماضيهما، الحفلة التي ستقام في اليوم التالي، عودتهما إلى الوطن بالطائرة يوم الأربعاء.

نعم. سوف تجبره على الكلام، هذه الليلة، صممت على ذلك وكفّت عن تنشيف الصحون. عادت إلى غرفة الجلوس وقد عقدت عزمها على ذلك. كان جون يمعن النظر في أكداس الدفاتر والأوراق التي أمامه، ومن حين إلى آخر يخربش شيئاً ما بيد كان يبدو عليها الارتعاش. انحنت عليه من الخلف وطوقت عنقه بذراعيها ودغدغت بشفتيها شحمة أذنه اليسرى. ولشد ما أذهلها تصرفها هذا لأنها كانت قد أقلعت عنه من سنين عديدة. وفجأة تبدد تصميمها العنيد على إقحام علاقتهما في أزمة مكشوفة.

- عم مساءً.

- عمتِ مساءً.

- حذار أن تتأخر، قالت له وهي في طريقها إلى الحمام ومن ثم إلى المخدع.

أول مرة جاء فيها ثومبسون إلى شرقي أفريقيا كانت خلال الحرب العالمية الثانية حيث أتى كضابط جرى نقله بعد حين إلى كتيبة الرماة الأفريقية الملكية. كان له دور ناشط في حملات مدغشقر عام 1942. وباستثناء ذلك فقد أمضى معظم وقته في كينيا يمارس مختلف واجبات التدريب والدفاع عن الحصون العسكرية. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عاد إلى أوكسفورد لمتابعة دراسته التي قطعتها له الحرب. وهنالك في أوكسفورد، بينما كان يدرس التاريخ، وجد نفسه مهتماً بتطوير الإمبراطورية البريطانية. كان هذا الاهتمام في البداية اهتمام مؤرخ بمعزل عن أي تورط شخصي، ولكنه انجرف بتيار قصائد رديارد

كيبلنغ. شعر بومضة آنية، بلهيب منبعث. نظر إلى نفسه كرجل من رجالات القدر، كرجل تُهَيِّئُهُ الأقدارُ لإنجاز أشياء عظيمة في المستقبل. درس أعمال اللورد لوغارد وحياته. ثمة اجتماع طارئ فيما بعد بطالبين أفريقيين بلور له صبابته إلى قناعة راسخة. لقد تحدث معهما عن الأدب والتاريخ والحرب وكانوا كلهم متحمسين للرسالة البريطانية. الطالبان الأفريقيان، وقد انحدرا من عائلة وجهاء مما كان يدعى في ذلك الوقت بساحل الذهب، ظهر عليهما فهم حقيقي للتاريخ والأدب. لقد أثارا في نفس ثومبسون التعجب والإعجاب. بدأ عقله يشتغل. ها هنا كان أمامه شخصان أفريقيان لا يختلفان عن البريطانيين في الملبس والحديث والكفاءة الفكرية. أين هي إذاً تلك النزعة اللاعقلانية والتناقض الذاتي والمعتقدات الخرافية التي تدمغ العروق الأفريقية والشرقية؟ لقد حل محل هذه النقائص الثلاث تلك المبادئ الأساسية الثلاثة التي تطبع الفكر الغربي: مبدأ العقل، ومبدأ التراصف الاجتماعي، ومبدأ الاعتدال. وبقي أياماً وأسابيع يفكر في هذا بانطباع واحد يراوده من حين إلى آخر: بدا له أن الطالبين الأفريقيين فخوران بتراثهما البريطاني وبالتقاليد البريطانية. وعملت اللهفة عملها في نفس ثومبسون وهو يدرك بأنه على وشك القيام باكتشاف عظيم: ما هي بالتحديد طبيعة ذلك التراث؟ واستيقظ في إحدى الليالي، تياهاً، ورأى قدره يلبس لبوس فكرة من الأفكار.

«كانت البهجة تغمر قلبي» كتب فيما بعد. «وفي طرفة عين توصلت إلى قناعة تفيد بأن توسع الإمبراطورية البريطانية كان وليد فكرة أخلاقية جليلة مؤداها أن: الإمبراطورية البريطانية يجب أن تفضي بكل تأكيد إلى خلق أمة بريطانية تضم شعوباً وقبائل من كل العروق والمعتقدات، ويجب أن تقوم على أساس تلك الفرضية العادلة القائلة بأن البشر كلهم قد خلقوا متساويين».

«سطع بالنسبة لي نور هائل وسط الظلمة الحالكة».

تحويل الإمبراطورية البريطانية إلى أمة واحدة: أفلا يلقي هذا ضوءاً

على أشياء كثيرة: لماذا، على سبيل المثال، تطوعت الألوف المؤلفة من الأفريقيين للموت في الحرب على هتلر؟

ومنذ البداية، وحالما وضع يده على قلم حبر بغية تدوين أفكاره، لاح أمام بصره عنوان المخطوط. لسوف يسميه «بروسبرو في أفريقيا». وفي المخطوط ساق الحجج على أن الفرد، لكي يكون بريطانياً، يعني أساساً اتخاذ موقف فكري: يعني وجهة النظر في الحياة، وفي العلاقات البشرية، وفي التنظيم العادل للمجتمع البشري. أليس من الممكن إعادة تكييف الناس وفق طريقة الحياة هذه من خلال تغيير مناخهم الاجتماعي والحضاري؟ «بروسبرو في أفريقيا» كان عصارة غوص دؤوب في أعماق التاريخ الإنكليزي، وفي «التاريخ العام للاستعمار» منذ زمن الرومان حتى الزمن الحاضر. لقد أعجبته السياسة الفرنسية، سياسة الاستيعاب، ولكنه انتقد الفرنسيين لأنه كان من أنصار ما دعاه «بالمفهوم» المعكوس لدى لوغارد عن الحكم اللامباشر.

«يجب أن نتحاشى الغلطة الفرنسية المتمثلة في استيعاب النخبة المثقفة، فالفلاح في آسيا وأفريقيا يجب أن تأخذ وضعه بعين الاعتبار هذه الخطة، خطة إعادة التأهيل. فنحن في بريطانيا لدينا فلاحنا، ولنا اليوم عاملنا، وهما يحتلان دوراً حيوياً في مجتمعنا».

لقد كانت مارغري هي الإنسان الوحيد الذي كان يكشف له مراراً عن طموحاته. وأول ما شدها إليه كان الحزن والتحفظ الباديان في وجهه. لقد أعجبت بألمعيته. انفعاله الأخلاقي كان يسبغ على الحياة معنى من المعاني. وذات مرة ذهبا في نزهة إلى أحياء لندن. توقفا هنيهة في حديقة القديس جيمز وشخصت أبصارهما إلى كنيسة وست منيستر وإلى مجلس العموم البريطاني وإلى ما كان يقع خلفه. أسندت مارغري رأسها على كتفه وكأنها كانت تتمنى أن يحملها معه إلى تلك البلاد التي تحدث عنها. ففعل ذلك. وبعد بضع سنوات أبحرت السيدة والسيد ثومبسون قاصدين شرقي أفريقيا لكي يصبحا بعدئذ في قلب مسرح الإدارة الاستعمارية.

«إنني مسرور وأنا أطأ بقدمي» كتب لدى وصوله إلى مومباسا «التربة الحمراء لكينيا. لقد كنت هنا خلال الحرب وأعجبني المناخ. وما كان بحسباني أنني سوف أعود إليها بمهمة مغايرة».

كان دائماً يتذكر تلك الكلمات. وحتى في هذا اليوم، عشية رحيله عن شرقي أفريقيا، أعادت له بصيص الإيمان الذي كان متشبعاً به مجرد لمسة من أصابع مارغري. إن إيمانه بالإمبريالية البريطانية قد ساقه مرة إلى التصريح بقوله: «إن إدارة شعب من الشعوب تعني إدارة روح». كان وقتها يتحدث مع مجموعة من الضباط في فندق ستانلي الجديد. وبعد العشاء كتب تلك الكلمات في دفتر مذكراته، لا، لم يكن دفتر مذكرات بل كان فيضاً من الملاحظات التي خربشها في أوقات مختلفة وفي أمكنة متعددة خلال مجرى حياته. وكان ثمة أمل يحدوه في أن يضم بعضها إلى بعض على شكل فلسفة منطقية في مخطوطة «بروسبرو في أفريقيا». ها هي الملاحظات الآن أمام ثومبسون وقد كان يتصفحها ويتمهل عند بعض الفقرات التي كانت تسبب له الذهول.

(نايوي مليئة بالجبال والهضاب والأودية السحيقة المكسوة بالغابات التي لا يمكن النفاذ إليها. هذه الأشجار البدائية أدخلت الرهبة دائماً في العقول البدائية. إن ظلمة وغموض الغابة قادت «الإنسان البدائي» إلى السحر والطقوس).

(ما كنه هذا الشيء المدعو بالماو ماو؟)

(الدكتور ألبيرت شوتيزر يقول: الإنسان الأسود طفل، ومع الأطفال لا يمكن فعل شيء دون اللجوء لاستخدام السلطة. وبما أنني زاولت العمل في نايري وغيثيما وكيسومو وانغونغ، فإنني متفق معه).

(ها قد عدت إلى نايري. الناس ينتقلون إلى القرى كي يقطعوا العروة فيما بينهم وبين الإرهابيين. لقد شعرت، لدى حرق البيوت في القرية القديمة، بأن حياتي تقترب من طريق مسدود).

(الكولونيل روبسون، وهو أعلى مدير منطقة في روني وكيامو، قتل

بشكل وحشي. سوف أستلم منصبه في رونجي. على المرء أن يستخدم العصا. لا يمكن لأية حكومة أن تحتمل الفوضى. لا يمكن بناء حضارة على هذا العنف والتوحش. الماو ماو هو الشيطان: حركة إذا لم تُقمع سوف تعني التدمير الشامل لكل القيم التي قامت عليها حضارتنا).

(كل إنسان أبيض هو في خطر مستديم من التداعي الأخلاقي تدريجياً في هذا الصراع الدائر يومياً ودقيقة فدقيقة مع الأفريقي. الدكتور ألبيرت شوينزر).

(في تعاملك مع الأفريقي تجد نفسك مضطراً دائماً أن تفعل الشيء غير المرتقب. البارحة دخل مكتبي أحد الرجال. أخبرني عن قائد إرهابي مطلوب. منذ البدء كنت مقتنعاً بأن ذاك الرجل يكذب علي؛ بل كان يمثل في الواقع، ربما لكي يتصيدني أو لكي يخفي دوره هو في الحركة. بدا لي وكأنه يسخر مني. ولما كنت أتذكر أن الأفريقي ممثل بالفطرة فإن ذلك هو السبب الذي يجعل الكذب لدى الأفريقي أمراً غاية في البساطة. وفجأة بصقت في وجهه. لا أعرف لماذا ولكنني فعلت ذلك).

عاد ثومبسون إلى واقعه. حدق بالمخطوط دون أن يقول شيئاً. قبل ريرا كانت طريقه نحو القمة واضحة جداً ومفتوحة جداً. والآن وهو في غيثيما شعر بسخف الكلمات التي كان قد دوّنها من قبل، وتعمق هذا السخف من خلال حقيقة واحدة وهي أن زوج الملكة ضيف الشرف في احتفالات عيد الاستقلال. أحلامه، وقد بعثتها مجدداً لمسة زوجته له، ضللته: وما ذاك الذي يمنع أن يبلغ الذروة؟ أن يحتل منصباً رفيعاً كأن يكون وكيل القنصل أو عضواً في مجلس شورى الملكة أو حاكماً عاماً؟ كل هذه المناصب سوف تتلاشى الآن مثل بيته ومكتبه وغيثيما والبلاد برمتها. دع السخفاء البلداء من أمثال الدكتورة لايند يبقون. ولكنهم في خاتمة المطاف سوف يطردون دون مراسم. ذلك هو السبب الذي من أجله استقال ثومبسون، لكي يبتعد قبل عيد الاستقلال. فلماذا يجب أن ينتظر الناس ويعيشوا وصمة عار اقتلاعهم من سررهم ومقاعدهم على

أيدي خدامهم؟ وتذكر الدكتورة لايند وحادثتها، وكذبه على كارانجا. أراد أن يتحدث إلى مارغري، هذه الليلة بالذات لأنها جدّدت إيمانها به. عيناها الفاترتان وصوتها الرخيم سوف تطهره من الهفوة التي نغّصت عليه حياته. يا للهرم الذي بلغناه. بذل جهداً حتى وقف على قدميه. تراقص قلبه أملاً وخوفاً حين دخل الحمام كي يعد نفسه للاعتراف العظيم.

فتح باب المخدع محترساً وخطا إلى داخله. لم يشعل الأنوار لأنه كان يشعر بأن الظلمة سوف تخلق المناخ الصحيح. كان رجلاً ولد لكي يموت باستمرار وينبعث للحياة من جديد. كانت يداه ترتعشان، بشكل طفيف، وشعر بالظلمة تزحف نحوه وهو يسير متلمساً طريقه إلى السرير. بيد أن مارغري كانت قد غطت في نومها منذ حين. اكتشف ثومبسون هذا وشعر بامتنان وارتياح عميقين. غاص في السرير ولكن الكرى لم يزر جفنيه إلا بعد مضي وقت طويل.

الفصل السادس

إن الله لا يعين إلا من يعينون أنفسهم، هكذا يقال ويشار بالبنان إلى الإنسان العصامي الذي أصاب ثروة وجاهاً، مع التغافل عن آلاف الناس الآخرين الذين يكدّون ولكنهم يتضورون جوعاً، يعملون يوماً ويطردون من العمل يوماً، دون أن يفلحوا في تحسين أوضاعهم المادية. هذه القاعدة الأخلاقية المسلّم بها، بدت قاعدة صحيحة بالنسبة إلى غيكونيو. قال الناس في ثاباي: إن المعتقلات قد علمته أن يتحكم بنفسه.

كان غيكونيو من بين أول مجموعة من المعتقلين الذين عادوا إلى القرية بعد أن نجحوا في عبور «سم الخياط». (كانت عبارة سم الخياط هي الاستعارة الرسمية المهذبة لسلسلة المعتقلات التي يجب أن يمر بها المعتقلون كافة). ولما عاد إلى القرية كان أصحابه الوحيدون يتمثلون بمنشار عتيق ومطرقة عتيقة. ومن حسن حظه أنه عاد خلال مواسم آب وأيلول حين يكون المزارعون بأمس الحاجة للنجارين لبناء العنابر والمخازن لحفظ الذرة والفول والبطاطا. لقد كان الناس في ثاباي يعرفونه قبل حالة الطوارئ. فطفق يعمل الآن بجهد أكبر وينجز كل عنبر في وقته المحدد. تكاثرت طلبات العنابر عليه، ولكنه كان إذا أسرع في تنفيذ تعهده كما نص عليه العقد لا يتوقع بالمقابل من الطرف الآخر تلكؤاً في دفع النقود. وهكذا كان يصر على استلام النقود في اليوم والزمن المتفق عليهما. لم يكن يتساهل مع أي تأخير، فعامل الفقراء والأغنياء على قدم المساواة. والفرق الوحيد بينهما هو أنه كان يرضى بتمديد فترة

الدفع لمن يلحفون عليه السؤال لتنفيذ ذلك المطلب. ولكن في الموعد المتفق عليه، سواء كان بعد شهر أو شهرين أو ثلاثة شهور، يجب أن تكون النقود جاهزة. «لقد بدّله الاعتقال تبديلاً»، كان الناس يقولون عنه وهم يتحسرون. ولكنهم كانوا يثقون بأمانته المطلقة ويحترمونها؛ فلقد كان، على الأقل، ينفذ جانبه من الصفقة في الوقت المحدد.

كان غيكونيو يتصرف بالنقود، بدلاً من ابتياع الثياب له أو لأسرته، مثلما يتصرف بها الباعة الهنود، فقد كان يشتري الذرة والفول بأسعار زهيدة خلال المواسم ويعبئها في أكياس ويخزنها في كوخ أمه المسودّ من الدخان. وفي ذلك الكوخ أيضاً كان يعيش وومبي. لقد كان يناقش الأمر على الشكل التالي: لقد عرفتا (زوجته وأمه) العري وتضورنا من الجوع طيلة السنوات الست الأخيرة، ولن يضيرهما الانتظار على تلك الحالة بضعة أشهر أخرى. وحينما كان يخف الإقبال على عمله في التجارة، نتيجة المواسم، كان غيكونيو يمارس مختلف الأعمال الغريبة مغتنماً الفرص السانحة هنا وهناك؛ ففي ثاباي وفي القرى المحيطة برونجي، تأتي معظم العائلات على مخزون طعامها في كانون الثاني، ثم يتلو ذلك الشهر شهران من الجفاف إلى أن تبدأ الأمطار الغزيرة في آذار، وحتى في ذلك الشهر كان يجب على الناس انتظار حصاد المحاصيل. ذلك كان الوقت الذي هجر فيه عمله المأجور كنجار ودخل السوق. كان يذهب إلى السوق مع الفجر ويشتري كيساً أو كيسين من الذرة بسعر الجملة من مورّدي الذرة المرخَّصين، أو من السوق السوداء في وادي ريفت. وعند الضحى كانت تلحق به زوجته وأمه. وكانت ومبي ووانغاري – مثلهما مثل غيرهما من البائعات – تبيعان الذرة بسعر التجزئة بميزان من طاسات القرع. وبالنقود التي كانتا تكسبانها كان غيكونيو يساوم ثانية لشراء كيس آخر لكي تبيعه المرأتان بسعر التجزئة فيما بعد. وكان يعاد استثمار الربح المكتسب في العمل بالسوق، وأحياناً كان غيكونيو يشتري كيساً من الذرة ليبيعه في مكانه مباشرة إلى شخص آخر بسعر أعلى. لم يكن وقحاً مع

الزبائن بل كان يتحدث معهم بقناعة متواضعة ويضع نفسه في خدمتهم. ولما كان على استعداد دائم للاعتذار فإنه كان يصر على الإصغاء المطلق لزبائنه. وبهذه الطريقة كان ينتزع النقود. لقد كان التعامل معه أمراً مستحباً ولا سيما للنساء. «يا للسانه الحلو ويا لأمانته الرفيعة»، هذا ما كنّ يقلنه عنه. وهكذا ذاع صيته في السوق. كان غيكونيو ينتظر فترة طويلة من الزمن إلى أن تصبح الذرة نادرة جداً، وبما أن مخزون الذرة من المزارع الأوروبية كان محكم التصريف، فقد كان يدفع، في الوقت المناسب، إلى السوق بما كان قد اختزنه منها بأسعار عالية.

كانت حياته حياة كفاح. وفي البداية كان يسخر منه الرجال الآخرون لقيامه بعمل من اختصاص النساء. تحتكّ جوانبه بتنانير النساء. ولكن بعد أن تغيرت ثروته بدؤوا يحترمونه حتى إن بعضهم حاول أن يحذو حذوه بدرجات متفاوتة من النجاح.

إن قصة إثراء غيكونيو، على الرغم من أنها كانت على نطاق ضيق، كانت تنطوي على مغزى أخلاقي تتحدث عنه كل أم لبنيها في ثاباي.

«لم تعد ثمة حاجة بزوجته وأمه العجوز لأن تذهبا إلى السوق وتحتك ثيابهما بثياب غيرهما من النساء. هذا هو الواقع لأن الابن لم يكن يخشى اتساخ يديه، ولم يكن يغفو إلى وقت الظهيرة كأي إنسان أوروبي».

صحيح أن غيكونيو كان ينهض باكراً، ولم يكن يسمح لهموم القلب أو لأي شيء آخر أن يلهيه عن قصده العاجل، فمثلاً في صبيحة اليوم التالي لزيارته إلى ميوغو نهض باكراً قبل الديكة وذهب إلى كيريتا التي تقع خلف المرتفعات وابتاع منها الخضراوات التي كان سيرسلها فيما بعد إلى نيروبي. إن تموين نيروبي بالخضراوات (وكان لغيكونيو زبائن عديدون هناك) كان عملاً مجزياً ولاسيما إذا دهنت بزبدة النقود أفواه شرطة المرور وشرطة البلدية الذين كان بمقدورهم دائماً خلق المتاعب أمام رجال الأعمال الأفارقة. وأما بالنسبة للأوروبيين والآسيويين فإن الحكم الذاتي المحلي لم يبدل شيئاً من معاملتهم المتميزة. وبما

أن غيكونيو كان يجهل قيادة السيارة فقد وظف رجلين، سائقاً وجابياً، للإشراف على هذا الجانب من عمله. بيد أن عين غيكونيو كانت ساهرة على كل شيء. حتى إنه حدّد السرعة لمأجوريه، وعند وقت الغداء عقد اجتماعاً مع اللجنة المسؤولة عن تزيين الساحة التي كانت ستجري بها الألعاب الرياضية والرقصات في عيد الاستقلال.

وبعد الظهر كان غيكونيو على موعد مع نائب منطقته وذلك لأنه منذ شهر مضى اتفق مع خمسة رجال آخرين على الاشتراك في شراء مزرعة صغيرة تعود ملكيتها لمستر بورتن. كان مستر بورتن واحداً من أوائل المستوطنين الذين جاؤوا تلبية لرغبة الحكومة البريطانية في الاستيطان بكينيا بعد الانتهاء من مدِّ الخط الحديدي إلى أوغندا، وأما أرض مزرعته تلك فقد حصل عليها مقابل أغنية ليس إلا. ولد أطفاله في كينيا ودرسوا في مدارسها - الذكور في مدرسة أمير ويلز والإناث في مدرسة كينيا الثانوية (أو كما كانوا يطلقون عليها «حظيرة العجول») ومن ثم ذهبوا إلى موطنهم في بريطانيا لاستكمال دراستهم الجامعية، حيث بقي معظمهم هناك إلا صبياً وبنتاً عادا إلى كينيا. اشتغل الصبي لدى واحدة من كبريات شركات البترول في نيروبي. ولما هرم - مستر بورتن - لم يكن يعرف فعلاً موطناً له إلا كينيا وما كان في نيته أن يغادرها مطلقاً (حتى إن لم يذهب في إجازة إلى بريطانيا ولا لأسباب صحية أيضاً) إلى أنه عَلم عِلم اليقين بأن السلطة ستنتقل إلى أيدي السود. إن مستر بورتن ما كان يصدق أبداً - كالعديد من المستوطنين الأوروبيين وعلى الرغم من التلميحات التي صدرت عن قائدهم السير مايكل بلندل - بأن الحكم الإنكليزي كان سيتنازل عن السلطة. وفي تلك الآونة أراد مستر بورتن أن يبيع الأرض التي أحبها والتي وهبها الكثير من حياته وأن يعود إلى موطنه في بريطانيا. كان غيكونيو قد اتصل بمستر بورتن وأجرى معه ترتيبات أولية. وبما أن الرجال الخمسة لم يكن بوسعهم أن يدفعوا أكثر من نصف الثمن (وكان مستر بورتن يريد الثمن عداً ونقداً)، فإن غيكونيو ذهب لزيارة النائب ليرى

فيما إذا كان بمقدوره أن يتوسط لهم، أو أن يستخدم نفوذه خلف الستار، لمنحهم قرضاً حكومياً. أصغى النائب بوقار لمطلبهم ودوّن كل التفاصيل عن المزرعة على قصاصة من الورق، ثم طلب بعد ذلك من غيكونيو أن يعود لمراجعته في هذا اليوم. «هذه هي الروح الجماعية الحقيقية. وإنها مساعدة ذاتية حقيقية» قال لغيكونيو مودعاً وهو يشد على يده بقوة.

كان غيكونيو مفعماً بالأمل حينما انصرف مسرعاً من الاجتماع ليركب الحافلة إلى نيروبي. الحافلة، التي كانت تدعى «بالولد المجتهد» كانت تعود ملكيتها لأحد أولئك الناس في رونجي ممن جمعوا ثرواتهم خلال حرب الاستقلال. أولئك كانوا أناساً يحصلون، من خلال تعاونهم الفعال مع الحكومة الاستعمارية، على إجازات استيراد بل وعلى قروض كي يطوروا بها أعمالهم. وعلى الرغم من أن غيكونيو كان مفعماً بالأمل فقد كان يشعر ببعض الامتعاض لاضطراره تحمل مشاق السفر إلى نيروبي. ليس إلا عدد قليل من النواب كانت تقوم مكاتبهم في دوائرهم الانتخابية. وحالما تم انتخابهم هرعوا إلى نيروبي وقلما ظهروا في مناطقهم إلا حينما كانوا يعودون برفقة القادة الوطنيين الآخرين لإلقاء الخطب في الاجتماعات السياسية الحاشدة. قبل أن يصلوا نيروبي أوقف الحافلة شرطيان أفريقيان. دخل الأول منهما الحافلة وعدّ المسافرين بينما كان الشرطي الثاني يطلب من السائق إجازة السوق. كان في الحافلة راكبان إضافيان. تجادل السائق مع الشرطيين. عندئذٍ عمد الجابي لإخراج الشرطيين من الحافلة ولوّح للسائق بيده كي يتابع مسيره. فهم السائق مغزى الإشارة فقاد الحافلة ياردات قليلة وتوقف. سرعان ما عاد الجابي راكضاً ودخل الحافلة. «ما كانا يريدان إلا شلنات قليلة لدفع ثمن كوبين من الشاي» قال، فضحك الناس في الحافلة. تابع «الولد المجتهد» رحلته إلى المدينة. شارع الاستقلال (وقد كان سابقاً شارع الأميرة إليزابيث) كان مزداناً على جانبيه بصفوف من الرايات الكينية الجديدة من سوداء وخضراء وحمراء بالإضافة إلى رايات بلدان أفريقية أخرى.

لقد نسي غيكونيو مهمته التي جاء من أجلها إلى المدينة لأن قلبه كان يرفرف طرباً مع الرايات. خرج من الحافلة وسار في شارع كينياتا وهو يشعر في تلك اللحظة بأن المدينة ملك له فعلاً. تمثال اللورد ديلامير الذي كان يطغى بكل شموخه على الشارع، حلت محله الآن بركة احتشد من حولها الرجال والنساء الأفارقة - وكان الماء يترشش منها في ساحة فندق ستانلي الجديد - وكانوا كلهم يشيرون إلى زخات الماء الدورانية الصادرة عن النوافير. «إن هذه النوافير وهي تتبارى في لفظ الماء بأعضاء ذكورة الرجال» هكذا سمع غيكونيو إحدى النساء تقول والأخريات من حولها يتضاحكن لقولها هذا. بدت نيروبي لغيكونيو مدينة مستعدة لعيد الاستقلال، فعقد عزمه على أنه لدى عودته إلى ثاباي سيحاول بث الحماس من جديد لتزيين رونجي.

اجتاز الطريق الحكومية إلى شارع فيكتوريا، وسرعان ما بدأ ذهنه التجاري يعمل مرة ثانية. وأخذ يتساءل، كما كان يفعل دائماً أثناء اجتيازه لهذين الشارعين، لماذا لا يوجد حانوت أفريقي واحد في كل الساحة الرئيسة في نيروبي وهي أكثر الساحات حيوية. في الواقع لم تكن نيروبي، على نقيض كامبالا، مدينة أفريقية قط (كما قال كاريوكي على الأقل)، لقد كان الهنود والأوربيون يسيطرون على الحياة التجارية والاجتماعية في المدينة. وما كان الإنسان الأفريقي يأتي إليها إلا لتكنيس الشوارع وقيادة الحافلات والتسوق ومن ثم العودة إلى منزله الواقع على تخوم المدينة قبل حلول الظلام.

كان حشد من الناس ينتظر خارج مكتب النائب لأنه كان غائباً عنه.

ولكن الناس كانوا قد اعتادوا منه على الوعود والمواعيد الكاذبة. لقد كانوا في بعض الأحيان يروحون ويجيئون أياماً وأياماً دون أن يتمكنوا من مقابلة ممثلهم.

- «إن مقابلته تنطوي على صعوبة تماثل صعوبة مقابلة الآلهة»، تذمرت إحدى النساء.

- لماذا – ماذا تريدين أن تطلبي منه؟

- ابني يريد منحة دراسية إلى أمريكا. وأنت ماذا تريدين منه؟

- «إنها مشكلة بيتية، إذ يوم السبت الفائت جاؤوا واعتقلوا بعلي لأنه لم يدفع الضرائب. ولكن أنى له أن يدفع رسم الاقتراع وهو عاطل عن العمل؟ لقد اضطر ولدانا لترك المدرسة بسبب انعدام النقود لدينا».

لقد جاء بعض الناس بصدد مشكلات تتعلق بالأرض، وآخرون لأخذ مشورته في مشكلات زواجهم، وجاء آخرون على شكل وفد يطلب من النائب أن يساند مطلبهم بمدرسة ثانوية في نجدهم.

«ليس ثمة مكان يذهب إليه أبناؤنا بعد انتهائهم من المدرسة الابتدائية» كان يقول أحد الكهول.

بعد ساعة أو ما يقاربها وصل النائب. كان يرتدي بزة سوداء ويحمل حقيبة جلدية. كان يدخن الغليون. حيّا جميع الناس كما يحيي الأب أبناءه أو المدير تلامذته. دخل المكتب دون اعتذار عن تأخره. دخل الناس عليه واحداً واحداً.

قلب غيكونيو كان يخفق بالأمل: ليتهم يستطيعون الحصول على القرض، ولاح في الأفق طيف مستقبل جديد ينفتح أمامه. سوف يديرون المزرعة على أساس تعاوني ويهجنون الأبقار لتحسين نسلها ويزرعون البابونج والشاي والذرة، وكل شيء. وفي المستقبل قد تتوسع هذه التعاونية وتضم إليها أناساً آخرين. وبعد انتظار طويل جاء دوره. وبدا كأن الدهشة تعقل لسان النائب لدى رؤيته غيكونيو.

«اجلس، اجلس يا سيد غيكونيو» قال متكرماً عليه بكرسي أشار إليه بيده اليسرى في الوقت الذي كانت فيه يده اليمنى تسند الغليون في فمه. أخرج ملفاً من الدرج وفتحه، واستغرق فيه عدة دقائق فعلاً. انتظر غيكونيو مترقباً. رفع النائب وجهه عن الملف واتكأ على كرسيه. نزع الغليون من فمه.

«والآن بشأن تلك القروض، لا يخلو الحصول عليها من صعوبات، ولكنني ما زلت أبذل كل ما بوسعي. وربما تتوفر لدي في غضون أيام قلائل أنباء سارة لكم».

«متى أستطيع العودة إليك؟» سأله غيكونيو وهو يعجز عن إخفاء خيبة أمله.

«آه! – لنرى. هذا اليوم هو يوم...» وقلّب أوراق مفكرته ثم نظر إلى غيكونيو.

«لنترك الأمر على الشكل التالي: ما رأيك لو جئت أنا لزيارتك، أو على الأقل لو كتبت إليك حينما أتوصل إلى نتيجة؟ إن لك حانوتاً في رونجي أليس كذلك؟»

– نعم.

– ذلك سوف يجنّبك الكثير من المشقة. هل نترك الأمر كما قلنا؟

– «حسناً» قال غيكونيو حينما وقف يتأهب للذهاب. عند الباب التفت غيكونيو إليه.

– هل تعتقد أن بالإمكان الحصول على ذلك القرض، أو أن علينا أن نفتش عن وسيلة أخرى لتأمين النقود؟

اعتقد غيكونيو بأنه قد اكتشف علائم الذعر على وجه الرجل الآخر

– «آه، لا، لا» قال النائب وهب واقفاً. مشى بخطوات رصينة إلى المكان الذي كان يقف فيه غيكونيو. «ليس ثمة إشكال فعلي في موضوع القرض. القروض موجودة هناك. إن الأمر لا يعدو مجرد السؤال عن السبل... لا عليك اترك الأمر لي. هل الأمر هكذا على ما يرام؟».

«حسناً» قال غيكونيو وقد عقد عزمه على مقابلة مستر بورتن في اليوم التالي. إذا قبل مستر بورتن نصف النقود فسيكون بإمكانهم تسليمه البقية بالتأكيد حال تسلّمهم القرض أو أنهم سوف يتدبرون أمرها بطريقة أو بأخرى. وما اجتاز غيكونيو ياردات قليلة إلا وسمع الناس خلفه

يصفّرون. أدار رأسه ورأى الناس يشيرون إليه. لقد أراد منه النائب العودة إليه. وهكذا ارتقى درجات السلم للمرة الثانية ودخل المكتب.

بشأن احتفالات عيد الاستقلال في رونجي، أرجوك أن تشكر نيابة عني فرع الحزب هناك والكبار لتوجيههم الدعوة لي للمشاركة ولكن في ذلك اليوم نفسه دعي كل النواب للقيام بمهام مختلفة هنا. لذلك أرجوك أن تعتذر لهم عني وبلغهم بأنني لا أستطيع الحضور.

- «عاش الاستقلال».

- «عاش الاستقلال».

بعد مضي يومين كان ميوغو موضع حديث الناس كافة في النجود الثمانية التي تحيط بثاباي: لقد رووا بدرجات متفاوتة من التهويل كيف أنه نظّم الإضراب عن الطعام في ريرا، حد دفع (نتّا بروكووي) لتوجيه الاستفسارات في مجلس العموم البريطاني. عاداته التي لا نظير لها وسلوكه الغريب، خلعا عليه نعت الإنسان المصطفى.

ولنتذكر أيضاً أن سنوات اعتقاله ومعاناته قد عززتا بنيته القوية. كان إنساناً طويل القامة ذا عينين واسعتين سوداوين. وكانت الخطوط على وجهه مستقيمة، محددة تحديداً واضحاً وكأنها قد حُزّزت بحجر - إنه أحد أولئك الناس الذين توحي نظراتهم بالأمل والثقة.

ولكن لم يساوره، لا يوم الأحد ولا الإثنين، أيُّ هاجسٍ من أنَّ تأليهَه على نطاق واسع كان في طريقه إليه. بل إن الاقتراح المفاجئ من الحزب قد أفقده توازنه فعلاً. استيقظ صباحاً وثمة أمل يحدوه بأن يكون حدث الليلة لسابقة مجرد حلم آخر، بيد أن مرأى المقاعد التي اقتعدها المندوبون مدّد له أضغاث أحلامه تلك، كما أن الكلمات التي قيلت وقعت في فكره موقع الكابوس. لماذا يريدونه أن يترأس احتفالات عيد الاستقلال؟ لماذا لا يكون غيكونيو أو واروي أو أي واحد من الذين قاتلوا في الغابة؟ فلماذا ميوغو؟ لماذا؟ لماذا؟

فكر في الذهاب إلى المزرعة، لا، لم يكن بوسعه ممارسة أي عمل علاوة على أنه لم يكن يرغب بالمسير عبر القرية. لم يكن يريد مقابلة واروي أو وامبوي أو غيثوا أو المرأة العجوز. السير إلى رونجي سيكون أفضل. كان يوماً قائظاً آخر، حرقت له الرمضاء قدميه العاريتين، تجمع الغبار فوق أصابع قدميه والتصق بالعرق المتصّبب منهما. ألهب القيظ في فكره مهجوس الأمر الذي كان يتخبط فيه. نعم... إنهم يريدون مني... أنا... أن ألقي خطاباً... أقرظ فيه كيهيكا... و... كل الأمور... يا إلهي... ما ألقيت خطاباً في حياتي قط... آه، نعم... ألقيت ذات مرة خطاباً... هم قالوا ذلك... قالوا بأنه كان خطاباً بليغاً... يا للبراعة... قهٍ، قهٍ، قهٍ... تلوت عليهم الأكاذيب تلو الأكاذيب... لقد صدقوها... أي إنسان غيري، لماذا أنا... أنا... أنا... يريدون أن يتصيدوني... غيكونيو... صهر كيهيكا... الجنرال ر... الملازم الأول كويناندو... آه نعم... خطاب... إطلاق كلمات.

لم يلق ميوغو خطاباً حقيقياً إلا مرة واحدة في حياته. حدث ذلك في اجتماع عقد بعيداً عن حوانيت كابوي قرب ثاباي، عقد الحزب الاجتماع لكي يقدم المعتقلين العائدين إلى الجمهور. وافق ميوغو على الحضور آنذاك لأنه كان يعتقد أن بإمكانه ممارسة حياته العادية في القرية: فلماذا يوجه الأنظار إليه برفضه الحضور؟ حضر الاجتماع أناس كثيرون من ثاباي لأن السلطة كانت قد سمحت لنا، كما تتذكرون، بعقد الاجتماعات السياسية. وثمة أناس آخرون جاؤوا وهم يأملون أن يتسلّوا بسماع قصص الهرب والأفعال البطولية الأخرى. كان الموقف في كينيا وقتها على الشكل التالي: انتهت حالة الطوارئ رسمياً (منذ سنة تقريباً) بيد أن جومو كينياتا ورفاقه الوطنيين الخمسة – أبطال محاكمة كابن غوريا – كانوا لا يزالون رهن الاعتقال في السجن. وعلاوة على ذلك فإن الجراح العديدة التي عانى منها شعبنا كانت لا تزال جراحاً طرية ولا تستطيع العين أن تنظر إليها ولا أن تلمسها اليد.

كانت قيادات الحزب في المنطقة هم أوائل الخطباء. قالوا بأن الواجب يقضي بإطلاق سراح جومو كينياتا حتى يقود كينيا إلى الاستقلال. لم يكن الناس يقبلون أن يصبح غيره رئيساً للوزراء. طلبوا من كل إنسان أن يقترع لمرشحي الحزب في الانتخابات القادمة: إن التصويت للمرشح يعني التصويت لكينياتا. وفي الواقع دعي للاجتماع لتقديم أولئك الرجال الذين أتاحت تضحياتهم وإخلاصهم للبلاد إمكانية إجراء هذه الانتخابات.

واستلم دفة البلاغة المعتقلون الذين وقفوا لإلقاء كلماتهم، فتحدثوا عن العذاب الذي تعرضوا له في ظل الإنسان الأبيض، ودللوا على ذلك برواية أحداث كشفت عن عميق حبهم لكينيا. كان الناس يقاطعون كل خطيب بهتافهم: «كينيا موطن الناس السود». لقد كانت زبدة هذه الكلمات تتمثل في قول أحد المعتقلين: «أين هو ذلك الشيء الذي ينطوي على حب أكبر من حب الإنسان لوطنه، إن الحب الذي أكنه لكينيا هو ما أبقاني على قيد الحياة وأمدني بأسباب القوة لتحمل أي شيء. ولذلك فإن القول بأن كينيا موطن الناس السود لهو قول صحيح».

وعندما بلغت مجريات الأمور هذا المستوى، قام بضعة معتقلين من الذين علموا بحادثة ميوغو ودفعوا به إلى الأمام. لقد كان من بينهم (أنيامو) - الذي تم انتخابه فيما بعد أميناً للفرع المحلي للحزب - والذي كان موجوداً في (ريرا) في ذلك الأسبوع الذي ضُرب فيه الأحد عشر معتقلاً حتى الموت. وقف ميوغو أمام الجمهور. صوته الفاتر الأجش أدخل الرعب إلى قلبه. تكلم برتابة مملة، متعباً وكأنه يتحدث عن مشاهد ما كان يريد أن يتذكرها.

«أخذونا كلنا إلى العمل في الطرقات وفي مقالع الأحجار حتى أولئك الذين لم يفعلوا أي شيء. نعتونا بالمجرمين. ولكن ليس لأننا كنا قد سرقنا أي شيء أو قتلنا أي إنسان. نحن لم نطالب إلا بالشيء الذي كان لنا منذ بدء الخليقة. لقد أجبرونا على الحفر ليلاً نهاراً. وقعنا فريسة المرض ولطالما نمنا وأمعاؤنا خاوية وثيابنا ممزقة وأسمالنا بالية حتى إن

المطر والريح والشمس عرفت كلها عرينا. في تلك الأيام، لم نبق على قيد الحياة لأننا كنا نعتقد بأن قضيتنا عادلة، وليس لأننا كنا نحب بلادنا؛ لو كان الأمر مجرد ذلك لما كان عاد حيٌّ منا...».

«لم نكن نفكر إلا في بيوتنا».

«لقد تقنا لذلك اليوم الذي نستطيع فيه رؤية نسائنا يتضاحكن أو حتى أن نرى أطفالنا يتعاركون ويتصايحون. عندما كنا نعتقد بأننا في يوم من الأيام سنعود إلى بيوتنا لنرى وجوه أمهاتنا وزوجاتنا وأطفالنا ونسمع أصواتهم أصبحنا أقوياء. نعم. لقد أصبحنا أقوياء حتى في تلك الأيام التي بدت فيها القضية التي أهرقت الدماء من أجلها - بدت...».

في البداية كان ميوغو يجد المتعة بتلك المسافة التي أقامها بينه وبين صوته. ولكن الصوت سرعان ما أثار في نفسه الاشمئزاز. لقد أراد أن يصيح بأعلى صوته: ليست القصة هكذا أبداً، لم أكن أريد العودة، لم يكابدني الشوق للقاء أمي أو زوجتي أو طفلي لأنه لم يكن لي شيء من هذا القبيل. قولوا لي إذاً من هو الإنسان الذي كان بمقدوري أن أتوجه بحبي إليه؟ توقف في منتصف الجملة ونزل عن المنصة وسار باتجاه كوخه.

بعد الاجتماع وجد ميوغو ملاذه في قلة الكلام. تابع الناس أعمالهم اليومية لإعادة بناء ما كان قد انهدم. جاءت الانتخابات. اقترع الناس للحزب ورفعوه إلى السلطة وتابعوا كدّهم. ظن ميوغو بأن ثاباي قد نسيته. ولكن الخرافات انتعشت على أساس أقل خصباً. لقد قال الناس في الاجتماع بأن الرجل كان في غاية الانفعال مما منعه عن متابعة خطابه. وفي كل مرة كان واروي يعلق على هذا الاجتماع لم يكن ينسى أن يضيف قائلاً: «تلك الكلمات لا يمكن أن تصدر عن قلب عادي».

غذّ ميوغو الخطى في مسيره وكأنه عازم على الوصول إلى مبتغاه باكراً. إن كل ماضيه سوف يتبدى أمام ذهنه فجأة على شكل ومضة حين يشق البرق الظلمة إلى نصفين. إن كل حياته ستكون مكثفة بتلك الومضة. ثم سوف يحاول أن يعزل الحوادث بعضها عن بعض كي يقفز فوق تلك

الحوادث التي كانت تنغص عليه عيشته. تذكر ذلك اللقاء - ثم ارتد ذهنه إلى اجتماع الليلة الماضية. «إنه سينصف فقراء الناس وسيسعف أطفال المحتاجين. ولسوف يمزق الظالم إرباً». هزته هذه الكلمات هزّاً وتراقص لهب في سريرته مرة ثانية. فوقف متسمراً، بعدئذ وعلى نحو مفاجئ جداً داهمته أفكار أخرى وأطفأت ذلك اللهب. لو لم يكونوا قد شكّوا في أمره فهل كان الجنرال ر توجه إليه بتلك الأسئلة المربكة؟ لقاء مع إنسان ما بعد أسبوع؟ كاراتجا؟ نعم، هل كان بمقدورهم فعلاً أن يطلبوا منه نحت مكانته في المجتمع من خلال إطلاقه المدائح على الإنسان الذي خانه بكل خسّة؟

هذه المخاوف والآمال والشكوك كلها كانت تنيخ على كاهل ميوغو حينما فاجأه غيكونيو مساءً بقوله: «من هنا؟» عند الباب ودخل الكوخ. وقفا هنيهة وقد ارتبك كل منهما بحضور الآخر.

- «تفضل بالجلوس» وقدم له ميوغو كرسياً قرب الموقد.

- «إنني واثق بأنك لم تتوقع حضوري» قال غيكونيو مرتبكاً بعد أن اقتعد الكرسي.

- «لا عليك. أتصور بأنك جئت كي تسمع قراري».

- «لا - ليس ذلك ما جاء بي إليك هذه الليلة». روى على مسامع ميوغو تفاصيل زيارته لنيروبي ولقائه بذلك النائب.

ميوغو الذي كان جالساً على السرير قبالة غيكونيو صمت كي يسمع بقية القصة. النار التي كانت تشتعل في الموقد الذي تحيط به ثلاث أثاف، كانت تتوهج بينها.

«ولكن ليس ذلك الأمر هو ما ساقني إليك. بل إنها الهموم. هموم القلب». قال غيكونيو مبتسماً وهو يحاول تصنّع اللامبالاة. «لقد جئت إليك في الواقع كي أوجه إليك سؤالاً واحداً» وأنهى حديثه بصمت مفاجئ.

هبط قلب ميوغو ما بين الخوف والفضول.

«أتعلم أننا ذات مرة كنا معاً في معتقل واحد؟» غيكونيو متلمساً دربه إلى أي حديث.

«أصحيح هذا؟ لا أتذكر». وعلى الرغم من أن روعه قد هدأ قليلاً فإن هاجس الشك بقي ينهشه. «كان هنالك جمع غفير من الناس» أضاف مسرعاً.

«كنا في معتقل موهيا وعرفنا بأنك سوف تنقل إليه. وكنا طبعاً قد سمعنا عنك بشأن الإضراب عن الطعام في ريرا. لم تخبرنا السلطات بذلك لأن الأمر كان من المفروض أن يبقى طي الكتمان» ولكن وبشكل نابض بالحياة عادت الذكريات إلى ميوغو عن ريرا وعن ثومبسون الذي كان يجلده. وأما بصدد موهيا فما كان ليتذكر إلا الأسلاك الشائكة والمنطقة السهلية الجرداء. ولكن معظم المعتقلات كانت في تلك الآونة تقوم في أمثال هذه المناطق.

- لماذا تحدثني عن كل هذه الأمور؟ لا أريد أن أتذكر.

- أبوسعك نسيان ذلك نسياناً تاماً؟

- أحاول ذلك. تقول الحكومة بأن علينا أن نطمر الماضي.

- أما أنا فلا أستطيع أن أنسى... ولن أنسى، صاح غيكونيو.

- هل عانيت الكثير؟ سأله ميوغو وقد أخذته الرأفة؟

لا. لم أعان الكثير. أعني... هل تعلم بأنني ما تعرضت للجلد قط، ولا مرة واحدة، أيدهشك ذلك؟

- أعرف أن بعض الناس ما تعرضوا للجلد قط.

- أكنت منهم؟

- نعم. مرات عديدة.

- لقد كنت شجاعاً برفضك الاعتراف. كانت شجاعتك موضع إعجابنا، وأما نحن فقد جلّلنا هاماتنا بالعار.

- لم يكن لدي ما أعترف به.

- وأما نحن فقد اعترفنا. كان بإمكاني أن أفعل أي شيء كي أعود إلى بيتي.

- كانت لك زوجة. وأم.
- نعم. أنت تدرك مغزى ذلك.
- لا، إنني لا أدرك إنني لا أدرك أي شيء. صاح ميوغو بأعلى صوته.
- لماذا تحدثت بذلك الأسلوب إذاً؟
- متى؟

- في ذلك الاجتماع، أتذكر؟ لقد تحدث العديد منا بذلك الأسلوب لأننا أردنا خداع أنفسنا. إن ذلك يخفف بعض الشيء من عارك. لقد تحدثنا عن الإخلاص للحركة وعن حبنا لبلادنا. لقد مرّ علي وقت لم أعر فيه استقلال بلادي أي اهتمام. بل جل ما كنت أبتغيه كان العودة إلى البيت. وكنت على أتم استعداد لبيع كينيا إلى الإنسان الأبيض مقابل حريتي الشخصية. إنني أكن الإعجاب لأناس من أمثال كيهيكا. إنهم غاية في الصمود حتى الموت في سبيل الحقيقة. وأما أنا فينقصني مثل ذلك الصمود. وذلك هو السبب الذي من أجله كنا فخورين بك في المعتقل، ولكننا استأنا منك وأبغضناك - كلنا كنا على هذه الشاكلة. إن الناس الذين من أمثالك، من الذين رفضوا خيانة رجولتهم، ضربوا لنا مثلاً عما يجب أن نكون عليه - ولكننا كنا بحاجة إلى عظام حقيقية داخل أجسادنا. لقد كنا جبناء.

- لم يكن ذلك جبناً منكم. لو كنت مكانكم لفعلت ربما مثلكم.
- ولماذا لم تفعل مثلنا؟

- تريد أن تعرف، أليس كذلك؟ قال ميوغو وقد نسي نفسه، ثم تلاشى الإغراء بعيداً.

«لم يكن لي بيت أعود إليه» قال بهدوء دونما انفعال. «أعتقد أنني لم أكن أريد العودة».

- «لا، ليس الأمر كما تقول». قال غيكونيو بعاصفة من الإعجاب الأصيل. «إن لك قلباً عظيماً. وكان يجب أن يكون الناس من أمثالك هم أول من يقطف ثمار الاستقلال. ولكن الآن، من هم أولئك الذين يركبون السيارات الفارهة ويستبدلونها يومياً كأنهم يستبدلون الثياب؟ إنهم من

أولئك الناس الذين لم يكن لهم أي دور في الحركة، وهم أنفسهم من طينة الذين تسابقوا للاحتماء بالمدارس والجامعات والإدارات. ولكنك تسمعهم في الاجتماعات السياسية يصيحون: الاستقلال الذي حاربنا من أجله. فأين حاربوا؟ إنهم مجرد صبيان بطرين. لم يعرفوا المعاناة إلا بالكلام. كان يجب عليهم أن يسمعوا خطابك ذلك اليوم. كلهم دون استثناء. حين كنت تتكلم كنت أشعر بأنك تقرأ أفكاري».

«أكان الانتظار صعباً عليك؟» سأله ميوغو بذهن شارد وكأنما كان يريد تغيير موضوع الحديث. لم يكن غيكونيو بحاجة إلا لتشجيع قليل.

«نعم. لأنني كنت أظن بأنني لن أعود أبداً. وبالنسبة لخبرتي بمشاق الاعتقال، كنت واثقاً بأنني إذا تمكنت من الخروج منه فإنني كنت سأقوم بشيء عظيم في حياتي مع مومبي».

كان غيكونيو يتحدث عن عالم يتيسّر فيه الحب والبهجة لأصحابه، فلماذا يتذمر الآن إذاً، تساءل ميوغو. إن لديه كل ما يحتاجه الإنسان كي يكون سعيداً: الثروة والجاه وأواصر توليه الاهتمام.

- إنك تحب زوجتك، علّق ميوغو.

- لقد كنت أحبها. قال غيكونيو مؤكداً كل كلمة على نحو بطيء. كان الصمت يخيم على الكوخ. وكانت النار لا تزال تتوهج بينهما، ونور السراج يتراقص على الجدران.

- «لقد كانت زوجتي تعني بالنسبة لي حياتي. حياتي كلها»، أوضح غيكونيو محملقاً في الموقد. «أتعلم» أكمل حديثه بتلك اللهجة الهادئة نفسها، «أتعلم أنني حين عدت في خاتمة المطاف، كان كل شيء قد تغير لحسن طالعي: المزارع والقرى والناس...».

- وهل تغيرت مومبي أيضاً؟

- «نعم. لقد تغيرت هي أيضاً» قال غيكونيو بصوت خافت جداً يشبه الهمس. «أين هي يا إلهي الآن من مومبي التي خلفتها ورائي؟!»

الفصل السّابعُ

كان نجد رونجي، كما هي حاله اليوم، ينحدر برفق من سفح عال من ناحية الغرب حتى يصل إلى سهل صغير قام فيه المركز التجاري لرونجي. وكان هذا المركز عبارة عن مجموعة من الأبنية المسقوفة بالصفيح تتقابل على شكل صفين مستقيمين. وأما الفراغ الذي بينهما فقد كان بمثابة سوق تحتشد فيه النساء من النجود المخلفة لبيع وشراء الأطعمة وتبادل النميمة. وحين اكتشف التجار الهنود هذه السوق بدؤوا يزورونها دائماً بغية مساومة النساء حول الأسعار وقذفهن بكلمة بذيئة أو كلمتين تجعلهن يغرقن في الضحك، ومن ثم يشترون الخضار والمؤن الأخرى ويشحنونها إلى نيروبي لبيعها لسكان المدينة بأسعار باهظة جداً. ولكن ثمة هنود آخرون استوطنوا في هذه المنطقة الهندية. إن مسيرة بضع دقائق من الحوانيت الأفريقية توصلك إلى المنطقة الهندية حيث كانت الأبنية فيها تتخذ شكل صفين مستقيمين أيضاً، غير أنها مصنوعة من صفائح الحديد المفتول. وكان هؤلاء الهنود يبتاعون أيضاً البطاطا والبازلاء والفول والذرة من سوق رونجي أثناء الموسم، كانوا يخزّنونها في الأقسام الخلفية من حوانيتهم لكي يبيعوها في الأيام العصيبة فيما بعد.

كانت الحوانيت الأفريقية تتمتع بمزية مثلى تتجلى بجدرانها الحجرية أو الترابية على الرغم من سقوفها الصفيحية الصدئة. لقد زعم الناس بأن رونجي كانت أول مركز قامت فيه أمثال هذه الأبنية في كل منطقة الغيكويو. ولكن كان لرونجي مزايا أخرى أيضاً مما جعل الحية الحديدية تنسلّ أول ما تنسل على هذا السهل قبل أن تتسلق الجرف في طريقها إلى كيسومو

وكامبالا. وبقيت ثاباي لزمن طويل موضع حسد غيرها من النجود التي لم يسعفها الحظ بنعمة الخط الحديدي. وحتى الناس الذين من نجود تتاخم أرض الماساي، كانوا يقومون بزيارتها من حين لآخر كي يتفرجوا فقط على القطار وهو ينفث الدخان ويلفظه أثناء مسيرته الصاخبة. كانت ثاباي فخورة برونجي، وكان الناس يشعرون بأن هذا المركز يعود للنجد برمته، وحتى سكة الحديد والقطار كانا على ارتباط سري بثاباي - أفلم يكونوا هم أول من رحبّوا بالسكة الحديدية والقطار في قلب البلاد؟ وحيال تلك القصة التي بقيت رائجة إلى هذا اليوم في النجود الأخرى والتي روت كيف أن الرجال والنساء والأطفال هجروا ثاباي لمدة أسبوع كامل حينما أطلّت الحية الحديدية برأسها على الأرض - كما تنبأ بها أحد المتنبئين من قبيلة الغيكويو - ظلوا صامتين صمتاً مطبقاً. لقد هربوا إلى النجود المجاورة طلباً للمأوى، كما تحكي القصة، وما بدؤوا يرجعون فرادى إليها - وذلك تم بمنتهى الاحتراس - إلا بعد أن عاد الجواسيس المغامرون المزودون بالحراب يحملون الأنباء عن الحية بأنها وديعة جداً حتى إن الغرباء الحمر أنفسهم يلمسونها.

وفيما بعد أصبح رصيف المحطة ملتقى الشباب؛ فصاروا يجتمعون في بيوتهم للحديث ويذهبون مشاوير إلى الريف، حتى إن بعضهم صار يؤم الكنيسة، بيد أن الشغل الشاغل لهم كان دائماً قطار يوم الأحد. فبعد ظهر الأحد كان يلتقي في محطة رونجي قطار المسافرين إلى كامبالا بقطار مومباسا. ولم يكن الناس يذهبون إلى هناك - كما يمكن أن يُظن - لاستقبال الأصدقاء القادمين من مومباسا أو كويومو أو كامبالا، بل كانوا يذهبون إلى هنالك لكي يقابل واحدهم الآخر ولكي يحادثه ولكي ينمّوا معاً ولكي يتضاحكوا.

لطالما نشأت العلاقات الغرامية هناك، وعدة زيجات بما رافقها من أفراح أو أتراح كانت لها أصولها على ذلك الرصيف.

- هل أنت ذاهب اليوم إلى القطار؟

- آه، نعم.

- إياك أن تتركني خلفك أيها الصديق!

- إذاً يجب أن تكوني على أتم استعداد في الموعد المحدد، إن مجرد ارتدائك لملابسك يستغرق منك اليوم بطوله.

- إن ادّعائك هذا كذب واضح وضوح الشمس في رابعة النهار. كانت الفتيات يذهبن إلى النهر يوم السبت لغسل ثيابهن، وكن يخصصن صباح الأحد لكيّ الثياب وتسريح شعورهن، وعند وقت الغداء يصبحن في أتم استعدادٍ للسير أو للهرولة إلى المحطة. بينما لم يكن للرجال أمثال هذه الطقوس؛ إذ كانوا دائماً على أهبة الاستعداد لأن معظمهم كان يقضي وقته في حوانيت رونجي التي لا تبعد عن المحطة أكثر من مسافة قصيرة.

لقد أصبح القطار هاجساً: إذا فاتتك الفرصة فإن الغم يتشبث بتلابيب قلبك طيلة الأسبوع، وتصبح في غاية الشوق لقدوم القطار التالي، ثم يأتي الأحد وتمضي إلى هناك في الموعد المحدد، وسرعان ما يتبدّد الغم.

كان الناس يذهبون بعد زيارة المحطة لممارسة الرقص في غابة كيني التي تطل على وادي ريفت. وكان عازفو الغيتار يحتلون مرتبة الصدارة في هذه التجمعات إذ كانت تحيط بهم الفتيات الجميلات للتعبير بلحاظهن عن ثنائهن. وكان الرجال يطلبون الرقصات المأجورة. وحين يشتري الفرد رقصة ما، كان عازف الغيتار يعزف له وحده مثنياً على اسمه مادحاً إياه بأنفس من أشرف الناس. وكان الرجل يرقص وفق الإيقاع الموسيقي إما وحيداً وإما بصحبة أصدقائه الذين يدعوهم لمشاركته فيما يبقى الآخرون مجرد متفرجين ولا يجوز لواحد منهم دخول حلبة الرقص. وأما التقاليد التي كانت تتحكم بتلك الرقصات في الغابة فقد كانت مفهومة تماماً.

وأحياناً كانت تنتهي هذه الرقصات إلى مشاجرات. وهذا أيضاً أمر معروف جيداً ولذلك كان يأتي الرجال إليها وهم على أهبة الاستعداد لأي طارئ، كما إنهم كانوا يستدرجون الشر من خلال بعض الكلمات البذيئة أو الأغاني المهينة. وكان الرجال ينظمون أنفسهم ويتكتلون على شكل جماعات طبقاً

للنجود التي جاؤوا منها. وكانت ثاباي أكثر شهرة من غيرها لأن رجالها كانوا يتغلبون على المجموعات الأخرى ويسلبونهم صويحباتهم. وكانت الفتيات يحببن رجال ثاباي ولذلك لم يكن سبيهن ينطوي على مغامرة حقيقية.

ولكن الأمور على الرصيف كانت مختلفة؛ فهناك لم يكن يخطر على بال إنسان إثارة عراك ما. وكان الرجل الذي يضربك في أحد سابق ويسلب منك خليلتك سرعان ما يصبح صاحباً لك، وإذ بكما تتحادثان وتتضاحكان معاً. ولكنه يدرك بأن الفرصة إذا واتتك فيما بعد في الغابة فقد تطعنه وتسلبه خليلته.

«قلما تغيبتُ عن قطار» تذكر الآن غيكونيو - بعد مضي سنوات - بعد أن أضحى ذلك ضرباً من أساطير الأولين... «كنت أحب صحبة الرجال والنساء».

«ومع ذلك فإن ذلك اليوم الذي تغيبت فيه عن القطار كان أبهج يوم في حياتي» قال لميوغو.

ثم اشتغل غيكونيو نجاراً في ثاباي. وعلى الرغم من أنه كان وافداً على هذا النجد فإنه ذاب وأمه في ذلك المجتمع وأعرافه اليومية. لقد جاء إلى ثاباي طفلاً مقمّطاً على ظهر أمه، من منطقة ألبورغن في مقاطعة وادي ريفت حيث كان يعمل أبوه، واروهيو، مربياً للأغنام في المزارع الأوروبية. وبما أن واروهيو كان رجلاً مجتهداً فإنه وجد نفسه بعد مضيّ فترة قصيرة موضع إعجاب عدة نساء، فحصل على عرائس جديدة شاكياً من أن فخذي الزوجة الأولى لم يعودا يوفران له الدفء. ولذلك فقد أخذ يضربها آملاً أن يبعدها الضرب عنه ولكن وانغري تشبثت بالبقاء. بالنتيجة أمَرها واروهيو بمغادرة بيته وابتلى الأم وابنها بحياة التشرد الدائم في أرض الله الواسعة. ولكن تشرد وانغري لم يدم طويلاً لأنها لاقت الترحيب بقدومها إلى أرض الغيكويو. «يتصور واروهيو بأنني أموت لأنني فقيرة وليس بحوزتي ما أقتات به» حدثت نفسها في أحد الأيام وهي جالسة فوق حجر بالقرب من محطة ألبورغن. «ولكن ليس من بيت يضم طفلاً ذكراً إلا يأكل رأس تيس من التيوس في

المستقبل» قالت وضمت الطفل إلى صدرها. وحين استقلت القطار الذي نقلها إلى ثاباي كانت في الواقع تقذف بتحدٍّ ضمني في وجه واروهيو.

أرسلت وانغري ابنها إلى المدرسة، ولكن غيكونيو لم يمكث هناك طويلاً لأن الأم لم يكن بحوزتها ما يكفي من النقود لدفع الأقساط المدرسية. ولكنه لحسن حظه تعلم في المدرسة شيئاً من النجارة جعله يعقد عزمه على استغلال هذه المعرفة لكسب معيشته منها.

لقد كان يعشق النجارة.

حينما كان يمسك بالمسحج بغية صقل قطعة من الخشب كان هذا العمل يُدخل في روع ذلك الشاب رعشة من الخوف والدهشة. كانت رائحة الخشب تسحره. وسرعان ما تمكنت حواسه من القدرة على التمييز الدقيق بين أنواع الأخشاب حتى صار يحدد نوع الخشب من مجرد شمّه. وهذا لا يعني أن النجار الشاب كان يستهين بمهنته أمام الآخرين، بل كان يقوم في الواقع بممارسة بعض الطقوس التمثيلية التي كانت تؤثر تأثيرات مختلفة على أصحاب العلاقة. كانت التمثيلية تجري على النحو التالي:

حينما كانت تأتيه امرأة بقطعة من الخشب لمعرفة نوعها كان النجار يأخذها منها ويلقي عليها نظرة خاطفة ثم يطوّح بها فوق كومة من الأخشاب متصنّعاً اللامبالاة. ثم يتابع عمله السابق بينما تقف تلك المرأة هناك معجبة بحركات عضلاته. وبعد لحظة من الزمن يتناول قطعة الخشب تلك ويثبت طرفها الآخر على الطاولة. يغمض عينه اليسرى ويحملق إلى قطعة الخشب بعينه اليمنى وهي شبه مغمضة. وبعدئذ يغمض عينه اليمنى ويعيد حركاته السابقة بعينه اليسرى، وحالما ينتهي من هذا يقرع عليها بضربات سريعة إيقاعية بعقدة سبابته وكأنه يطرد منها الأرواح الخبيثة. ويتناول المطرقة بعد ذلك فيضرب ويصغي مرات عديدة. ثم يتشمّم الخشب بكل عناية (أي على نحو مهني) ويعيدها إلى المرأة ليتابع عمله الآخر.

«ما نوع هذا الخشب؟ هل هو خشب البودو؟» تتجاسر المرأة وتغامر بسؤاله وقد سحرتها الشَمشَمات والتوقفات المهنيّة.

«بودو؟» يقول تمتمةً «هاتها». يتشمَّمُها مرة ثانية ويقلّب قطعة الخشب رويداً رويداً وهو يهز رأسه هزّ من عرف نوع الخشب. ويقضي بعدئذ عدة دقائق يشرح فيها للمرأة لماذا ليست هذه القطعة من خشب البودو.

«إنها من خشب الكافور. هل صادف وسمعت به في حياتك؟ إنه ينمو بشكل رئيس على الأراضي المرتفعة في آبرديرز وحول جبل كينيا، إنه خشب في غاية الجودة. وإلا فلماذا اختص الناس البيض أنفسهم بتلك الأراضي؟» يقول النجار بحكمة رزينة. مكتبة ياسمين

كان مشغل غيكونيو لا يعدو طاولة صغيرة مثبتة إلى جدار كوخه. وكان من عادة وانغري أن تأتي دائماً حوالي مغيب الشمس إلى المشغل لتنقب بين نشارة الخشب عن قطعة أو قطعتين من الأخشاب التي أهملها النجار لإشعالها في الموقد.

- «أبحاجة أنتَ لهذه القطعة؟» تسأل ابنها باسمة.

- «آه، خلي تلك يا أماه. ليس بوسعك رؤية قطعة من الخشب إلا وتريدين إحراقها. إنها ذات قيمة نقدية طبعاً. ولكن أنّى للنساء إدراك مثل هذا الأمر».

- «وما رأيك بهذه؟» لم تكن وانغري من ذلك الصنف من النساء اللواتي يتراجعن بسهولة. كانت تحب أن تسمع دائماً ابنها يوجه عتابه لها.

- حسناً خذيها. ولكن حذار أن تعودي.

وتعود مساء اليوم التالي إلى هناك، فتلتقط منشاراً أو مطرقة وتمعن النظر فيها وكأنها شيء عجيب. وعندها لن يكون بوسع غيكونيو إلا القهقهة.

- أتصور أن بإمكانك أن تصبحي نجاراً ماهراً يا أماه.

مهما قلنا عنهم فإن هؤلاء الناس قوم أذكياء فعلاً؛ إذ كيف فكروا بابتكار مثل هذه الآلات التي يمكن أن تقطع أي شيء؟ كانت وانغري تشير دائماً إلى الناس البيض بعبارة هؤلاء الناس.

- اذهبي واطبخي. ليست هذه الأشياء من اختصاص النساء.

- أتحتاج هذه القطعة التي هنا؟

- أف منك يا أماه!

كان يطمح غيكونيو سراً إلى امتلاك قطعة من الأرض ليوطن أمه فيها. ولكن بلوغ ذلك الهدف يتطلب النقود. وكان طموحه لإحراز الثروة يزداد كلما شاهد بومبي أو فكر بها. تلك الفتاة التي كان صوتها ووجهها يثيران في قلبه الخفقان المسعور. ولكنه كان يعتقد بأن قلبه يخفق عبثاً. وبالتأكيد لم تكن مومبي، وهي من أجمل فتيات النجد، لتتنازل أبداً وتجلب له قرعة مليئة بالماء القَراح وتقول له: أرجوك أن تشرب هذا كرمى لي. ومع ذلك صبر وأخذ يتلمس طريقه حذراً. كان يشاهد مومبي تخطر على دروب المنطقة بين أزهار البازلاء وحبات الفول الأخضر وشجيرات الذرة، فبدأ يشجع نفسه كي يفصح لها عن رغبته. ولكن الشجاعة كانت تخونه فما أن يصادفها حتى يلقي عليها التحية ويمضي في طريقه مخذولاً.

مبوغوا، والد مومبي، كان شيخاً مشهوراً في النجد. كان منزله يتألف من ثلاثة أكواخ وعنبرين لخزن محاصيل الموسم. وكان حول المنزل دغلٌ هو عبارة عن كتلة كثيفة من النباتات المتعرشة والعليق وأشجار الزعرور والقراص ونباتات شائكة أخرى، يشكل سياجاً طبيعياً. كانت ثاباي القديمة في الواقع عبارة عن مجموعة من الأكواخ المسقوفة بالقش والمتناثرة هنا وهناك على النجد. وأما الأسيجة المحيطة بالأكواخ فما كان يتناولها التشذيب إلا لماماً، وبذلك أصبحت موطناً للحيوانات المفترسة لإقامة أوجارها فيها. لقد بلغ مبوغوا مكانته في القرية من خلال منجزاته كمحارب وكمزارع، إن مجرد ذكر اسمه، هكذا يقال، كان يبث الذعر في أوساط قبائل الخصوم. وكانت تلك الأيام هي الأيام التي مرت على البلاد قبل أن يضع الإنسان الأبيض حداً للمنازعات القبلية. ولكن صيته بقي ذائعاً حتى بعد أيام السلم. كلمته، في المنازعات الواردة إلى مجلس الكهول لتسويتها، كان لها وزنها دائماً. زوجته الوحيدة، وانجيكو. كانت دائماً تخلع عليه لقب المحارب الشاب. كانت امرأة رقيقة الجسم على نقبض محاربها الغليظ الفخذ. كان صوتها مشحوناً دائماً بالدفء واللطف. وكان صوتها هذا (وقد كانت تغني في حفلات الرقص أيام ريعان شبابها) أول شيء سحر مبوغوا. ومن بين ابنيهما

الاثنين - كيهيكا وكاريوكي - كانت وانغري تحب كاريوكي لأنه الأصغر بينهما ولأنه آخر ذكر ولدته. بينما كان مبوغوا سراً معجباً بكيهيكا باعتباره الابن الذي قد يسير على خطوات أبيه شجاعة، وصلفاً محكم التدبير.

كاريوكي كان أيضاً معجباً بكيهيكا ويكنّ له الاحترام. كان هذا الصبي يتوق لقدوم ذلك اليوم الذي يرتقي فيه مرتبة الرجال ويصبح حراً كي يتسنى له لمس النهود النافرة لأولئك الفتيات الناضجات اللواتي كن يأتين لزيارة بيتهم ليلاً. التحق كاريوكي بالمدرسة في مانغوا وهي من أقدم المدارس المستقلة في منطقة الغيكويو. كان يحب الكتب ولذلك فقد كان في الأمسيات يقرأ بمساعدة النور المنبعث من نار الحطب. ولكن أنّى له أن يستوعب ما يقرأ في الوقت الذي كان يتسلى فيه الشباب والشابات من أتراب أخيه ويروون النكات والحكايا البذيئة؟ كان من المفْروض فيه ألا يسمع أو يرى شيئاً. «إنك سوف تطرد من هذا البيت أنت يا كيهي» كان يهدده الرجال حين يضبطونه ضاحكاً. وغالباً ما كان غيكونيو يجلب له الحلوى وأشياء أخرى مما دفع الصبي لمحبة النجار. وكان من عادة غيكونيو أن يروي القصص المضحكة التي كان يستمتع بها كاريوكي بشكل حقيقي. ولكن على مر الشهور والسنين أصبح يزداد صمت غيكونيو أثناء حضور مومبي ويمسك عن الكلام نهائياً. لقد كان كارانجا في الواقع هو الإنسان الذي يحتل مركز الصدارة ويلقي بالنساء في نوبات من الضحك البذيء. وكانت لكارانجا طريقة في سرد الروايات والحكايا تجعله يبرز كبطل حتى لو أحجم عن الكلام. ولذلك أصبح كاريوكي يعجب به لشجاعته وحنكته وتعدد مواهبه.

لقد كانت البيوت التي تقطنها الفتيات الجميلات، من مثل بيت مومبي، موئلاً لعدد كبير من الشباب والشابات. وكان على وانجيكو أن تحضر وجبات الطعام باستمرار وبانتظام. إن البيت الذي يعج بالأطفال لا يعيش الوحدة بتاتاً. كانت تقول دائماً. وكانت بعد وصول الرجال تختلق لنفسها الأعذار وتنسلّ من الكوخ بكل تكتم قائلة لمومبي: «قدمي لهم الطعام».

وغالباً في أيام الآحاد كانت مومبي تزور رصيف المحطة. وكان القطار

الصاخب يهزها طرباً حتى إنها كانت تتمنى لو أنها القطار نفسه في بعض الأحيان. ولكنها لم تكن تشارك البقية رقصات الغابة، بل تعود مباشرة إلى البيت، بعد مشاهدة القطار، بصحبة بنت أو بنتين لمزاولة الطبخ ونفش الشعر وإعادة تسريحه. كانت تَرِيْنُ على عينيها السوداوين نظرة حالمة تتوق لشيء ما كان بمقدور القرية توفيره لها. وكانت تستلقي تحت أشعة الشمس وهي تَـتَّقِدُ صَبابةً لحياة تزخر بالعشق والبطولة والمعاناة والشهادة. كانت في ميعة الصبا، وكانت مشحونة بقصص تتحدى فيها نساء الغيكويو رعب الغابة لإنقاذ الناس، وبقصص عن الفتيات الجميلات اللواتي يقدمن قرابين للآلهة في صلوات الاستسقاء. وغالباً ما كانت ترى نفسها مثل (إستر) في كتاب «العهد القديم»؛ ولذلك فقد كانت تجد متعة عارمة في تلك اللحظة التي تجيب فيها (إستر) أخيراً على سؤال الملك أهازيورا وتشير على نحو مفاجئ بإصبع الاتهام إلى هامان وهي تقول: الخصم والعدو هو هامان الشرير.

كانت تستمتع بذلك الإعجاب الذي تستثيره في عيون الرجال. وكانت حين تضحك تميل برأسها إلى الخلف ويتلألأ جيدها تحت الضوء المنبعث من النار. في مثل هذا الوقت لم يكن غيكونيو يثق بنفسه ويتجاسر على الحديث. لقد قيل بأن ريتشارد، ابن القس جاكسون، قد تقدم لخطبة مومبي. كان جاكسون رئيس الأساقفة في كيهينجو. وسرت إشاعة تقول بأن ريتشارد الذي كان وقتها في السنة الأخيرة في مدرسة سيريانا الثانوية، سيذهب فيما بعد إلى أوغندا أو إلى إنكلترا لاستكمال تحصيله العلمي. ولكن مومبي رفضت العرض دون الإساءة إلى كبريائه، ولذلك بقيا صديقين حميمين. وغالباً ما كان ريتشارد ينسل من بيته ليلاً ويذهب لرؤية مومبي في ثاباي. ولذلك فقط كان غيكونيو يسأل نفسه: إذا كانت قد رفضت مثل هذا الرجل فأي حظ لي أنا بالنجاح؟

فأغرق نفسه في العمل. كان يصنع الكراسي لأهالي ثاباي ويصلح لهم خزائنهم ويثبت لأكواخهم الأبواب والنوافذ الجديدة. ثمة امرأة جلبت له

كرسياً مكسوراً، كانت تريد تثبيت قائمة جديدة له، فأمعن النظر بالكرسي وهو يصفر لحناً شعبياً.

- «ثلاث شلنات» قال لها.

- ماذا «ثلاث شلنات» يا ولدي؟

- لا يمكننا إصلاحها بلا مقابل كما تعلمين.

- إنني بعمر أمك يا بني. يكفيك شلن واحد.

- «لك ما تريدين» قال لها وهو يعلم بأنها قد لا تدفع له حتى الشلن الواحد.

وتمضي المرأة وهي تعلم بأنه سيصلح الكرسي في النهاية (وقد يستغرق ذلك منه شهرين أو ثلاثة) وأن من المحتمل ألا تدفع له أكثر من نصف الأجرة المتفق عليها. وحتى لو دفعت له فسيكون المبلغ تقسيطاً على عدة شهور.

- «على هذا المنوال سأموت فقيراً» كان يقول لأمه شاكياً.

- «لا أهمية لذلك» كانت وانغري تقول لابنها، «أنت تعلم بأنهم يدفعون لك لو توفرت لهم النقود».

وفي أحد الأيام وقد أخذ منه التعب كلّ مأخذ، أخرج غيتاره وبدأ يعزف عليه. لقد قضى الصباح والعصر يشتغل في أثاث لعروسين جديدين. لقد وعده الرجل بأن يدفع له في نهاية الشهر. كان غيكونيو يحب الغيتار. كان غيتاراً عتيقاً ومع ذلك فقد دفع ثمنه مبلغاً كبيراً من المال لتاجر هندي.

طفق يعزف بهدوء وهو يغني بينه وبين نفسه محاولاً عزف لحن جديد. وسرعان ما استغرق في غنائه وعزفه وبدأ التعب يتلاشى من عضلاته. كانت الشمس على وشك المغيب وكانت الظلال المتطاولة للأشجار والبيوت قد بدأت تختلط بعضها ببعض رويداً رويداً.

سمع خشخشة النشارة فأجفل غيكونيو وشعر ببعض التحرّج والإثارة لدى رؤية مومبي: كانت تطوي صوفها وصنارتها تحت إبطها.

- «لماذا توقفت؟» قالت له باسمة.

- «آه، ما كنت أريد لك سماع صوتي، صوت النجار، ومشاهدة يديّ تعبثان فساداً في الأوتار والأغنية».

- أهذا هو السبب الذي كان يمنعك من النطق حين كنت تزور بيتنا؟ والتمع في عينيها بريق ماكر.

- أما كنت ُنطق؟

- أنت الذي يجب أن يعرف... وعلى كل حال فقد أمضيت بعض الوقت واقفة هناك أستمع إلى غنائك وعزفك. كان أداءً جيداً.

- صوتي أم يديّ؟

- كلاهما.

- وكيف تعرفين إن كان عزفي جيداً أو رديئاً؟ إنك لا تأتين بتاتاً إلى الرقص يوم الأحد.

- آه صحيح أنني لا أذهب قط، ولكن هل تعتقد بأن كل الرجال بأنانيتك؟ فكارانجا كثيراً ما يعزف لي حين أكون وحيدة في البيت. أجلس أنا أحوك الصوف وهو يعزف، إنه عازف ماهر.

- «فعلاً إنه عازف ماهر»، وافق غيكونيو باقتضاب، لم تلاحظ مومبي أن غيكونيو كان يبلع شيئاً ما في حلقومه لأن مزاجها في تلك اللحظة كان قد تغير من الهزل إلى الجد.

- «لكنك عزفت عزفاً ماهراً أيضاً - وما كنت أعلم أن بمقدورك العزف بهذه المهارة - لقد كان عزفاً مثيراً، ربما لأنك كنت تعزف لنفسك» قالت بصراحة أدخلت البهجة على نفس غيكونيو.

- ربما يتسنى لي ذات مرة أن أعزف لك.

- «اعزف الآن، أرجو أن تعزف لي»، قالت بلهفة. فاعتبر غيكونو ذلك منها تحدياً وخشي أن تخونه عزيمته.

- «إذاً يجب عليك أن تغني أثناء عزفي. إن لك صوتاً رخيماً» قال وتناول آلة العزف.

ولكنه اكتشف أن أصابعه ترتعش. فداعب الأوتار قليلاً محاولاً تثبيت

نفسه. انتظرت مومبي إلى أن يعزف لها اللحن. وحين عادت الثقة إلى نفس غيكونيو شعر بأن ثاباي كلها قد أصبحت طوع بنانه. أحس بقشعريرة تسري في ظهره حيال صوت مومبي. توفّزت أصابعه وقلبه حتى الأوج. وهكذا بدأ عزفه يتلمس طريقه ببطء وثقة في الظلمة باتجاه مومبي. فعزف وابتهل وهو يدرك أن قلبه هو الذي يمدّ أصابعه بأسباب القوة. شعر بالسرور بل بالغبطة.

كان صوت مومبي يفيض جوىً وهي تترنم به وفق إيقاع الأوتار، وشعرت بأن المشغل وثاباي والأرض والسماء قد أحست بالتحامهما معاً. وفجأة بدأ قلبها بالوجيب، لقد كانت الآن تعوم فوق أمواج غريبة: وحيدة تتحدى الرياح والأمطار، وحيدة تكابد الجوع والعطش في صحراء، وحيدة تصارع الشياطين الغريبة في الغابة كي تزف البشرى إلى شعبها.

انتهت الأغنية وشعر غيكونيو بأنه يكاد يتحسّس هدوء الشفق العميق.

- لماذا تبدو المنطقة على هذه السكينة والطمأنينة، قالت.

- إنها دائماً هكذا قبيل حلول الظلام.

- أتدري بأنني شعرت وكأنني (روث) وهي تجمع السنابل لنفسها في الحقل.

- أعتقد بأنك ستدخلين الجنة. أنت دائماً تستشهدين بالإنجيل.

- «لا تسخر» تابعت حديثها بلهجة جادة. «هل تعتقد بأنها ستبقى دائماً هكذا. أعني الأرض؟»

- «لا أعلم يا مومبي». أجابها وقد استرد منها الوقار. «ألم تسمعي الأغنية الجديدة»؟

- أية أغنية. هاتها.

- «أنت تعرفينها أيضاً. أعتقد بأن كيهيكا كان أول من جلبها إلى هنا».

وافتر ثغر مومبي عن ابتسامة عذبة انتهكت بها الوقار.

- ما خطبك؟

- آه منك أيها النجار، أيها النجار. إذاً أنت تعلم سبب مجيئي إلى هنا؟

- لا، لا أعلم. أجابها مرتبكاً.

- ولكنك ها أنت تغني لي، وها هم الغيكوبو يقولون لنا بأن الحرق في المقبض.

وحين وصل الحديث إلى هذه الزاوية برزت وانغري على المسرح عائدة من النهر الذي ذهبت إليه لجلب الماء. فطفح وجهها بالبشر لرؤية مومبي.

- ليتك ولدت بنتاً بدلاً من هذا الابن الكسول، «مازحتها» مومبي.

- «يا لسوء حظي» أجابتها وانغري ضاحكة. «ولكن ليس لذلك أهمية لأن متطلبات المرأة العجوز قليلة جداً. لقد بلغ الكسل بهذا الرجل أي مبلغاً حتى إنه يضنّ بالماء لغسل نفسه أو ثيابه».

- إنك تجورين عليّ يا أماه، ولن تلبث أحاديثك أن تنفّر كل الفتيات مني.

- أتريدين كوباً من الشاي؟

- «لا عليك» عاجلتها بالإجابة مومبي. «عليّ أن أكون في البيت قبل حلول الظلام»؟

والتفتت إلى سلة صغيرة كانت تحملها وأخرجت منها ساطوراً كبيراً.

- «إن هذا الساطور بحاجة لمقبض خشبي لأن مقبضه القديم احترق خطأ بالنار، وتريد أمي الإسراع في إنجازه لأنه الساطور الوحيد الذي بحوزتها».

تناول غيكونيو الساطور منها وأمعن النظر فيه.

- كم تريد أجراً عنه؟ سألته مومبي.

- لا يحزننّك ذلك. إنه لا يكلف شيئاً يذكر.

- ولكنك لا تعمل مجاناً.

- «بيد أنني لست عطاراً هندياً» رد عليها غاضباً.

دخل المشغل كارانجا وكيهيكا وغيتوغو ومعهم رجل رابع. لقد كان مشغل غيكونيو يتحول إلى مكان آخر حين كان الشباب يجتمعون فيه بقصد النميمة. فنادى كارانجا وانغري:

- يا أم الرجال، ها قد جئنا، حضّري لنا الشاي.

- «رويدكم» وصلهم صوت وانغري من الكوخ. «إن الماء على النار».

مومبي التي كانت تتحدث مع غيتوغو بواسطة إشارات اليدين قالت بأنها

ماضية إلى البيت. فاحتج عليها الرجال بشكل جماعي. ولكنها أصرت على الانصراف.

- «لا ضير عليك في ذلك. سأخرج معك لتوديعك» عرض عليها كارانجا بكل شهامة.

- «هيا بنا أيها المخلص» قالت مومبي بصوت رخيم، وسرعان ما اختفى كارانجا ومومبي في الظلام الدامس.

- «هيا ندخل الكوخ» قال غيكونيو للآخرين بصوت واهن إلى حد غريب. كان يحسد كارانجا على عدم تحرجه وعلى ثقته بنفسه في حضرة النساء. وإن مجرد فكرة عزف كارانجا الغيتار لمومبي بدأت تهجس في ذهنه وتضايقه إلى حد بغيض.

حين عاد كارانجا لاحظ الآخرون هدوءه وشرود ذهنه.

«ما بك أيها الرجل» تلذذ الرجل الجالس بجانبه بإزعاجه «أوقعت صريع تلك الفتاة؟»، فضحك الجميع باستثناء غيكونيو. حتى كارانجا نفسه ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

باكراً في صبيحة اليوم التالي بدأ غيكونيو عمله في المقبض. شحنات من الانفعال سرت في أوصاله وجعلت قلبه يرقص طرباً بعد أن وقع اختياره على قطعة خشبية لصنع المقبض منها. كان مجرد لمس الخشب يحثه دائماً لخلق شيء جديد. ولكنه شعر الآن وكأن حياته كلها تتوقف على تكريس نفسه نهائياً للنجاح في إنجاز العمل الحالي. كانت يداه ثابتتين. فدفع المسحج (الذي كان قد اشتراه مؤخراً) على السطح الخشن مقشراً بذلك موجات وموجات من النشارة. لقد تراءت له مشية مومبي، وإيماءاتها بالذات، في ملمس المسحج وحركته، وصوتها كان حوله في الهواء وهو ينحني ليرسم الساطور على القطعة الخشبية. لهاثها كان يمده بأسباب القوة.

والآن استثمر تلك القوة على قطعة خشب البودو. فنحت بالإزميل وجرف به الزوائد لكي يصنع من الباقي قطعتين متماثلتين بشكل دقيق. لقد

بذل جهوداً خاصة لحفر الثقوب. وكانت فتائل الخشب تتسلل على طول الحفر الدائرية وتطرح نفسها على الطاولة بعيداً عن حدّ المثقاب. وأخيراً أصبحت الثقوب جاهزة. وكانت الخطوة التالية تتمثل بقطع ثلاثة مسامير لتثبيت القطعتين الخشبيتين إلى الساطور. وحين طرّق الرؤوس الرفيعة للمسامير على شكل قبعات، غمرته موجة أخرى من العزيمة. قوة جديدة حلت بيمينه فضرب بالمطرقة وأنزلها إلى تحت، رفعها إلى فوق وأنزلها إلى تحت من جديد. شعر بأنه أصبح حراً، وشعر بأن ثاباي والعالم بأسره وكل شيء قد أصبح طوع بنانه. وعلى حين غرة تحولت موجة القوة إلى نشوة... إلى جذل. ووجدت السكينة سبيلاً إلى نفسه. وشعر بطمأنينة قدسية: إنه يعشق الدنيا بما فيها.

خطر له أن يأخذ الساطور في صبيحة يوم الأحد. حان الوقت وبدأت الهواجس تعمل نهشاً في سكينة نفسه. ها قد بدأ يجد عيوباً في المقبض: لقد قصّر الصقل والثوابت عن الصورة التي راودت ذهنه عنهما. بدا المقبض عادياً جداً ومن ذلك النوع الذي يستطيع أي نجار أن يصنع مثله. وماذا بشأن الخشب أيضاً؟ إنه سوف يقرّح يدي أية امرأة بعد استعمالها له بدقائق معدودة. تحول مزاجه من ثم إلى التحدي. ما أهمية رضى مومبي عن المقبض أو عدمه؟ وإذا لم تتقبل أعطيته الخرقاء هذه فلتقم هي نفسها بعمل النجار، أو فلتطلب من كارانجا مساعدتها في إنجاز ذلك. ولكن، على أية حال، قد لا تكون في البيت. نعم. لقد كان يفضل ألا يجدها هناك. ولكنه حالما وصل إلى الممر الضيق الذي يفضي إلى ساحة الكوخ من خلال السياج، بدأ يساوره القلق من أن تكون خارج البيت. إن عمله برمته لن يكون كاملاً بمعزل عن مشاركتها هي.

وجدها تقتعد كرسياً ذا أربع قوائم خارج كوخ أمها. لبس غيكونيو لبوس اللامبالاة.

- «هل والدتك داخل الكوخ؟» سألها كيفما اتفق، يداه متلهفتان لعرض الساطور على مومبي.

- «وما شأنك بأمي؟ ألا تدري بأن لها زوجاً؟» عيناها كانتا تبتسمان إليه. ولكن غيكونيو لم يبتسم لها بالمقابل، وبصعوبة حافظ على قدر أكبر من الرصانة.

- «اجلس» قالت ووقفت لتقدم له مقعدها. ثم لمحت الساطور فاندفعت إلى الأمام وأخذته من يديه. وقفت لحظة هناك تبدي إعجابها بالمقبض، وفجأة نفرت باتجاه الكوخ صائحة: «أماه، يا أماه! تعالي وتفرجي».

دفء عذب فاض في سريرة غيكونيو. أوجعته البهجة. لقد أنجز عمله. وكرمى لابتسامة مومبي، كرمى لنظرة إعجاب منها، فلسوف يستمر بصنع الكراسي والطاولات والخزائن، ولسوف يرمم السقوف الواكفة والبيوت المتداعية، ولسوف يصلح الأبواب والنوافذ في كل ثاباي دون أجرة سنت واحد. إنه لن يهتم بجمع النقود، ولسوف يبقى فقيراً ولكنه سينال مومبي.

كان لا يزال واقفاً، أسير نشوة بالغة بقراراته السرية حينما خرجت مومبي بكرسي آخر ودعته ثانية للجلوس.

- «إنني في عجلة من أمري» احتج دون قناعة حقيقية.

- أذاهب أنت إلى عرس؟

- «لا. لن أذهب إلى عرس إلا عرسك» قال ضاحكاً، ولكنه كفّ عن الضحك حين تذكر كارانجا وجلس دون إضافة كلمة أخرى.

- «ولِمَ العجلة؟ إننا لن نأكلك» قالت وهي تجاهد لشحن صوتها بمسحة من الغضب مما أدخل البهجة على قلب غيكونيو.

راقب مومبي وهي تصفف شعرها: ألا ليته يستطيع لمسه. ولمجرد ورود هذه الفكرة على ذهنه سرى الدم إلى رؤوس أصابعه. كانت تسند مرآة صغيرة بين ركبتيها، وتلتقي يداها المثنيتان فوق رأسها لتعقص أصابعهما شعرها. ومن حين إلى حين كانت ترمقه بنظرة خاطفة وتبتسم. فاستوعب غيكونيو هذا كله بابتهاج كبير.

وفجأة ظهر على المسرح كيهيكا وكرانجا. لكم أبغض غيكونيو حضورهما لأنهما سيفسدان عليه احتكاره لاهتمامات مومبي: فلماذا ظهرا

وفي تلك اللحظة بالذات؟ ومذعناً إلى ما ليس منه بدّ شارك في الحديث الذي أفضى بشكل لا مفر منه إلى السياسة والعاصفة المرتقبة في البلاد.

لقد بدأ اهتمام كيهيكا بالسياسة منذ نعومة أظفاره حين كان يقعي كصبي صغير يستمع إلى الروايات التي تتحدث عن كيفية سلب الناس السود أرضهم. كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية، أي، قبل خضوع الأفريقيين للتجنيد الإجباري وإلزامهم بالحرب إلى جانب بريطانيا ضد هتلر في حرب لم تكن لهم بها ناقة ولا جمل. كان واروي وقتها يبحث عن أي مستمع له ليعيد على مسامعه أفعال واياكي وغيره من المحاربين الذين، بحلول عام 1900، قُتلوا في صراعهم مع الإنسان الأبيض لطرده من البلاد. كما كان يتحدث عن هاري الشاب وعن المصير الذي آلت إليه مسيرة عام 1923، وعن موثيريغو ومدارس التبشير التي حظرت الختان لكي يتمنى لها أن تأكل - كالجراد - جذور مجتمع الغيكويو وفروعه: وبدأ قلب كيهيكا - وقد كان حينئذ إنساناً مجهولاً لدى أولئك الناس الذين حوله - يقسم على «هؤلاء الناس»، وقبل زمن طويل من رؤيته لوجه أبيض. عاد الجنود من الحرب وتحدثوا عما شاهدوه في بورما ومصر وفلسطين والهند. ألم يكن ذلك القديس، المهاتما غاندي، يقود الشعب الهندي ضد الحكم البريطاني؟ كان كيهيكا ينهل من منهل هذه الحكايات؛ وأما رواية البقية فقد كانت من نصيب خياله ومشاهداته اليومية. منذ أن شب كيهيكا عن الطوق بدأت تراوده أحلام عن نفسه، قديساً يقود شعب الغيكويو إلى الحرية والمنعة.

أرسل كيهيكا أول ما أرسل إلى مدرسة ماهيغا، مدرسة الكنيسة الاسكتلندية التي لا تبعد كثيراً عن ثاباي، وذلك بناء على نصيحة الأب المحترم جاكسون كيغوندو. كان جاكسون، كما كان يدعى تحبباً، أحد أصدقاء مبوغوا، وكان يحب زيارة الناس في بيوتهم لكي يدس كلمة أو كلمتين - على هامش أحاديث العشيّات - حول المسيح. كان كلما جاء إلى ثاباي يقوم بزيارة مبوغوا ويتلو عليه المواعظ عن المعتقدات المسيحية. «إن انغاي، إله الغيكويو، هو نفسه الإله الواحد الذي أرسل المسيح، الابن،

للمجيء وبدء المسيرة من الظلمة إلى النور». كان جاكسون يسوق الحجج في محاولة منه أن يبيّن أن المعتقدات المسيحية لها جذورها في التقاليد نفسها التي يجلّها الغيكويو. كان مبوغوا يصغي بانتباه ليقوم بعد ذلك إلى إحدى زوايا كوخه ويخرج وعاءً من اليقطين مليئاً بالبيرة ويقدمه إلى جاكسون.

«والآن بعد اختتام حديثنا» كان يقول، «ليس علينا إلا الغوص في ماء البشر الأقدمين كي نشفي به غليلنا».

كان جاكسون يضحك من هذا الإغراء ويخرج مصمماً على العودة ثانية والمثابرة على ممارسة لعبة الكلمات والتصرفات التي لا نهاية لها. كان صغيراً ونحيلاً، أعجف الوجه بعينين غائرتين تطل منهما سنوات من الحكمة. كان يلبس دائماً قبّة القس ويعتمر قبعته التي كانت تغطي رأسه الأصلع اللامع. جاكسون كان كهلاً محترماً في أوساط الكهول (محفل غير رسمي، تقليدي في أصله وطابعه، لبحث وفض المنازعات بين سكان القرية) للمشاركة في المسائل الهامة التي تؤثر على النجود.

«والآن سيقرأ المحترم في كتابه ويدلي لنا برأيه في هذا الأمر» كان يقول أحد الكهول. كل هذا دام عدة سنين قبل أن تصل حركة البعث إلى كينيا وتسري في النجود سريان النار في الهشيم. كانت الحركة تتألف من أولئك المسيحيين - بغض النظر عن هذا النعت - الذين رأوا النور، والذين من خلال اعترافهم علناً بآثامهم أصبحوا هم الأفراد الناجين. ويقال بأن من بدأ هذه الحركة الإنجيلية (وبقاياها ما يزالون يعيشون في القرى حتى يومنا هذا) كان مبشراً أبيض في رواندا وبعدئذ سرعان ما انتشرت إلى أوغندا وكينيا. وبعد أشهر قليلة على إعلان حالة الطوارئ اعتنق جاكسون هذه الحركة فجأة. وقف أمام المصلين في ماهيغا، وارتعش كرجل به مس وخبط على صدره قائلاً: لقد دعوت نفسي مسيحياً. لقد وضعت ياقة بيضاء حول عنقي وظننت بأن هذا سوف ينقذني من اللهيب القادم في المستقبل. باطل الأباطيل، قال الواعظ، باطل الأباطيل. كل شيء كان باطلاً لأن قلبي كان

طافحاً بالغضب والخيلاء والحسد والسرقة ونيّات الزنا، كما كانت صحبتي مع الزناة والسكارى. لقد سرت في الظلمة وخضت مستنقع الآثام. فما رأيت المسيح. وما أبصرت النور. وبعدئذ، في ليلة 12 كانون الثاني من عام 1953، صعقتني صاعقة الرب فجأة فصحت بأعلى صوتي: يا رب ماذا عليّ أن أفعل حتى أنجّي نفسي؟ فتناول يديّ ودسهما في جانبيه وشاهدت آثار المسامير في يديه. فصحت ثانية: يا رب طهّرني بدمائك. فقال لي: اتبعني يا جاكسون. واعترف بعد ذلك بأنه كان يضع نفسه في خدمة الشيطان: من خلال الأكل والشرب والضحك مع الضالين، ولكونه كان ليّن العريكة مع كهول القرية وأولئك الذين تنكروا للمسيح، ولأنه منع دماء المسيح من إرواء البذرة كي تضرب جذورها في الأرض. لقد أصبح الآن جندياً مسيحياً، يخطو خطوات نظامية وكأنه في طريقه إلى ساحة الحرب. فما السياسة إلا قذارة، وما متاع الدنيا إلا إثم من الآثام.

«إن بيتي هو السماء وما أنا على هذه الأرض إلا زائر».

فنهض الأخوة والأخوات في الدين وبدؤوا بالغناء والقفز في أرجاء الكنيسة، وذهب بعضهم إلى المقدمة وعانقوا جاكسون وقبّلوه قبلة مقدسة. فمزق جاكسون ياقته وقبعته - للتدليل على تفانيه في خدمة الرب وعلى تفطر قلبه في حبه.

كانت حركة البعث هي المنظمة الوحيدة التي سمح لها بالانتشار في كينيا من جانب الحكومة أثناء حالة الطوارئ. أصبح جاكسون قائد المنظمة في منطقة رونجي.

كان من ضمن أول مجموعة من المسيحيين الذين تمّ قتلهم في رونجي فيما بعد.

في صبيحة أحد الأيام وجدت جثته ممزقة بالسواطير إرباً إرباً، وأضرمت النار في بيته ومحتوياته حتى أضحى يباباً ورماداً. ولحسن الحظ لم تكن زوجته ولا صغاره في البيت. كان ريتشارد وقتها بعيداً في إنكلترا. إن نبأ مصرع جاكسون قد بث الذعر في قلوب الناس في ثاباي

وفي النجود المحيطة بها. من هو الشخص التالي الذي قد يكون ضحية الماو ماو؟ تساءل الناس وهم يتذكرون المعلم مونيو (بعثي آخر ذاع صيته على أنه مخبر سري للبوليس) الذي قتل بطريقة مماثلة قبل أيام فقط. كان البعثيون يحمدون الله ويقولون بأن ما فعله جاكسون ومونيو بموتهما لم يكن أكثر من السير على خطا المسيح. فأي شرف أعظم من هذا يمكن أن يناله المسيحي؟

ما كان بإمكان إلا القلة من الناس أن يتنبؤوا بهذا القدر من الاضطراب في تلك الأيام التي كان يذهب فيها كيهيكا إلى المدرسة ويكتشف عالم الكلمة المطبوعة. تأثر الصبي بقصة موسى وبني إسرائيل التي كان قد تعلمها في مواعظ الأحد - وقد كانت تشكل قسماً جوهرياً من برنامجهم - التي كان يشرف عليها المدير في الكنيسة. وحالما تعلم كيهيكا القراءة اشترى إنجيلاً وقرأ قصة موسى مرات ومرات لكي يرددها فيما بعد على مسامع مومبي وعلى مسامع أي إنسان آخر يقبل الإصغاء إليه.

ترك كيهيكا مدرسة ماهيغا وقد أصابه شيء من رشاش الخزي. حدث الأمر على النحو التالي: في فصل دراسي في صبيحة أحد أيام الآحاد كان المعلم مونيو يتحدث عن ختان النساء فنعت تلك العادة بالعادة الوثنية.

- «نحن كمسيحيين محرم علينا أن نقوم بأمثال هذه الممارسات».

- عفوك يا أستاذ!

- نعم. ماذا تريد يا كيهيكا؟

وقف الصبي يرتعد هلعاً. حتى في تلك الأيام كان كيهيكا يحب أن يلفت الأنظار إليه بقوله وفعله أشياء كان يعلم بأن غيره من الصبيان والبنات لا يتجاسر على قول مثلها أو فعله. في هذه المناسبة كان صيته الذائع هو ما جرّأه على انتهاك الصمت الذي كان يرين حوله وقذف الكلمات التالية:

- ليس ذلك صحيحاً يا سيدي.

- ماذا تقول؟

حتى المعلم مونيو بدا مذعوراً من ذلك الصمت المباغت. أخفى بعض

الصبية وجوههم، هزتهم كلمات كيهيكا ولكنهم كانوا خائفين من أن تستجر عليهم غضب الأستاذ.

- لا يقول لنا ذلك الكلام إلا الناس البيض، بينما الإنجيل لا يتحدث عن ختان النساء.

- اجلس يا كيهيكا.

هبط كيهيكا في مقعده. تشبث بالمقعد وندم على اندفاعه المتهور. المعلم مونيو أخذ إنجيلاً ودون ترو طلب من التلاميذ أن يفتحوا على الكورنثيين الرسالة الأولى، الإصحاح السابع، الآية 18، حيث بحث القديس بطرس موضوع الختان. وطفق مونيو يقرأ بصوت عال ويزهو، ولم يكتشف الخطيئة التي ارتكبها إلا بعد قراءة جملتين. لم تكن تلك الصفحة خالية من أي ذكر للنساء فحسب، بل إن الختان البشري لم يكن موضع إدانة قاطعة أيضاً. أغلق الإنجيل ولكن بعد فوات الأوان، لأن كيهيكا كان قد عرف بأنه قد كسب المعركة وما كان له مناص من التلفت حوله لطلب الاستحسان من عيون بقية الصبيان الذين اغتبطوا سراً لرؤيتهم معلماً يضعه واحد منهم في موقف معيب. فشرح مونيو الآيات بشكل أخرق تقريباً وصرف الصبيان. أصبح كيهيكا محط الأنظار، بطلاً صغيراً، في الوقت الذي كان الصبيان يتجادلون ويعلقون ويتساءلون عما يمكن أن يفعله المعلم فيما بعد. يوم الإثنين لم يقل المعلم مونيو شيئاً. في صبيحة الثلاثاء جمع المدرسة كلها (طلاباً وإداريين) في مبنى الكنيسة. وبصوت متهدج بالانفعال هدّدهم بأن يحذروا التجديف ضد الكلمة المقدسة.

- إذ من نحن حتى نقول بأن الكلمة الصادرة من فم الله إن هي إلا فرية؟ جلجل صوته الغاضب في أرجاء المبنى.

ولكنه، على أية حال، بعد حادثة يوم الأحد مع شيوخ الكنيسة، قرر أن يعطي الصبي فرصة لإنقاذ روحه. وهكذا قرر المعلم أن يجلد الصبي عشرة سياط على إليتيه العاريتين على مرأى من الحشد كله - هذا من أجل روح الصبي وأرواح الحاضرين كلهم. وكان على كيهيكا، بعد جلده، أن يشكر

المعلم وأن يشجب كلماته التي تفوه بها في الأحد الماضي. كانت الكنيسة هادئة هدوءاً مطلقاً. سعلة أو سعلتان زادتا من توتر الجو المشحون. التفت مونيو إلى أحد زملائه المعلمين وطلب منه أن يتناول العصوين اللتين وضعتا بشكل ظاهر فوق المذبح.

- «قف يا كيهيكا». حتى تلك اللحظة لم يكن المعلم قد جاء على ذكر كيهيكا بالاسم صراحة، بل كان قد تحدث عن تلميذ معين.

والآن توجه عدة صبيان، بمن فيهم أولئك الصبيان الذين التزموا بكيهيكا بكل افتخار في لحظة انتصاره يوم الأحد الماضي، نحو كيهيكا بنظرات عدائية، بعيون برّأت نفسها من ذنبه.

- «تقدّم».

تسمرت قدما كيهيكا بالأرض. أصبح جوفه فارغاً وكأن كل محتوياته قد استؤصلت منه. وحتى قبل أن يتحرك أفسح له الآخرون الطريق.

- قلت لك تقدم.

تظاهر بأنه على وشك المسير. جالت عيناه في السقف وفي المعلم وفي العصوين وفي المذبح. وفجأة ارتقى المقعد وقفز إلى مقعد آخر وقبل أن يدرك الناس ما كان يجري، وصل إلى أقرب نافذة إليه وتسلق منها خارج الكنيسة - إلى الحرية. وما توقف عن الجري إلى أن وصل البيت حيث رمى بنفسه على الأرض باكياً من الخوف.

«أفضّل أن أشتغل في الأرض» قال لأبيه الذي اقترح عليه الانتقال إلى مدرسة أخرى.

بقيت هذه الحادثة تغلي في فكره زمناً طويلاً. فقرأ أكثر مما كان يقرأ من ذي قبل، بل وتعلم كيف يقرأ ويكتب اللغة السواحلية واللغة الإنكليزية. وبعد مضي سنوات، بعد انتهاء الحرب مباشرة، ذهب ليشتغل في نيروبي، وثابر على حضور الاجتماعات السياسية واكتشف الحزب. ها قد وجد لنفسه حلماً جديداً.

***

«أنت تسأل ما المطلوب؟» كان يقول كيهيكا الآن. «سأقول لك. لقد تكلم شعبنا أكثر مما يجب».

- «وماذا بإمكاننا أن نفعل؟» سأل كارانجا الذي كانت عيناه دائبتين في الانتقال من كيهيكا إلى مومبي «إن لديهم البنادق والقنابل. انظر كيف جلدوا هتلر. وروسيا هي البلد الوحيد الآن الذي ترتعد منه فرائص الإنكليز».

- «إن الأمر يتعلق بمسألة الوحدة» أوضح كيهيكا على نحو مثير. «إن مثال الهند هناك ماثل أمام أعيننا. لقد بقي الإنكليز فيها مئات ومئات من السنين. لقد التهموا ثروة الهند. لقد شربوا دماء الهند. ما أعاروا أذناً صاغية لهذر حفنة من الرجال. فماذا حدث بعد ذلك؟ ظهر هذا الرجل المدعو غاندي. يجب أن تأخذ بعين الاعتبار أن غاندي كان على معرفة جيدة بالإنسان الأبيض الذي عنده. وطفق يدور وينظم الجماهير الهندية بسلاح أمضى من القنبلة. إلى أن صاروا يقولون بصوت واحد: نريد استرداد حريتنا. ضحك الإنكليز، إنهم يحسنون الضحك. ولكن كان عليهم في النهاية أن يخمدوا ضحكهم حين اتخذت الأمور طابع الجد. ماذا فعل الطغاة؟ أرسلوا غاندي إلى السجن، ليس مرة واحدة، بل مرات عديدة. بيد أن جدران السجن الحجرية لم تقو على احتجازه. سُجن آلاف الناس وآلاف أكثر قتلوا، الرجال والنساء والأطفال كانوا يلقون بأنفسهم أمام القطارات الهادرة التي كانت تدهسهم. تدفقت الدماء غزيرة كالماء في تلك البلاد. لم تستطع القنبلة أن توقف سيل الدماء. دماء الشعب القانية، الذي كان يجاهر مطالباً بحريته. يا إلهي! يا لعدد المرات التي يجب فيها أن يعول اليتامى وأن تندب الأرامل فوق هذه الأرض حتى يتعلم هذا الطاغية؟».

يا للتأثير الذي كانت تحدثه كلماته وصوته المتهدج على الحضور، ذلك التأثير الذي كان يتجلى في الصمت المطبق الذي يعقب الحديث. كانت كلماته تسحر مومبي وتنقلها إلى أطياف ماض بطولي لبلاد أخرى تتسم بالتضحية والشهادة. ثمة ضباب سحري كان يلف تلك البلاد النائية

والسنين السحيقة الغنية غنى غامضاً يشدّ إليه مومبي ويروق لها. ما كان بإمكانها أن تتصور فعلاً بطولياً بإقدام النساء والرجال على إلقاء أنفسهم أمام القطارات. كانت فكرة أمثال هذه المشاهد السديمية تلقي بها في سورة الغضب. فكرتها عن بهاء المجد كانت شيئاً أقرب إلى آلام المسيح في حديقة سمعان.

- «إنني أكره أن أرى قطاراً يدهس لي أمي أو أبي أو إخوتي. آه، من يدري كيف كنت أتصرف حينها؟» تساءلت على عجل.

- «النساء جبانات» قال كارانجا بلهجة يخالطها الهزل.

فكالت له مومبي الصاع صاعين غاضبة بسؤالها له: «أَوَتُحبُّ أن يدهسك القطار؟» ولما أحس كارانجا بغضبها لم يحر جواباً.

«ارفعوا صليبي، هذا ما قاله المسيح لقومه» تابع كيهيكا حديثه جذلاً. «من أراد أن يتبعني فليتنكر لذاته وليرفع صليبه ويتبعني. لأن كل من يحاول إنقاذ حياته سيفقدها، وكل من يفقد حياته من أجلي سوف يجدها. أتعلمون لماذا نجح غاندي؟ لأنه جعل أفراد شعبه يتنكرون لآبائهم وأمهاتهم ويكرسون أنفسهم لخدمة أمهم الوحيدة - الهند. وأما بالنسبة لنا فإن كينيا هي أمنا الوحيدة».

تأثر غيكونيو بصوت كيهيكا وبالبريق الذي كان يومض في عينيه أكثر مما تأثر بالمحاكمة التي لم يكن يتابع تفاصيلها أبداً.

- «إن منظر الدم يسبب لي الدوار» علّقت مومبي.

- «إن ما نريده في كينيا هو رجال ونساء لا يلوذون بالفرار أمام السيف» قال لها كيهيكا.

- «وما السبيل لتوحيد الشعب؟» سأل غيكونيو لمجرد المشاركة بالحديث.

اقتربت وانجيكو من الباب وأخبرتهم بأن الشاي أصبح جاهزاً.

قالوا بأنهم يريدون تناوله في العراء تحت أشعة الشمس. وسرعان ما انضمت إليهم فتاتان من ثاباي.

- «هل أصبحتم أوروبيين، تتناولون الشاي في مهب الريح في العراء؟» سألتهم وامبوكو.

- «أجل، أجل. إننا أوروبيون حقيقيون لولا جلدتنا السوداء» تشدق كارانجا مقلداً صوتاً أوروبياً، فقهقه الجميع ضاحكين.

- «إنك تجيد تقليده» قالت أنجري.

كانت وامبوكو وأنجري من صديقات مومبي وغالباً ما كانتا تضايقانها بحديثهما عن حب كارانجا لها.

أشرق وجه كيهيكا لرؤية وامبوكو. غالباً ما كان كيهيكا يرافق وامبوكو في حفلات الرقص وكان، على العموم، يحب التحدث إليها. شاركت الفتاتان في شرب الشاي. عينا كارانجا قلما تركتا مومبي. راقب غيكونيو مومبي ليرى ما إذا كانت ستمنح كارانجا ابتسامة كالابتسامة التي كانت قد منحته إياها. التفتت عينا أنجري إلى كيهيكا الذي كان وقتها يشارك وامبوكو نكتة ما. وحين شعرت أنجري بأنها موضع إهمالهم حاولت أن تروّح عن نفسها بمراقبة ذلك التنافس القائم بين كارانجا وغيكونيو. كان النجار يحاول مشاغلتها بالحديث بيد أن قلبه كان في غنى عن الكلمات. تركتهم مومبي، وقد فرغت من تصفيف شعرها، ودخلت الكوخ لتبديل ثيابها وارتداء ثياب الأحد. سارت أنجري الهويني واعتلت هضبة صغيرة بالقرب من السياج وفجأة طفقت تصيح بأعلى صوتها: القطار، القطار.

نزلت عدواً عن الهضبة قائلة: لقد تأخرنا عن القطار.

سمع الآخرون أيضاً ضجيج القطار الصاخب. وقفت وامبوكو وأمسكت بيمناها كيهيكا وشدته واقفاً على قدميه. أفلتت يده وبدأت تعدو على الممر عبر السياج باتجاه المحطة. تبعها كيهيكا. كان رجلاً صغيراً ترتسم على وجهه بعض أمارات الكآبة. «يا مومبي، يا مومبي، وصل القطار» صاحت أنجري وهي تنقضّ على المنديل الذي كانت قد نسيته على الكرسي وركضت خلف الاثنين الآخرين. تردد كارانجا وغيكونيو قليلاً وكأن كلا منهما كان ينتظر من صاحبه أن يبدأ بالعدو. كان كل منهما قد انتصب واقفاً على قدميه لدى أول

صيحة ندت عن أنجري بخصوص القطار، فتطلعا الآن بانسجام مضحك إلى الكوخ ومن ثم إلى الشخوص المتراكضة. خرجت مومبي وهي تعدّل حزاماً حول خصرها الرقيق. وصلها صوت وانجيكو: رويدك، لقد نسيت منديلك، فغاصت داخل الكوخ. كان كارانجا وغيكونيو ما يزالان ينتظران وهما يتظاهران بأنهما يركضان.

«هيا بنا» صاحت مومبي وقد سبقتهما بعدة ياردات مخلفة كارانجا في المؤخرة. كان من الممكن سماع قطار كيسومو يحثهم: اركضوا واركضوا، اركضو واركضوا. الطريق بين كوخ مومبي والمحطة كان يمر عبر غابة صغيرة تقوم في نهايته البعيدة. كانت أنجري تقترب من الغابة في الوقت الذي كانت فيه وامبوكو وكيهيكا قد اختفيا عن الأنظار.

ولكن كارنجا سرعان ما سبق غيكونيو لأنه كان أطول قامة بقليل. استحث النجار قوته في هذا التسابق على مومبي. لحق كارانجا بمومبي وسبقها خطوات عديدة وتراءت له أكاليل النصر تكلل هامته. هبط قلب غيكونيو خشية العار حين وصل أخيراً إلى مومبي. كان يلهث بشدة موقناً بكل مرارة بأنه لن يلحق كارانجا الذي كان قد اختفى في الغابة.

توقفت مومبي عن العدو وصاحت لغيكونيو الذي تباطأ منتظراً وصولها إليه.

- «إنني متعبة» قالت.

- ولماذا تتوقفين؟ إننا لن نشاهد القطار.

- وهل ينطوي ذات الأمر على أهمية كبيرة بالنسبة إليك؟ هل ستموت إذا لم تره اليوم؟ أصيب غيكونيو بالذهول: لماذا تُراها حانقة عليه؟

- «ليس في نيتي الذهاب إلى هناك هذا اليوم، تابعت حديثها بشيء من اللين».

سارا جنباً إلى جنب. كان غيكونيو يشعر بامتعاض عميق لفشله في السباق إلى المحطة. ولكن سرعان ما تبدد ذلك الشعور حال وصولهما إلى الغابة واكتشافه فجأة بأنه وحيد مع مومبي - وهي الهدف الحقيقي للسباق.

أخذ ينقّب في فكره عن الكلمات المناسبة وثمة أمل يحدوه في الوقت نفسه ألا تسمع الفتاة خفقان قلبه. استندت مومبي إلى جذع شجرة من الأشجار ولاحظ غيكونيو أن البِشرْ يتلألأ في عينيها. كانت الغابة ملاذاً ظليلاً من الشمس، فالحشيش والخضرة الكثيفة كانت تلتف بالورود التي نمت بشكل أطول، كما كانت الأغصان وفضول الأشجار تبدو وقد زادت انثناءً باتجاه الأرض. قالت مومبي:

لا بد من أنك قد بذلت جهداً كبيراً لتثبيت المقبض لذلك الساطور. لقد كان مقبضاً خفيفاً وأملس، وكان سرور أمي به بالغاً.

- إنه عمل لا يستحق الذكر.

- أفلا يستحق الذكر؟

- أعني أنه كان عملاً بسيطاً كما أنني أحببت إنجازه.

- «وتقول بأنه لا يستحق الذكر؟» وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة. كانت وجنتاها ريانتين وكان صوتها يعمل طعناً في جسده على نحو بهيج.

«إنني متأكدة» تابعت حديثها «أن من الروعة بمكان أن يكون المرء نجاراً وأن يمارس العمل بالخشب. فأنت من حطام قطع خشبية صنعت شيئاً يستحق الذكر».

- «وأنت أيضاً تحوكين الكنزات الصوفية».

- «إن الأمر مختلف جداً. لقد راقبتك مرة في مشغلك وتهيأ لي أنك كنت تتحدث إلى أدواتك».

- «هيا بنا نستكشف الغاية» اقترح غيكونيو بصوت مرتعش تخنقه الانفعالات المكبوتة. وصلا إلى ساحة عارية من الأشجار وسط الغابة، أعشاب الكيغومب الخضراء ترتفع إلى ركبهما. وقف قبالة مومبي مستسلماً لقوة كان يدرك بأنها تشدهما الواحد إلى الآخر. أمسك بيديها وأصابعه الريّانة في ذروة حساسيتها.

«يا مومبي...» حاول أن ينطق شيئاً وهو يجذبها نحوه. استرخت على صدره. كانت نبضات قلبيهما في أتم تناغم. كل ما حولهما كان ساكناً. سرت

ارتعاشات مومبي في دمه على شكل ارتعاشات خوف وبهجة. شدّها إلى الأرض رويداً رويداً حتى غطاهما الحشيش الطويل. كانت مومبي تلهث لهاثاً عميقاً ولكنها لم تقو على الكلام ولم تتجرأ على النطق. جرّدها غيكونيو من ملابسها قطعة فقطعة وكأنه يؤدي أحد الطقوس السرية في الغابة. ها هو جسدها يلمع الآن تحت ضياء الشمس. عيناها ناعستان ووحشيتان وفاترتان وجريئتان. مرّ غيكونيو بيديه على شعرها وفوق نهديها محاولاً دغدغة وتليين اليبوسة في جسدها إلى أن استرخت بين يديه. وفجأة شعر غيكونيو بأنه معلق في الفراغ، وما إن اقترب من اللحظة الحرجة حتى جنّح بنشوة عارمة في التيه البهيم وتناهت إلى أسماعه آهة تنفلت من بين شفتي مومبي المنفرجتين. هصرته فوق جسدها هصراً. اتحد لهاثهما الآن وأصبح لهاثاً واحداً. تزلزلت الأرض تحت جسدهما الواحد إلى أن وصلت إلى حالة الخدر.

في اللحظة وجد كارانجا الجمهور والقطار باهتين. كان متعباً ومعدته خاوية. تناثرت هباء منثوراً كل تلك الاحتمالات المثيرة التي شعر بها أثناء وجود مومبي. عبثاً فتشت عيناه عن مومبي ضمن الجمهور الدائب الحركة.

كانت النساء، على مألوف عادتهن، يتفنّن بألبستهنّ المزركشة أكثر من الرجال، ويتزَيَّن بأزياء تختلف من نجد إلى آخر. فالنساء اللواتي جئن من نجد اندييا ومن النجود البعيدة عن رونجي كن يرتدين الخام الملون بالأزرق الفاتح أو الأخضر أو الأصفر، تمر القطعة منه تحت آباطهن لتنتهي في عقدات معقدة على شكل الورود فوق الكتف الأيمن، وتتدلّى زنانير الصوف أو القطن الرفيع طليقة على خصورهن السمينة. وكانت الذؤابات الطويلة للزنانير تصطفق وترقرق خلفهن وهن يخطرن على الرصيف ويعرضن أنفسهن أمام الرجال. وأما معظم فتيات رونجي وكيهينجو أو انغيكا فقد كن يرتدين العباءات (الفراك) في أزياء متخلّفة سنتين أو ثلاثاً عن الزي الدارج في نيروبي.

لم يكن الرجال هكذا.

لقد جاء بعضهم ببناطيل فضفاضة وسترات عتيقة مستعملة ابتاعوها

من الحوانيت الهندية أو الأفريقية في رونجي. كانت ركبُهم، رؤوسٌ صغيرةٌ سوداء، تبرزُ من ثقوب البناطيل وهم يسيرون على الرصيف يطلقون سيقانهم باستهتار ولكن بقوة كي يدللوا، بشكل مبتذل، على رجولتهم بخطواتهم تلك.

كارانجا انتحى جانباً مبتعداً عن هذا الحشد المتلاطم. تسللت الغيرة إلى نفسه على شكل شعور بالدهشة لأنه كان دائماً يرفض اعتبار غيكونيو ندّاً جدياً له؛ إذ كيف بوسع نجار دونما فطنة أو أية دماثة، حتى أن يتجرأ مجرد جرأة؟ ولكنه كان يعرف الآن أن غيكونيو وموميي معاً، وحيدين، في مكان ما. فاستشاط غضباً لمعرفته تلك. إذ كيف بمقدور موميي أن تدعه يلهث ويتصبب عرقاً تحت الشمس بلا مقابل؟ كيف بمقدورها أن تجعله يهرول كالطفل ويسبقها لكي تبقى خلفه مع غيكونيو؟ فكر أن يندفع عائداً ويبحث عنها إلى أن يعثر عليها، يجللها بالعار، يجبرها على الركوع على ركبتيها على مرأى من الملأ وتبقى كذلك إلى أن تتوسل إليه طلباً للعفو. لقد كان الدافع لتنفيذ هذا الإجراء قوياً جداً حتى إنه باشر بالسير مبتعداً عن الرصيف حتى حينما كانت الفكرة لا تزال في طور التكوين. ثم توقف ووقف يستاءل فيما لو كان عليه أن يركض أم لا، وكأن أسلوب عودته من المحطة سيقرر مقدار النجاح في المهمة التي حددها لنفسه. ماذا لو وجدها في أحضان غيكونيو؟ فتصور يدي النجار الخشنتين وتتبعهما على جسد موميي بدءاً من النهدين ونزولاً إلى السرة ومن ثم إلى - لا! لم يتجرأ على تصور ذلك، لا، يجب ألا يتصور ذلك، فطفق يجدّف معذباً ذهنه بتصورات أكثر خسة. لا، ليس النجار، ارتعش مستغيثاً بالله. لو حدث ذلك فلتسقط عندها السماء ولتتزلزل الأرض ولينطرح الناس أرضاً ولتتمزق أردافهم وليتأوهوا (آه، يا لتلك الآهة المرعبة) نزولاً إلى الفروج المفتوحة، وليتأوهوا إلى حد المعاناة والموت.

أذهله عنف ردود أفعاله وحاول أن يسيطر على ارتعاشه من خلال إقناع نفسه بالحجة بأنه لم يكاشف موميي بحبه لها بحال من الأحوال. ولربما لم يجر شيء ذو بال بين غيكونيو وموميي. فرّج هذا التصور كروبه

فتشبث به، حبكه وعزّزه بالعديد من الحجج. بل إنه جرب أن يضحك لكي يطرد ذاك الهاجس الذي بدأ يهوّم على تخوم الصمت الذي ران عليه من جديد.

تحركَ كي ينضم إلى مجموعة من الرجال تبتعد عنه ياردات قليلة. عقد عزمه على الإسراع في التصرّف وفتح مغاليق قلبه أمام مومبي. كان الرجال يتحلقون حول كيهيكا يصغون إلى حديثه بوجوه مستبشرة. وفي مكان قصيّ من الرصيف كان ثمة نساء ورجال آخرون يسيرون الهوينى أو يقفون في تجمعات ذات أعداد مختلفة: إن مرأى الرجال والنساء يتضاحكون معاً جعل كارانجا يفتقد مومبي إلى حد مرعب.

وفجأة دوّت صفارة القطار وتحرّكَ متثاقلاً للخروج من المحطة، وأما كارانجا الذي كان يمعن النظر فيه فقد بدأ يعاني شيئاً غريباً. بداية، دوّت صفارة القطار في جسده، وجلجات العربات أيضاً، (لقد خالجه هذ الإحساس، في الواقع، بعد مضي القطار بزمن طويل)، ثم وجد نفسه واقفاً على حافة الرصيف محملقاً في تيهٍ أبيض فارغ. لقد رأى كل هذا بوضوح، ومن ثم بدأ العرق يتصبب منه فيما بعد. القضبان الحديدية، الناس على الرصيف، حوانيت رونجي، والمنطقة كلها بدأت تدور وتدور وتسرع في دورانها أمام ناظريه وتوقفت فجأة. كفّ الناس عن الحديث. لم يكن أي شيء يتحركَ أو يثير نأمة ما. حل الذعر بكارانجا من جراء التوقف المطلق لأية حركة أو ضجة وتطلع حوله ليؤكد حقيقة ما تراءى له. لم يكن قد توقف أي شيء. كان كل إنسان يهرول مبتعداً وكأنه كان يخشى أن تميد الأرض من تحت قدميه. كان الناس يتراكضون في كل الاتجاهات، الرجال يدوسون على النساء، والأمهات في شغل شاغل عن أطفالهن، وتخلى الناس عن الضعفاء والمساكين وتركوهم على الرصيف. كان كل إنسان وحيداً بنفسه، مع الله. إن ما هزّه كان وضوح هذه الرؤيا بأكملها. فشدد كارانجا من عزيمته وتهيأ للصراع، للكفاح من أجل أن يبقى على قيد الحياة. يجب أن أخلي هذا المكان، قال لنفسه، دون أن يتحركَ. بدأت

الأرض تدور مرة ثانية. يجب أن أركض، فكر بذلك، شيء لا مناص منه، لماذا أخشى أن أطأ بأقدامي الأطفال والضعفاء والمساكين في الوقت الذي يفعل فيه الآخرون ذلك؟

رجل كان بالقرب من كارانجا أسرع بوضع ذراعيه حوله مخافة سقوطه على الأرض القاسية.

- ما خطبك يا هذا؟ هل أنت ثمل؟

- «أنا، أنا لا أعلم» قال كارانجا وفرك عينيه كرجل يستفيق لتوه من نومه. كان كل شيء على الرصيف عادياً. كان القطار يختفي الآن خلف الزاوية البعيدة. «إنه رأسي» أوضح للرجل الذي مدّ له يد المساعدة... «كان رأسي يدور ويدور».

- «إنها الشمس. إنها تصيب الناس بالدوار. لم لا تقعد في الظل وتستريح؟».

- «إني الآن على ما يرام». تصنّع كارانجا الابتسام وابتعد لينضم إلى المجموعة المتحلقة حول كيهيكا. قلة من الناس شاهدوا هذه المسرحية الطريفة. كارانجا وجد كيهيكا يشرح شيئاً عن المسيح.

«لا يكتب الظفر لصراع من أجل واياثي بلا رجل كهذا. خذوا حالة الهند، لقد كسب المهاتما غاندي الحرية للشعب ولكنه هو الذي دفع الثمن من دمائه».

كارانجا، الذي أصابته رعشة خفيفة من جراء رؤياه القريبة، شعر فجأة بالغيظ من كيهيكا.

- «أنت تقول الآن شيئاً ما وبعد ساعة تقول شيئاً آخر» قال مخاطباً كيهيكا. «لقد قلت هذا الصباح بأن المسيح قد أخفق، وتقول الآن بأننا بحاجة لمسيح. فهل تحولت إلى بعثي؟».

إن هذا التكذيب الذي كان يتسم بالازدراء والابتسامة الساخرة قد سبّب الضيق لكيهيكا. فتردد قليلاً وهو لا يعرف كيف يجب أن يرد على هذا التحدي العلني من صديق له. اقترب الناس أكثر من ذي قبل وهزوا رؤوسهم

بالموافقة كي يروا ما إذا كان كيهيكا قد أُفحم فعلاً. كظم كيهيكا غيظه بصعوبة وتابع حديثه:

- «نعم - قلت بأنه أخفق لأن موته لم يغّير أي شيء. إن موته لم يجعل شعبه يجد له مركزاً في الصليب. يجب على كل الشعوب المضطهدة أن تحمل صلبانها. لقد رفض اليهود حمله وتفرَّقوا أياديَ سَبَأ في كافة أرجاء المعمورة، فهل كان لموت المسيح أي معنى بالنسبة لبني إسرائيل؟ نحن في كينيا بحاجة لميتة تغير الأشياء؛ أي نحن بحاجة لتضحية حقيقية. ولكن يجب أولاً أن نكون على استعداد لحمل الصليب. أموت أنا من أجلكم، تموتون من أجلي، وهكذا يصبح واحدنا قرباناً للآخر. وبذلك يمكنني أن أقول بأنك أنت يا كارانجا، أنت مسيح، وأنا مسيح، وأي إنسان يقسم يمين الولاء للوحدة لتغيير الأشياء في كينيا، إن هو إلا مسيح».

أنجري وومبوكو جاءتا برفقة حفنة من الفتيات الأخريات وانضممن إلى المجموعة. ولدى انتهاء الحديث السياسي تأثر معظم الشباب بفكر كيهيكا، ولكن طابع الجد الذي ارتسم على وجوههم تبدد حالما ابتسموا وتضاحكوا مع الفتيات.

بقي كل من كارانجا وكيهيكا شارد الذهن ولكن لأسباب مختلفة، وتجنب الواحد منهما الآخر ودياً، على غير تخطيط مسبق من أي منهما، وسارا صامتين طيلة الطريق إلى حفلة الرقص في الغابة.

كان جو من الهدوء والرطوبة يخيّم على غابة كينني. ومرة ثانية اجتمع الرجال والنساء على شكل مجموعات، يتضاحكون ويملؤون الغابة صخباً وحيوية. شخص ما دفع بغيتار بين أيدي كارانجا. «اعزف» صرخت الفتيات. حينما كان كارانجا يعزف على غيتاره كان دائماً يحسّ بالاستجابة الفورية للأوتار لمجرد لمس أصابعه لها، غير أنه اليوم ما جلب غيتاره معه، ومع ذلك فقد شعر بالانفعال وهو يحاول التحكم بهذا الغيتار تحكمه بغيتاره. الانفعال، وقد انتقل إلى الأوتار، ووصل إلى الناس الذين باشروا الرقص. كانت الرقصات القليلة الأولى رقصات حرة.

وامبوكو وكيهيكا رقصا معاً. هزتها الموسيقى طرباً والتصقت بكيهيكا على نحو أقرب. كان رأسها يميل إلى الخلف وتنظر إلى كيهيكا بعينين براقتين، ونهداها النافران كانا يتراقصان إلى الخلف وإلى الأمام ويدغدغان كيهيكا مما جعله ينسى حادثة المحطة. ولما لاحظ كارانجا بأنهما يرقصان على هذا النحو من التلاحم عادت مومبي إلى ذاكرته. لقد عزف لها مرة أو مرتين في بيتها، وها هو الآن يريد أن يعزف لها أيضاً. هذه الرغبة أثارت في دمائه شحنات كهربائية انتقل اهتزازها الرقراق إلى أصابعه. إن الأوتار سوف تتكلم نيابة عن قلبه. إن ذلك التضرّع المنبثق من الرغبة الجامحة سوف يمضي حتماً إلى مكان أبعد من الغابة: إلى القرية، إلى مومبي.

كان كارانجا يعزف بشكل مختلف عن غيكونيو الذي كان يذوب في الآلة بنوع من الغضب الغامض والذي كانت تفتنه الآلة أحياناً ويصبح لعزفه قوة فجة. غير أن كارانجا كان ينتصب كالطود فوق الآلة. كان يتحكم بها كما يتحكم النجار بأدواته، ولذلك فقد كان عزفه يتّسم بثقة أكبر من عزف غيكونيو وبصقل أعمق.

مشى رجل إلى المكان الذي كانت تقف فيه أنجري، فرفضت أن تراقص رجلاً حالماً مترنح الرأس. كانت عيناها تلاحقان كيهيكا ووامبوكو وهما يتمايلان ويشقّان طريقهما حول الأشجار الصامتة وأقدامهما تتجرّر عبر الأوراق المتساقطة. حتى جذوع الأشجار بدت كأنها تترنح أيضاً مع الراقصين. غنى كارانجا ببهجة كئيبة. الآن أصبح الرجال والغابة طوع بنانه، ولكنه ما كان يريد أن يسمعه أحد سوى مومبي. لو أنها هناك لسمعت في صوته الشهوة الجامحة، لركضت إليه. لا مناص لها من السعي الحثيث خلفه؛ إذ كيف بمقدورها أن تتهالك على النجار؟ هذا ما أعاد الألم إلى نفسه فتوقف صوت كارانجا وغيتاره في منتصف اللحن، ومن ثم خيم الصمت المطبق المفاجئ. التصفيق الحاد وصيحات الابتهاج مزقت سكون الصمت بعد ذلك.

وجد كيهيكا ووامبوكو فسحة مكشوفة تحت أشعة الشمس. لقد خلّفا وراءهما القسم الكثيف من الغابة والراقصين الآخرين والعينين النهمتين لأنجري. هنا كانت أشجار الطلْح وشجيراته تنحدر انحداراً شديداً حتى تصل إلى بطن الوادي. كان الوادي يمتد منبسطاً مسافة ما ليرتفع بعدها على شكل نجد من التلال الصغيرة. لقد أصبح الآن بمقدور كيهيكا أن يكتشف من خلفه وعن يمينه المعالم الرئيسة لمخفر شرطة (ماهي)، رمز تلك السلطة التي كانت تتحكم بكينيا وتمتد إلى باب كل كوخ.

- «قوّضْ ذلك البناء وسيرحل الإنسان الأبيض» خطر على بال كيهيكا... «إنه ببندقيته يتحكم بحياة كل الناس السود في كينيا». تراقص بريق في عيني كيهيكا، غاص قلبه في ثنايا هذه الرؤيا، انتشى بها ونسي الفتاة التي بصحبته هنيهة من الزمن. ولكنه كان مدركاً لتنفسها وبدت له كأنها جاءت معه إلى هنا كي يريها هذا الشيء. أخذ يدها بيده وعيناه ما زالتا مثبتتين على (ماهي) وعلى وادي ريفت.

«وهذا الطريق أيضاً هو الطريق الذي سلكه الإنسان الأبيض إلى قلب البلاد»، قال ببطء متأملاً الخط الحديدي الذي كان من الممكن رؤيته يسير بمحاذاة منحدرات الجرف وصولاً إلى الوادي.

- «ألا يمكنك أن تنسى السياسة لحظة يا كيهيكا؟» سألته وامبوكو وقد عيل صبرها وكان السؤال يقف بين التحذير الغاضب والشهوة.

لم تكن وامبوكو جميلة إلا حين كانت تبتسم أو حين ترفدها العاطفة بالحيوية. وقتها وقد اتسعت عيناها وانفرجت شفتاها ترقباً وتألق وجهها الأسود، بدت امرأة جذابة بشكل لا يقاوم. كانت امرأة موهوبة بطاقة هائلة للحياة، كانت تعيش اللحظة، تستكشف احتمالاتها المغرية وتنقض لافتراسها. كانت فعلاً تريد الحياة مع كيهيكا ولكنه كان دائماً يقف متردداً عند تخوم الإفصاح لها عن حبه. وحين كانا يتركان وحيدين كانت تنظر بترقب وقلبها يخفق خوفاً من المعرفة المستورة. لم يكن كيهيكا يقدم على ممارسة فعل طائش معها. كان رجلاً مؤمناً بمبدأ. رأت وامبوكو في ذلك

المبدأ شيطاناً يبعده عنها. ليتها كانت تفهمه. ليتها تلاقي الشيطان وجهاً لوجه، لعرفت حينئذٍ كيف تقاتله بقوة الأنثى الكامنة فيها. أفلم ينتحل الشيطان شخصية الأنثى المنافسة لها؟ ولكن كيف لها أن تقاتل شيطاناً لا يكتسي بلحم امرأة؟ كيف لها أن تحارب أشياء مجهولة في الظلمة؟

- «هذه الأقوال ليست من السياسة في شيء يا وامبوكو» قال لها، «إنها الحياة. هل رجلٌ من يسمح لإنسان آخر أن يسلبه أرضه وحريته؟ هل للعبد حياة ما؟».

تكلم الآن بصوت معذب وهو ينطق الكلمات بوضوح كأنه يفتش عن أجوبة لأسئلة تدور في سريرته. وامبوكو، وقد نفد صبرها، سحبت يدها من يده وكأنها لا تريد أن تربط مصيرها بمصيره.

- «إنك تملك أرضاً يا كيهيكا، كما أن أرض ميوغوا أرضك أيضاً. وفي أسوأ الأحوال ألا تعود ملكية أرض وادي ريفت لقبيلتنا؟».

- «أتعنين أكرات والدي العشرة؟ ذلك ليس هو الشيء المهم. كينيا تخص الناس السود. ألا ترين بأن قابيل كان على خطأ؟ إنني حارس أخي. وعلى أية حال فسواء كانت الأرض مسروقة من الغيكويو أو من الأوكاني أو من الناندي، فإنها لا تخص الإنسان الأبيض. وحتى لو كانت تخصه أفلا يجب أن يكون هناك حصة ما لكل إنسان في تلك المزرعة الجماعية - في كينيا (نا)؟ انظري إلى صاحبك الإنسان الأبيض في أي مكان من المنطقة المأهولة، إنه يتملك المئات والمئات من أكرات الأرض. وماذا عن مصير أولئك الناس السود الذين يقرفصون هناك والذين يتصببون عرقاً في المزارع كي يزرعوا القهوة والشاي وليف السيزال والقمح، ومع ذلك لا يحصل واحدهم إلا على عشرة شلنات شهرياً؟».

كان كيهيكا يتكلم مستخدماً إشارات يديه وكأنه يتحدث إلى جمهور كبير أمامه. وفجأة شعرت وامبوكو أن عليها أن تصارع الشيطان في تلك اللحظة، فأخذت يده وضغطتها برفق مما جعل كيهيكا يتطلع إليها. ولكن الكلمات لم تكن تطاوع شفتيها للبوح بما يكنّه قلبها.

«دعنا الآن من الحديث بهذه الأمور» قالت وقد شعرت بهزيمتها. ضغط كيهيكا يدها بالمقابل، متذوقاً تلك المتعة الهائلة لرجل وجد في النهاية إنساناً يواسيه في مسيرة نشاطه المرسوم. أراد أن يعبر لها عن امتنانه العميق: أليست هي وحدها من دون سائر الناس من كانت تؤمن به وبأفكاره؟ إذا كانت تقتضب في كلامها من قبل فقد قالت الآن كل شيء، لقد عبرت عن إيمانها بضغطة رقيقة من يدها.

- «ألن تبتعد عني؟ ألن تتركني وحيدة؟» قالت يائسة.

- «أبداً!» صاح كيهيكا بصوت يفيض وجداً وقد تراءت له وامبوكو واقفة إلى جانبه دوماً. حين تأزف ساعة العمل سيكون له وحده دون كل الرجال حبيبة تحارب إلى جانبه.

كان لكلمته اليتيمة تلك طعنة الخنجر في نفس وامبوكو فاهتزت طرباً لِطيفِ سعادة آنية وأبدية. فهل سيتخلى كيهيكا الآن عن الشيطان ويقنع بالحياة في القرية كبقية الرجال الآخرين؟

عادا إلى الراقصين في الغابة بأيد متشابكة وبوجهين متألقين. كان كلاهما سعيداً، سعادة مؤقتة، بوهمين متناقضين.

ما نسي غيكونيو أبداً ذلك المشهد في الغابة. وحينما كان في المعتقل يتوق لأشياء وأمكنة خارج حدود الأمل، كان يعيش تفاصيل كل لحظة من تلك التجربة - أسطورة طقسية عن أرض منسية من زمن بعيد.

«بدأ الأمر كأنه ولادة جديدة» تذكر وهو في حضرة ميوغو، متكلماً بصوت خفيض رزين ينقب عن الكلمة التي تناسب حقيقة تجربته. النار التي كانت تتأجج في الموقد المحصور بالأثافي الثلاث خبت وتحولت إلى وهج كئيب، نور السراج بدأ يرفرف، يتراقص مع ظلال الزوايا، دون أن ينير بوضوح وجهي ميوغو وغيكونيو.

«شعرت بالكمال، بالتجدّد... ضاجعت الكثيرات منهن في حياتي ولكنني ما شعرت مثل ذلك الشعور من قبل».

أمسك عن الكلمات، مرتبكاً ومذهولاً، كأن الكلمات قد خانته على

حين غرة. ببطء رفع يده اليمنى عن ركبته، أصابعها منفرجة بعض الشيء، ومن ثم تركها تستعيد مكانها السابق.

«لم أكن شيئاً يستحق الذكر قبل ذلك، ولكنني حينها كنت رجلاً. وخلال حياتنا الزوجية القصيرة جعلتني أشعر مومبي بأهمية كل متاعها... واكتشفت فجأة... لا، كنت كأنني قد عقدت ميثاقاً مع الله ابتغاء سعادتي. كيف يجب أن أعبر لك عن ذلك؟ كنت أحتضن تلك المرأة بذراعي – أتعرف الموزة؟ وأقشرها طبقة بعد طبقة وأمدّ يدي، يدي المرتعشة كي تتلمس البرعم المتكور في الداخل.

«كنت كل يوم أجد في مومبي مومبي جديدة. وكنا سوية نغوص في مجاهل الغابة. وما كنت لأخاف من الظلمة...».

أمه وانغري كانت سعيدة أيضاً. لقد وجدت في مومبي كنّة تستطيع أن تشاطرها، دون أدنى حاجة للّجوء للكلام، الأفراح والأتراح. كانتا تذهبان معاً إلى المزرعة، وكانتا تجلبان الماء من النهر بالتناوب، وكانتا تطبخان في القدر نفسه. كان قلب الحماة يفيض حناناً على الزوجة الشابة وهي تجتاز تيهاً من الصمت لا يمكن لأي كلمات أن تعبر عنه. جذلى بعبء هذا التعارف الجديد مع العجوز. كانتا تنظران معاً خلف الكوخ إلى المشغل، إلى حيث كان الزوج يحمل منشاراً أو مسحجاً. وكانتا تصغيان لصوت النجار يغني مع أدواته بقلبين مفعمين بالحبور.

وسرعان ما لاحظت وانغري ومومبي، كبقية النسوة في ثاباي، أن تغيراً بدأ يطرأ على الزوج؛ لقد أصبح غناؤه نوعاً من التحدي، تحدياً علنياً لأولئك الناس خارج ثاباي، للإنسان الأبيض في نيروبي وفي أية أمكنة أخرى كان يقطنها أجداد الغيكويو. كارانجا، كيهيكا وآخرون كانوا ينضمون إلى غيكونيو ويغنون أغاني الأمل الحزينة. كانوا يتضاحكون ويروون الروايات، غير أن ضحكهم لم يعد كما كان من ذي قبل، بل كانت تشوبه السخرية والترقب في أشداقهم. قلّت زياراتهم للقطار، وتحولت حلقات الرقص في الغابة إلى اجتماعات لرسم الخطط ليوم الحساب. كانوا يجتمعون أيضاً في الأكواخ

وفي الزوايا المظلمة في الهزيع الأخير من الليل، ويتهامسون وينفجرون بعد ذلك في قهقهات عدائية وأناشيد حربية. سيطر الذعر على قلبي المرأتين حين اكتشفتا مسحة الحزن على تخوم الأناشيد وخافتا على أبنائهما.

كان الجو مثقلاً بالاحتمالات.

وذات ليلة وقع ما كان بالحسبان؛ أوقف جومو كينياتا وغيره من قادة البلاد، وفرض الحاكم بارينغ حالة الطوارئ على كينيا.

بعد بضعة شهور من فرض حالة الطوارئ كانت مومبي تقف خارج كوخها تنظر بعينين حالمتين إلى الأرض. لم يكن غيكونيو في المشغل، كما أن وانغري كانت قد ذهبت إلى النهر. شجيرات الأسيجة غير المقضّبة التي كانت تحيط بالمنازل المتبعثرة كان من الممكن أن تجعل النجد يبدو وكأنه أجمة برية واحدة لا نهاية لها لولا تلك الخيوط الدخانية المتعرجة والمنطلقة من الأكواخ العديدة، التي جعلت المنطقة تبدو ودية وآمنة. كانت الشمس على وشك الغروب. السياج الصغير الذي كان يحيط بمنزل مومبي الجديد كان يتمايل. بصمتٍ مطلق، شعرت بنشوة عارمة بهذا المشهد الذي أمامها.

شاهدت كاريوكي أخاها الأصغر يسير ضمن الحقول. كان الدفء يغمر مومبي، انبسطت أساريرها لرؤية الصبي قادماً لزيارتها. لقد كانت تحب كاريوكي وكانت قبل زواجها دائماً تغسل له ملابسه وتكويها بكل عناية. كانت تنهض باكراً في الصباح لتحضر له الشاي قبل ذهابه إلى المدرسة. وعلى الرغم من حبها لكيهيكا ومن إعجابها به واتكالها عليه لأنه الأقوى، بغض النظر عن عدم فهمها له، فقد كان كاريوكي هو من تغمره برعايتها كأخت. وكثيراً ما كانت تتنزه مع كاريوكي في البرية وتصغي إلى ثرثرات الصبي عن أي شيء بدءاً بالمدرسة وانتهاء بالنساء. كانت تقرّعه، دون قناعة كبيرة منها، كلما أطلق التعليقات على النساء والرجال الكبار. بعدها كان كاريوكي يصطنع الملامح الهزلية وتنفجر ابتسامته مومبي الخفية في ضحك علني.

كان كاريوكي مرتدياً ثيابه المدرسية، وحينما اقترب من مومبي أصيبت

بالذعر لرؤيته مقطب الوجه. تلاشى البريق من عينيها وتبددت نشوتها الداخلية وتحولت إلى قلق وتحفزت للتصرف.

- ما خطبك يا كاريوكي؟ هل طرأ ما يسوء في البيت؟

- هل غيكونيو في الداخل؟ سألها كاريوكي متحاشياً نظراتها وسؤالها.

- لا. ليس في الداخل. ولكن ما الخطب؟ لكم يرعبني وجهك.

- لا شيء. ليس أكثر من أن والدي أرسلني كي أطلب من غيكونيو أن يرافقني إلى البيت وأنتِ أيضاً.

كان الصبي مطرق الرأس. لقد خفت صوته لحد الهمس على الرغم من محاولته الواضحة للحفاظ على صوته عالياً. الآن شَخص كاريوكي ببصره إلى مومبي والتمع في عينيه شيء يشبه الدموع.

«الأمر يتعلق بأخينا، كيهيكا... آه يا مومبي، هرب كيهيكا إلى الغابة كي يقاتل»، أضاف قائلاً وألقى بنفسه بين ذراعي مومبي. تشبثت الأخت بأخيها هنيهة من الزمن. دارت ثاباي ومادت تحت قدمي مومبي. ثم توقفت الأرض عن الدوران وبدت آمنة تقريباً.

«ما الذي يجب علينا فعله؟» سألت مومبي.

حلّت الظلمة في الخارج. غادرت وامبوكو وأنجري كوخ ميوغوا واتجهتا إلى البيت. سارتا صامتتين لأن كلاً منهما كانت مثقلة بهمومها الخاصة. تذكرت وامبوكو ذلك المشهد في الكوخ الذي فرّج لها همومها القلبية لزمن قصير. لقد جلس مبوغوا مطرقاً مصغياً إلى رواية وامبوكو دون أن يقاطعها، وما تلفّت إليها إلا بعد أن اختتمت روايتها.

- هل قال بأن الغابة مأواه؟

- نعم.

- ما الذي دخل في رأسه؟ أليس عندي من الأرض ما يكفيه وأحفاده، طيلة حياته؟

وترك لمومبي أن تضع هذا المصاب الأليم في منظور واضح.

«اختلفت الأمور باعتقال جومو. لقد تم اعتقال قادة البلاد كلهم ولا

نعلم إلى أين اقتيدوا، فهل تتصور أن كيهيكا، وقد كان قائد الحزب في هذه المنطقة، كان بوسعه الهرب من الذراع القوية للإنسان الأبيض؟ كان عليه أن يختار ما بين السجن وبين الغابة، فاختار الغابة».

- «لتكن مشيئة الله»، قال مبوغوا. هزت وانجيكو رأسها بالموافقة والتعاطف مع زوجها.

أخفت وامبوكو دموعها بصعوبة، ولكنها الآن، في الظلمة، بكت بصمت وفاض حزنها كلمات.

- إنَّ لجوءه للغابة من فعل الشيطان.

- هل ستلتحقين به؟ سألتها أنجري.

- «لا» صاحت بانفعال في ظلمة الليل. «لقد مضى بعيداً عني، لقد هرب من بين ذراعي. يا أنجري لقد توسلت إليه أن يبقى، وذرفت الدموع. كنا وحدنا خارج بيتنا. جاء كي يقول لي بأنه ماض إلى الغابة، وسألني فيما إذا كنت سأنتظر عودته، فذكرته بالوعد الذي قطعه على نفسه ذات مرة أمامي في غابة كينني، حين قال بأنه لن يتخلى عني أبداً ولكنه ها قد مضى الآن بعيداً...».

- ألا تحبينه؟ سألتها أنجري بلهجة تنم عن الازدراء والفوقية.

- أحبه - لقد أحببته، تعفّفت عن بقية الرجال كرمى له. في عتمة الليالي ما كنت أفكر بأحد سواه. كنت بحاجة إليه. كان بمقدوري أن أنقذه. كان رجلاً ولكنه كان ضعيفاً، ضعيفاً ضعف طفل صغير.

- ما كنت تحبينه قط. كنت تريدين منه أن ينام معك فحسب. قالت أنجري بسمّ غير منتظر فاجأ وامبوكو.

- ليس بوسعك أن تدليني على ما في داخل قلبي.

- بعض النساء لا يعرفن ما في قلوبهن.

- ولكنني أنا أعرف. أنت غيور.

- أمنكِ؟ أبداً.

انفصلتا دون إضافة كلمة أخرى. وعلى الرغم من أن أنجري كانت

فتاة قصيرة، فإن تحول جسمها جعلها تبدو طويلة القامة. ولكن الخشونة كانت تكمن خلف ذلك التحول. كانت تحتقر ضعف النساء، كذرف الدموع مثلاً، وكانت حينما ينشب العراك في كينني تشارك فيه دائماً حتى ضد الرجال. كان الرجال يلقبونها (هرّة)، لأن من استطاعوا التغلب عليها جسدياً كانوا يعدّون على الأصابع. والآن بدأ يخالجها إحساسها بالتفوق وبأنها أقوى من وامبوكو، فما كان لها مناص من احتقار وامبوكو. وقفت وحيدة في الظلمة خارج بيتها تحدق باتجاه غابة كينني.

«إنه هناك» همست لنفسها. ثم خاطبته مباشرة بتبتّل عاطفي، «أنت فارسي»، صاحت بأعلى صوتها وتركت العنان لغيظها الذي أطالت كظمه. «إنها لا تحبك يا كيهيكا، إنها غير آبهة بك». سارت بضع خطوات أخرى ثم استدارت إلى الخلف وهي تتمنى أن تحمل أمواج العتمة لكيهيكا بوحها بالتبتّل الأبدي له.

«أنا قادمة إليك، يا فارسي الوسيم، قادمة إليك»، صاحت وركضت إلى كوخ أمها ترتعد فرقاً لإدراكها بأنها قطعت وعداً على نفسها لكيهيكا، وعداً لا رجوع عنه.

* * *

كان غيكونيو يعود دائماً في المساء إلى سرٍ لا يشاطره أحد فيه سوى مومبي. كان يصون هذا السر بمنتهى الحرص عليه. ثابر على العمل في مشغله حيث كان يجتمع هناك كارانجا وآخرون غيره في العشيات ليطوّحوا بالشتائم والتحديات جزافاً وليعيدوا النظر - بكل اعتزاز - بالسير الشخصية لأحدث الرجال الذين التحقوا بكيهيكا. لاحظت وانغري ومومبي أن يد النجار، وهو يدفع مسحجه بها فوق سطح الخشب، لم تعد ثابتة كما كانت من قبل. وهذا أمر كانت وانغري تدركه وتخشاه كما حسبت. ولكن أنىّ لها أن تفسر الشرر المتطاير من عينيه والحيوية المصاحبة لصوته، وكأن إطلاق الأعيرة النارية في الهواء والبوق الذي يأمر الناس بإقفال أبوابهم في السادسة لا يمكن أن يمسّا رجولته؟ مومبي وحدها هي التي شعرت

بأنها تدرك ذلك لأنها كانت قد اختبرت يدي الرجل وأصابعه على جسدها، كما عرفت قوة الرجل في طرفيه السفليين الذين كانا يتركانها مسمّرة على الأرض خائرة القوى. كان جسدها حينها يعيش حالة الترقب، وجناحاها يصطفقان تأهباً. تلك اللحظات كانت هي اللحظات التي يختبر المرء الرعب والرقة فيها، حينما كانت تشتهيه أيضاً وهي جذلى بسطوة الأنثى فيها مدركة أن رقتها ومعرفتها، حينما كان الرجل يتخدّر لذة فيها، هما ما تسعفانه وتعيدان الحياة إليه.

ما كانت تريد له الابتعاد عنها وكانت تكره نفسها من جراء هذا الجبن.

زاد عدد الرجال الموقوفين ونقلوا إلى مراكز التجمع - المعروفة باسم معسكرات الاعتقال للعالم الخارجي بعيداً عن كينيا. كاد رصيف المحطة يقفر من الناس. برّح الشوق الفتيات لعشاقهن خلف أكواخهن الباردة وابتهلن لعودتهم بسرعة من الغابة أو من المعتقلات.

وفي أحد الأيام امتدت ذراع الإنسان الأبيض إلى باب كوخ مومبي. لقد كانت تتوقع هذا اليوم بهلع شديد وكانت قد سلّحت نفسها، في الواقع، حيال قدومه المميت. ولكن ما إن أزفت الساعة حتى وجدت نفسها خائرة القوى عاجزة عن إنقاذ زوجها. استجمعت كل إرادتها وكل قوتها وأفرغتهما في صرخة مدوية قطّعت نياط قلوب العديد من الحاضرين: «عد إليّ يا غيكونيو». كانت الصرخة أشبه بزعقة الرعب. سيطر هذا الرعب المحموم على ثاباي كلها حين علم أهلها في الهزيع الأخير من الليل أن غيتوغو، الصبي الأبكم الأصم، ابن المرأة العجوز، قد أردي قتيلاً برصاص رسل سلام الإنسان الأبيض.

ربما لم يعرفوا أن من المناسب لمثل تلك الحملة المهمة أن تفتتح بالدم على تربة ثاباي الخاصة.

سار غيكونيو إلى المعتقل بخطى ثابتة نتيجة يقين هو وليد معرفته بالحب والحياة. سرعان ما ينتهي هذا الشيء بوجه من الوجوه. سيربح جومو المعركة، ها قد وصل محاموه بعد أن قطعوا كل تلك المسافة من بلاد

الإنسان الأبيض ومن هند غاندي. إن يوم الخلاص قاب قوسين أو أدنى، ولسوف يعود غيكونيو ويتمسك بأهداب الحياة - ولكن في بلد المجد والعطاء هذه المرة. هذا ما كان يريد الإفضاء به لأمه ولمومبي حينما كان العساكر يقتادونه إلى الشاحنة العسكرية. وليفعل الإنسان الأبيض وقتها ما يريد. لا بد من مجيء ذلك اليوم - يبعد قيد أنملة ليس إلا - الذي يعود فيه إلى ثاباي كي يزلزل الأرض، بصحبة من اختفوا في الغابة، بأغنية جديدة احتفاء بمولد الحرية.

***

بعد مرور ست سنوات على اعتقال غيكونيو كانت صورة ذلك الأمل الواهي تدغدغ خيال غيكونيو وهو يسير على درب ترابي عائداً إلى ثاباي، فنكّس قبعته (وقد كان تلقفها من على قارعة الطريق) إلى الأسفل كي يخفي بها ما استجدّ على رأسه من ذوائب الزغب التي لولاها لبدا رأسه رأس عقائدي أصلع، ولكنها كانت وسيلة عقيمة باعتبار أن القبعة ذاتها كانت مهترئة جداً. وسترته المرقّعة برقع كثيرة - وقد كانت بيضاء فيما مضى غير أن الاستعمال اليومي قد أحالها إلى لون أصفر ولون بني - كانت تتهدّل فضفاضة من كتفيه الهزيلتين. ووجهه الذي كان يتفجر نضارة قبل ست سنوات ظهرت فيه الآن تجاعيد صغيرة -حول الفم أثناء إغلاقه- تخلق انطباعاً بديمومة تقطيبه وكأن غيكونيو سيستشيط غيظاً لدى أدنى إثارة.

كانت الأرض الوعرة المقصوفة بالقنابل تنزلق على الجانبين. ثمة محاصيل مهزولة تنتعش مجدداً الآن بعد جفاف حديث العهد، وهو مصيبة جديدة أخرى حلّت بالبلاد في هذه الآونة وتركت وجوه الأمهات القلقة يابسة متصدعة وتظهر متبعثرة هنا وهناك على مزق من المزارع المنتشرة على جانبي الطريق. ولكن غيكونيو لم يعر اهتماماً للبؤس الذي كان حوله وهو يغذ الخطى على الطريق تحثه صورة الزوجة -مومبي- التي خلّفها وراءه. كانت هذه الصورة تومئ إليه محركة فيه عواطف كادت تتصدع بفعل المشقات الجسدية وكروب الانتظار. غيكونيو وقد

شعر بالوحدة والتحرر من وهم استقلال وشيك، تشبث بمومبي ووانغري باعتبارهما الحقيقة الثابتة الوحيدة.

لسوف يقابلهما عما قريب. هذه الفكرة كانت تمدّ بالقوة ساقيه المتعبتين، وكان من الواضح أنه كان يحاول الإسراع في خطواته، وكانت خطواته المتسارعة تلك تترك وراءه زوبعة من الغبار الخفيف. كان غيكونيو يتحرّق شوقاً لهذه اللحظة بيأس متزايد كلما جاء عليه يوم ومضى. كان هذا الشوق شيئاً محمولاً خلال الأشهر القليلة الأولى من الاعتقال. وقتها كان من عادة المعتقلين أن ينشدوا أناشيد التحدي ليلاً نهاراً كما كانوا يضحكون باستهتار في وجه الإنسان الأبيض. ضُرب بعض المعتقلين واستجوبوا كلهم بلا رأفة من جانب عملاء الحكومة الذين كانت سطوتهم تكمن في مجرد غموض لقبهم – الفرع الخاص. اتفق المعتقلون على عدم الحنث بأيمانهم أو الإدلاء بأية تفاصيل عن الماو ماو: إذ ليس من المعقول أن يفضح أي فرد سر متعة العهد الوثيق في دعوة الآغيكويو للحرية الأفريقية. لقد تحملوا كل شرور الإنسان الأبيض معتقدين – بناء على أسس ما – بأن من يصمد حتى النهاية سوف تكلّل هامته أكاليل الغار.

ومن سيحمل إكليل الغار هذا إلى غيكونيو إن لم تكن مومبي؟ لقد تصورها بمنتهى الوضوح تحمل إليه ذلك الإكليل الأخضر بيدين مرتعشتين. إن إعادة جمع الشمل بينه وبين مومبي ستشهد مولد كينيا الجديدة.

وعلى الرغم من هذا التفاؤل، أو ربما بسببه، فإن أول نكسة حلّت بغيكونيو هزّت أعماقه هزاً عنيفاً. ذهب إلى زنزانته الخاصة وحاول أن يحل لغز مجريات الأمور كما تمت. ولما فشل في ذلك عاد وانضم إلى المعتقلين الآخرين سعياً وراء محاولة جماعية لفهم بواطن هذه الخديعة الشيطانية. لقد خسر جومو المعركة في كابن غوريا. إذاً سيعمد الإنسان الأبيض لإخراس الأب وترك أيتامه بلا راع.

طبعاً لم يصدقوا ذلك في البداية. مدير المعتقل، وقد كان رجلاً سميناً تصطبغ بشرته باللون الأرجواني من أشعة الشمس، استدعاهم جميعهم

من غرفهم الصغيرة إلى الباحة وناولهم مذياعاً - أول اتصال لهم بالعالم الخارجي. المدير، وقد دسّ يديه في جيوبه لأنه كان مغرماً بارتداء البزة الخاكية القصيرة، وقف على بعد مسافة عنهم وبابتسامة راضية درس آثار الصدمة على وجوههم.

«سأقول لكم شيئاً. صدقوه أو لا تصدقوه: يريد الإنسان الأبيض تحطيمنا بالأكاذيب»، قال لهم غاتو وهو معتقل من نايري، كان يزرع فيهم دائماً الصلابة والأمل. كانت لغاتو طريقته الخاصة برواية النوادر والحكايا، طريقة تنتزع الإصغاء إليه انتزاعاً من أي إنسان. ارتسمت على شدقيه ابتسامة ساخرة نقلت عدداً من المعتقلين من الكآبة إلى الضحك والحماسة. حتى طريقته العادية في المشي كانت تثير الضحك حين كان يقلد مشية وتصرفات الضباط والسجانين البيض. كانت نوادره وحكاياته تنطوي على حكم أخلاقية. وجهه الباسم وعيناه الضاحكتان دليل على نوع من الحكمة المؤكدة. ولكن صوته في ذلك اليوم كان واهناً ومسحة الإقناع فيه واهية. ومع ذلك فإن معتقلي (يالا) تشبثوا بكلماته وواجهوا الاستهزاءات الصامتة للإنسان الأبيض بتكذيب صريح وأساؤوا تفسيرها وبابتسامتهم الفاترة أو قهقهاتهم الصاخبة.

اندس كل معتقل في فراشه على الأرض. صاروا نهاراً يتحاشون الحديث عن جومو أو نسج التصورات عن نتيجة القضية في كابن غوريا. كفّ واحدهم عن النظر في عيون الآخرين كيلا يقرؤوا أفكار بعضهم بعضاً. منذ عهد بعيد اعتقل هاري الشاب أيضاً وصدر عليه الحكم بالنفي إلى جزيرة في المحيط الهندي مدة سبع سنوات. عاد بعد ذلك إنساناً محطماً وقد وعد بالتعاون الأبدي مع جلاديه منddاً بالحزب الذي ساهم في بنائه. إن ما حدث بالأمس قد يحدث اليوم. الشيء نفسه يعود دائماً وأبداً عبر مسيرة التاريخ.

وفجأة ذات ليلة صدقوا الأنباء، المعتقلون كلهم عن بكرة أبيهم. لم يبح واحدهم للآخر بتصديقه، بل صادف أن اجتمع بعضهم ببعض في باحاتهم وطفقوا ينشدون.

أضحى يوم الخلاص سراباً. جاء مدير المعتقل يحمل بوقاً ويحيط به

حراس مسلحون وأمرهم بالعودة إلى زنزاناتهم، فتفرقوا دونما نأمة (اللهم إلا حفيف أقدامهم) ودونما ضحك.

لقد خُذلوا في صحراء لا يصل إليهم فيها حتى صوت شارد من الدنيا. وهذا ما أدخل الرعب على قلب غيكونيو - فمن سيأتي إذاً لإنقاذهم؟ إن الشمس ستحرقهم وتميتهم ولسوف يدفنون في الرمضاء وتندرس فيها آثار قبورهم إلى الأبد. إن فكرة طمس الهوية من على سطح الأرض حتى بعد الممات بدأت تعمق اليأس لدى غيكونيو وهو يتذكر مومبي ووانغري، وأخذت تراوده من حين إلى آخر تلك الفكرة مما كان يجعله يتصبب عرقاً بارداً في الليالي القارسة. وفي أمثال تلك الأوقات كان يعجز حتى عن النطق بكلمات الصلوات.

وعلى الرغم من هذا فقد أخلص المعتقلون في (يالا) لأيمانهم ولم يخونوا عهودهم. وبقي غاتو منارتهم الطيبة. لقد انضم إلى الحزب في بواكر حياته وكان عنصراً نشيطاً في ذلك السعي المحموم ابتغاء المدارس المستقلة في نايري. كان إيمانه بالحزب عميقاً ولم يكن يرى أي أفق للاستقلال وإعادة الأراضي المسلوبة إلا من خلال الحزب، كما كان مسؤولاً حزبياً كبيراً في نايري، وكان ينتقل من قرية لأخرى سيراً على قدميه. كان غاتو يعرف الكثير عن الأحزاب السياسة وعن حركات التحرر في البلدان الأخرى. ولطالما كان يدخل البهجة على قلوب المعتقلين الآخرين برواياته عن الهند وعن محاكمات نهرو وغاندي. لقد حدثهم أيضاً عن حرب الاستقلال الأمريكية وعن كيفية إصدار الحكم بالإعدام على أبراهام لينكولن من جانب البريطانيين وذلك لقيادته ثورة جماهير السود. كان نابليون محارباً بل ومن أعظم المحاربين في التاريخ. كان مجرد صوته يجعل الإنكليز يتبولون ويتغوطون على سيقانهم حتى وهم داخل بيوتهم. هذه الروايات كانت تدخل البهجة على قلوبهم. لقد شعروا بأن غاندي ونابليون ولينكولن كانوا يتطلعون إلى جماهير السود في كينيا في صراعهم من أجل التحرر. حتى حراس السجن الأفارقة كانت قصص غاتو تؤثر فيهم. وهم يصغون إليه بمتعة يخالطها الخوف، متصنّعين نظرة

اللامبالاة على وجوههم. كانوا يتهكمون على غاتو وعلى لسانه السليط في الوقت الذي كانت فيه قلوبهم راضية عنه ولذلك لم يحاولوا منعه من الكلام.

كان الرجال يدبرون الخطط للعمل بعد الاعتقال. لقد بحثوا التربية والزراعة وشؤون الحكم وكانت في جعبة غاتو روايات محبوكة عن كل هذه الموضوعات. حكى لهم مثلاً قصة رائعة عما حدث ذات مرة في روسيا حيث كان المواطن العادي، حتى دون معرفته بالقراءة ومع جهله بقراءة أو كتابة كلمة إنكليزية واحدة، هو الذي يدير شؤون الحكم. والآن أصبحت أمم الأرض قاطبة تخشى روسيا. لم يكن يسكت غاتو حتى لو تعرض لأي نوع من أنواع الضرب. كان يعود إلى الآخرين ويعيد تمثيل المسرحية التي عاشها في المكتب، مقلداً الأصوات الإنكليزية مصطنعاً ملامح الإنكليز بكل هزء. وفي النهاية احتجزوه وحيداً في زنزانة منفردة. ومرت الأيام دون السماح له برؤية الشمس أو التحدث إلى أي إنسان آخر. كانوا لا يقدمون له في اليوم إلا وجبة واحدة من الطعام يأكلها في العتمة. أخيراً أخرجوه وانضم إلى المعتقلين في المهجع.

«ما الذي حدث؟» سأله المعتقلون بشوق، وهذا اعتراف منهم بأنهم قد افتقدوه.

تناسوا هؤلاء الناس. إنهم بلداء بلادة الليل البهيم. سأسرد عليكم بدلاً من ذلك، سيرة حياتي بأكملها. ولدت في واد من الوديان. كان الحشيش في ذلك الوادي - يا صاحبي - كثيفاً ووافر الخضرة. كانت الشمس تشرق عليه يومياً كما كان المطر ينهمر أيضاً والأشجار المثمرة تطل بأعناقها من الأرض. لطالما كنت أستلقي على الحشيش تحت أشعة الشمس وحبة من الفواكه في يدي مصغياً لخرير مياه الجدول وأصوات الحيوانات البرية. لم يكن إنسان يعرف شيئاً عن هذا الوادي، كما كنت وقتها لا أعرف المخاوف. وفي أحد الأيام أصابني الذهول لحضور زائر على غير انتظار. هل تخمنون من هو؟ يمكنكم، على أية حال، أن تتخيلوا دهشتي حين رأيت الملكة الشهيرة - ملكة إنكلترا. فقالت لي (مقلداً صوتها): «لماذا تعيش في هذا المكان المظلم؟ إنه

يشبه زنزانة باردة مظلمة في السجن». كنت وقتها مستلقياً هناك على الحشيش ورأيت الذهول الكبير الذي أصيبت به - وهذا أمر طبيعي جداً - لأنني لم أسقط صريع شفتيها القرمزيتين. «أحب المكان الذي أنا فيه»، قلت لها وبقيت مستلقياً على الأرض. فقالت (وقلد صوتها مرة أخرى): «إذا أنت بعتني واديك هذا فإنني أسمح لك... لمرة واحدة فقط» النساء نساء كما تعلمون. «نحن في بلادنا»، قلت لها «لا نشتري ذلك الفعل من نسائنا. نحصل عليه مجاناً». ولكن قضيبي طفق يؤرقني يا صاحبي، إذ كنت قد مرت علي أعوام وأعوام لم أشاهد فيها امرأة. ولكنها، وقبل أن أتمكن من إضافة كلمة أخرى، استدعت عساكرها الذين قيدوا يدي وقدمي وقذفوا بي خارج الوادي. وها قد جئتكم للتو من هناك. وذاك هو سبب عودتي إليكم يا سادة إذا كنتم تستغربون.

«يا صاحبي»، قال بعد انتهاء الضحك «كم تمنيت لو أنني قبلت معها بتلك الصفقة لكنت أشبعت إذاً قضيبي الذي يؤرقني حتى هذا اليوم».

واصلوا ضحكهم. «أرنا كيف مشت» صاح أحد الرجال. فوقف غاتو وقلّد المسرحية بكاملها وسط تمتمات وتعليقات الاستحسان.

لاحظ غيكونيو أن تخيلات غاتو تزداد جموحاً على مرّ الشهور، وأن هناك ما يشبه نظرة المخبول في عينيه، وبدأ يطمح ببصره خلف الأسلاك الشائكة نحو أرض بعيدة جداً.

ذهبوا لتكسير الحجارة في مقلع يبعد خمسة أميال عن (يالا) لجلب الأحجار وبناء المساكن للضباط السجانين الجديد. بدأ معتقل يالا يتوسع بازدياد عدد المعتقلين الوافدين إليه والذين كانوا بمثابة وسيلة الاتصال الوحيدة مع العالم الخارجي. مشى غيكونيو والآخرون فوق الرمضاء على أرض منبسطة مبقّعة بشجيرات الصبار وغيرها من الشجيرات الشائكة. رفع غيكونيو المطرقة الضخمة وأنزلها مراراً حتى صار يمارس ذلك ميكانيكياً. كان الطقس حاراً، فتصبب العرق منه حتى لزق قميصه بجسده الدبق. كانت الأرض المنبسطة البور تمتد على مساحة عريضة من الهضبة وتنحدر باتجاه الشاطئ حتى تخلص إلى وميض باهت. وفجأة وجد غيكونيو نفسه

يدوس شيئاً نقل له عقله وقلبه إلى عالم مختلف عن عالم المقلع ومنطقة يالا. بعد زواجه من مومبي بوقت قصير أراد أن يقدم لها هدية من صنع يديه وإبداعه. وفكر في صنع أشياء عديدة لها ولكنه لم يتوصل إلى قرار. وفي أحد الأيام تناهى إلى سمعه حديث مومبي ووانغري عن كراسي الغيكويو التقليدية. «في هذه الأيام لا يوجد حفّارو خشب»، كانت تقول وانغري «ولذلك ليس بوسع المرء إلا ابتياع الكراسي والمقاعد التي وُصل بعضها ببعض بالمسامير». وسرعان ما تلهف غيكونيو لنحت كرسي لمومبي يكون متميزاً عن غيره من الكراسي. وبقيت هذه الفكرة تستحوذ عليه لمدة عام كامل وتراوده في أزمنة وأمكنة مختلفة. كان يصبح في غابة الانفعال ويهمّ بتنفيذ الفكرة بيد أن النموذج كان يخونه. والآن وجد نفسه وهو في المقلع يفكر بذلك الكرسي ويقلب في ذهنه مختلف أنواع النماذج. كان لا يزال في هذا الوضع حين أزفت الدقائق القليلة لاستراحتهم وجلس غيكونيو قرب غاتو. كان وجه غاتو مكدوداً وبدت عيناه الدامعتان كأنهما الشيء الوحيد الذي ينبض بالحياة فيه.

- ما خطبك يا صاح؟ سأله غيكونيو.

- لا شيء.

- «يبدو أنك تفكر بشيء ما» تابع غيكونيو، وقد وقع على نموذج خطر له للتو.

- وما الذي يستحق التفكير به الآن؟

- «الحرية» قال غيكونيو بلهجة المنتصر.

- «الحرية! ما هي الحرية؟» سأل غاتو على مهله بصوت مكبوت كأنه صيحة مخنوقة. هذا السؤال هدم النموذج لدى غيكونيو وحوّله إلى إنسان كئيب في سريرته. وفجأة التفت غاتو بعينيه الدامعتين إلى غيكونيو، فأحس غيكونيو بالوثاق الرهيب الذي توثق بينهما. حاول جاهداً أن يقاوم ذلك الوثاق ولكنه استسلم في النهاية، ولذلك كان البادئ بفتح مغاليق قلبه أمام غاتو. فحدّثه عن ثاباي وعن وانغري وعن مومبي. (كان الحديث عن العائلة

والبيت موضوعاً محظوراً باتفاق ضمني بين المعتقلين). ولكن غيكونيو الآن حدّث غاتو عن رغبته الوحيدة المتمثلة برؤية مومبي ولو لمرة واحدة ليس إلا.

لماذا لم يخطر على بالي أن أقول لها حتى كلمة وداع حين اقتادني العساكر بعيداً. لهنيهة من الزمن بدا غيكونيو وكأن عبثاً ثقيلاً قد انزاح عن قلبه ولكنه سرعان ما شعر ببعض الخجل لانسياقه مع نفسه. إن صمت غاتو الذي أعقب اندفاع كلماته ومشاعره كان أشبه بالتوبيخ. وبعد ذلك أشاح غاتو ببصره بعيداً عن غيكونيو وبينما كان يحدق في الأفق المتلألئ تكلم بصوت واضح باهت لا يكاد يتجاوز حدّ الهمس.

كان هناك فيما مضى رجل، وحيد لأبويه، أراد الزواج من امرأة كانت بدورها ترغب بالزواج منه وإنجاب الأطفال. ولكن الرجل دأب على تأجيل الزواج لأنه كان يريد بناء كوخ جديد كي يولد الأطفال في كوخ مختلف. «يمكننا بناؤه معاً» طالما قالت له. ولما أعياها الانتظار في النهاية واكتشفت أن الحياة بدأت تذوي فيه تزوجت إنساناً غيره، بينما كان الرجل الأول يثابر في محاولته بناء الكوخ. لم ينته من بنائه قط. شعبنا يقول بأن بناء البيت يستغرق العمر بطوله. وبالنتيجة لم يتزوج ذلك الرجل بتاتاً ولم ينجب أطفالاً يحافظون على نسل عائلته.

وحالما اختتم غاتو قصته وقف وابتعد عن غيكونيو. «ضعيف، ضعيف كأي فرد منا» تمتم غيكونيو بينه وبين نفسه وقد أخذته الرأفة بغاتو. كان غاتو يبدو دائماً في غاية الثقة وفي حرز حريز، وبمنتهى القدرة على السخرية من نفسه ومن الآخرين. تحولت بعد ذلك رأفة غيكونيو إلى بغض عميق جداً بحيث أنه لم يدرك له سبباً. تحاشى الاثنان كل منهما الآخر طيلة بقية ذلك اليوم. وكأنهما قد ارتكبا إثماً مشتركاً بل وأدركا بأنهما قد أقدما على ذلك.

غيكونيو ما رأى غاتو مرة ثانية قط. لأن ذلك المسؤول الحزبي الشهير ومنارة المعتقل وجد في اليوم التالي مشنوقاً على أحد جدران زنزانته. خيمت الكآبة على يالا وما بحثوا أمره قط. اسم ذلك الرجل الذي تلقف الربوبية بكلتا يديه وأجهز على نفسه، ما مر ذكره على شفة بتاتاً في معتقل

يالا. أصاب هذا الحدث غيكونيو بصدمة عنيفة. «كان يجب علي أن أدرك بأن هذا الحدث سوف يحدث» قال لنفسه والذعر يخيّم عليه من جراء جبنه.

ومرت الأيام تتلوها الليالي بوتيرة مضنية. وطفق غيكونيو يسير، مثلما فعل غاتو من قبله، طائفاً بالباحة في الأمسيات قبيل مغيب الشمس. كانت كل باحة تتوزع فيها مهاجع المعتقل مسوّرة بالأسلاك الشائكة، كما كان السور الخارجي للمعتقل برمته مطوقاً بالأسلاك الشائكة أيضاً. كان المعتقلون في الصباح يبتعدون عن الأسلاك الشائكة إلى الطرقات والمقالع ليعودوا في المساء إلى الأسلاك الشائكة. أسلاك شائكة فوق أسلاك شائكة تنتشر في كل مكان. هكذا هي الحالة اليوم وهكذا ستكون غداً أيضاً. أصبحت الأسلاك الشائكة تعشي بصر غيكونيو. ليس ثمة شيء خلفها. لقد كفّت الأصوات البشرية عن اللغو وأصبح العالم خارج المعتقل ميتاً. لا، لربما أصيبت أذناه بالطرش وعيناه بالعمى، تصور ذلك وهو في طريقه نحو سور الأسلاك الشائكة. أمضى عدة أيام بلا طعام، عاش على الماء، ولم يكن ليشعر بأنه جائع أو واهن.

في إحدى الأمسيات ألقى نظرة بلهاء على الأسلاك، وبانفعال طارئ، شعر برغبة في البكاء أو الضحك، ولكنه لم يفعل لا هذا ولا ذاك. على نحو بطيء ومتعمد (انسل خارج إطار نفسه وراقب أفعاله وكأنه ينظر إليها من مسافة بعيدة)، دفع يده اليمنى داخل الأسلاك وغرز لحمه في الأشواك المعدنية الحادة. شعر غيكونيو بالوخز في لحمه ولكنه لم يشعر بأي ألم. سحب يده وشاهد الدم ينبجس منها، ارتعدت فرائصه واستمتع بنشوة غريبة.

صوب الحارس البندقية باتجاه غيكونيو ظناً منه بأنه سيحاول الفرار، ولما لاحظ بأنه لم يقدم على ذلك ناداه. سمع غيكونيو الصوت مثل الصدى القادم إليه من بعيد، فسار باتجاهه مختالاً بتجربته الجديدة. وفجأة وقف أمام الحارس وحدق إلى وجهه بوقاحة ثم رفع يده كي يري الحارس الدم، وربما لكي يغبطه على فعله. الحارس، وقد كان رقيقاً مثل حفنة قليلة من الحراس، رأى تلك النظرة الحيرى في عيني غيكونيو: «ادخل واسترح»، قال

له واستدار فجأة وولى الأدبار هارباً تقريباً من قهقهة غيكونيو المشؤومة. في الزنزانة اكتشف غيكونيو أن كل شيء - الأسلاك الشائكة، معتقل يالا، وثاباي - قد تفسّخ واستحال إلى ضباب لا لون له. حاول جاهداً أن يتذكر ملامح وجه مومبي غير أن محاولته باءت بالفشل، ولم يجد في ذهنه إلا سلسلة من الصور المتلاحقة التي سرعان ما تطرد واحدتها الأخرى مباشرة. هل هو ميت؟ وضع يده على صدره فأحس بخفقان قلبه وعرف بأنه ما زال على قيد الحياة. فلماذا لا يتمكن إذاً من تثبيت الملامح الأساسية لمومبي في فكره على نحو مستديم؟ ربما هي أيضاً قد انحلت وتلاشت في قلب الضباب. حاول أن يحيا ثانية ذلك المشهد في الغابة مع مومبي، ولكنه أصيب بالذهول لأنه لم يعد يتذكر شيئاً. استغلق عليه كل شيء: الشهوة، الرجولة المطلقة، الصوت الخلاب لمومبي، الهيجان المتفجر، وحتى الإحساسات خيبت فأله في العودة إليه كأشياء من الماضي. وطيلة هذه الفترة كان غيكونيو يراقب نفسه، يراقب تصرفاته - يراقب كل نأمة صدرت عنه ويراقب تزاحم أفكاره عليه. لقد كان داخل نفسه وخارج نفسه في آن واحد - في نشوة كان يتأمل كل شيء بهدوء، ولم يرتبك لإخفاق ذاكرته إلا على نحو طفيف. ربما أنا ضحية الإرهاق، خطرت له هذه الفكرة. ربما إن وقفت على قدمي عاد كل ما يطبع شخصيتي الحقيقية لسابق عهده من النشاط. وهكذا هب واقفاً وفعلاً عادت الأمور لسابق عهدها من النشاط؛ فالغرفة مثلاً دارت به ودارت - حاول أن يمشي بيد أن الهلع هيمن عليه، ترنح مستنداً إلى الجدار، وانطلق نعير من فمه وهو يسقط إلى الخلف على الأرض في ظلمة دامسة.

تدريجياً بدأ يسمع حفيفاً واهياً لأقدام تخشخش بين الأوراق اليابسة في غابة من الغابات. أرهف سمعه لعلّه يفهم تلك الجلبة التي سرعان ما تحولت إلى صوت مومبي. رفع رأسه ولمح ابتسامتها الملائكية ويديها اللتين كانتا تحملان مشعلاً متأججاً لتبديد الظلمة من أمامها. مدت مومبي يدها لترفعه عن الأرض، مومبي التي بدت في غاية الطهر، حقيقة ممتنعة على الإفساد في عالم الأشباح المتغيرة. طهرها سحقه، طرحه أرضاً. روّعه. إنني أعلم أن

يسوعي حي، صاح لها راكعاً أمامها، وعلى حين غرة اكتسحته نشوة جديدة واشتهى أن يموت بمومبي كما حدث له ذلك اليوم في الغابة، ولئن مات بتلك الطريقة فلعلّه يحيا. إنها سوف تستقبله دونما ريب، خطر له وهو ما يزال أسير تلك النشوة حين غط في سبات عميق.

استيقظ صباحاً ووجد أنه يتضور جوعاً. كانت تؤلمه يمناه المتورّمة عند المعصم. لم يستطع أن يتذكر ما جرى له في الليلة السابقة، بل كل ما عرفه هو أنه استفاق من حلم وهمي كان يسير فيه ويسير منذ تلك اللحظة التي شنق غاتو نفسه فيها. رغبته برؤية مومبي كانت لا تزال معه. ذهنه كان صافياً فعرف ما يجب عليه فعله دونما إحساس بالإثم. سرت الإشاعة. تكوّم كل المعتقلين في يالا بجانب جدران ساحات مهاجعهم يحدجونه بنظرات عدائية سافرة. ثبّت غيكونيو كل ذهنه على مومبي مخافة أن تخور قواه وتخونه ساقاه تحت وطأة الحملقة الخرساء لكل المعتقلين الآخرين. تابع مسيره وتبدى له وقع أقدامه – على ذلك الرصيف الذي يفضي إلى المكتب الذي تجري فيه عمليات التنخيل والاستجوابات والاعترافات – بغياب أي ضجيج آخر، صخباً لا ضرورة له. انغلق الباب خلفه. وعاد المعتقلون الآخرون إلى غرفهم بانتظار نزهة أخرى لهم إلى المقلع...

***

حينما ترك غيكونيو الطريق ليسلك درباً بين الحقول، كان لا يزال بمقدوره أن يسمع وقع قدميه تتردد أصداؤه على الرصيف الإسمنتي منذ أربع سنوات. لقد تبعته تلك الأصداء إلى سلسلة مكاتب الاستجواب التي اقتيد إليها، لأنهم – على الرغم من الاعترافات التي أدلى بها – لم يعجلوا بإطلاق سراحه. وحينما خضع لعملية التنخيل رفض الكشف عن اسم أي فرد متورط في قيادات التنظيم السري، ولكن ستبقى هذه الأصداء تطارده. تساءل، وقد سيطر عليه فجأة إحساس بالخوف مغبّة مقابلة فرد ما كان قد تعرف عليه في الأيام الخوالي. ما خالجه أي إحساس بالانتصار كما تقزّم عنده إحساسه بالبطولة. ليست أكاليل الغار الخضراء من نصيبه. ولكن

غيكونيو وقتها لم يكن يريد تلك الأكاليل، بل كل ما كان يريده كان مجرد رؤية مومبي والتمسك بأهداب الحياة من حيث كان قد تركها.

كان الصبية في الشوارع، عراة وأنصاف عراة، يلعبون بالتراشق بالتراب الذي دخلت بعض ذراته في عيني غيكونيو وفي حلقه. فرك عينيه بقفا يده (انهمر الدمع من عينيه) وسعل حانقاً. أوقف نسوةً مجهولةٌ وجوههن بالنسبة إليه وسألهن عن كوخ وانغري. حدجه بعضهن بنظرات العداء وأخريات هززن رؤوسهن بلا مبالاة، مما دفعه إلى حمأة القلق والغضب. وأخيراً أشار صبي صغير بيده إلى الطريق المؤدية إلى الكوخ. وشرع غيكونيو يسائل نفسه وهو سائر باتجاه الكوخ عما سيفعله حينما يقف أمام مومبي وجهاً لوجه. الشك أعقب الشوق: ماذا لو كانت مومبي في النهر أو في الحوانيت حين يصل إلى الكوخ؟ أبوسعه الانتظار ساعة أخرى أو ساعتين حتى تتسنى له رؤيتها؟

كاد عملياً يصطدم بها عند الباب. نظرت إليه مدة ثانية أو ثانيتين، شهقت شهقة لا إرادية، شبيهة بصوت أجش، وتراجعت خطوة إلى الخلف فاغرة الفم وكأنها تفسح له طريق الدخول. شاهد غيكونيو طفلاً محزّماً على ظهرها بشكل أمين. ذراعاه المرفوعتان تجمدتا في الهواء، ثم هبطتا ببطء إلى جانبيه، وكتلة سدت له حلقه.

- أهذا أنت حقاً؟ كانت مومبي أول من بادر بالكلام.

- نعم. من توقعت أن أكون؟ قال همساً. اندفع الدخان الكثيف من الكوخ على وجهه ما اضطره للعودة خطوة عن الباب موسعاً بذلك الفسحة القائمة بينه وبين مومبي. بدأ الطفل يبكي، رمقته مومبي بنظرة أم عجلى قبل أن تتلفت مجدداً إلى زوجها.

- «أنت؟» سألته ثانية. «كنت أعلم بأنك عائد ولكن ليس بهذه السرعة».

- «بهذه السرعة؟» لفظ غيكونيو كلماتها وعينه الباطنية تمعن النظر بمدى ست سنوات. لا شيء بدا له حقيقياً، ولم يستطع أن يدرك كنه ما قالت.

وانغري، وقد أيقظتها الأصوات، خرجت من الكوخ واندفعت إلى غيكونيو.

«أي بني!» صاحت وذراعاها تطوقان خصره والدموع تنهمر على وجهها المهزول.

شعر غيكونيو بأن جسده ينشدّ من جراء عناق أمه. عرف دون أن يخبره أحد بأن الطفل المحزّم على ظهر مومبي كان بذرة رجل آخر. ها قد ضاجعت مومبي رجالاً غيره في غيابه. سنوات الانتظار: الآمال الزائفة. الخطوات على الرصيف. كلها اندفعت إلى قلبه كي تسخر منه. اقتلها والطفل... وضعْ حداً لكل هذا الشقاء، فكّر فيما بينه وبين نفسه. وخلّص نفسه من عناق وانغري عملياً كي ينفذ هذا القصد إبان لحظة الحماسة. بيد أنه بقي متسمراً على الأرض.

نظرت وانغري باتجاه مومبي التي كانت قد دخلت الكوخ من حيث تناهى إلى سمعهما صوتها وهي تحاول هدهدة الطفل الباكي.

«ادخل الكوخ» دعته وانغري. سمح غيكونيو لنفسه بالانقياد إلى داخل الكوخ المليء بالدخان وكأنه مشلول الإرادة، كانت مومبي تحتضن الطفل بذراعيها وترضعه من ثديها. فجلس غيكونيو على كرسي من الكراسي. كانت تختلس النظر إليه من حين إلى آخر. إنها تستهزئ بي، قال لنفسه.

جالت عيناه من وانغري إلى مومبي وبعدئذ حول الكوخ محاولاً أن يرى شيئاً يمكن أن يستقطب تركيزه. إن الصدمة المرة المفاجئة التي عاناها منذ بضع دقائق تلاشت الآن وحلّت محلها كآبة ثقيلة. ليس للحياة طعم ولا لون. إنها صفيحة واحدة بيضاء لا نهاية لها، مسطحة غاية التسطح. لا أودية فيها ولا جبال ولا جداول ولا أشجار – خالية من أي شيء. ومن ذا الذي حسب الحياة خيطاً يمكن أن يدأب الإنسان على حياكته حتى يعطيه نموذجاً من اختياره هو؟ كان يدرك من أعماق فكره بأنه مكدود. وفي زاوية دفينة في أعماق فكره ذاك كانت الكلمات تتخذ لها شكلاً. فحرك غيكونيو شفتيه ميكانيكياً وتدفقت الكلمات بوضوح خالية من العواطف إلا الفضول المحض:

«ابن من؟»

لم تحر مومبي جواباً، وكل ما فعلته لم يكن أكثر من التفاتة إلى غيكونيو

ومن ثم إلى الجدار الذي قبالتها. شعرت وانغري بآلام الابن وبشقاء الكنّة، فبحثت في حنايا صدرها عن الكلمة المناسبة التي تروي غليله. لقد كانت تعرف دائماً أن عبء الحقيقة ثقيل على سامعها، فانتزعت من نفسها كل قوة الأم وحنانها وأرسلتها إليه وهي تفضي له بالحقيقة.

«انه ابن كارانجا» قالت صراحة، وانتظرت بشكل رزين وقوع ما لا بدّ منه. لقد توقعت منه أنة، زعقة، أو محاولة لقتل مومبي. ولكنها لم تتوقع منه بتاتاً هذا الاستعجام الحيواني.

«كارانجا، صديقي؟» سأل بتلك اللهجة المتجردة نفسها وهو يعاني من الحيرة أكثر مما يعاني من الألم.

- «نعم. أمور كهذه تحدث» قالت ثانية وانتظرت.

كان الطفل الآن نائماً على فخذي مومبي، ومومبي متكئة إلى الأمام تسند بيدها اليسرى رأس الطفل وظهره بكل رفق وبكل قوة. ذراعها الأيمن كان ملتوياً عند المرفق ومستنداً إلى ركبتها وإصبعها الصغيرة تضغط بلين على الشفة السفلى وتكشف عن أسنان بيضاء بياض الحليب.

لم يتحرك غيكونيو. كان جالساً مستنداً إلى الخلف على عمود، عيناه جامدتان تارة غائمتان تارة أخرى لا تعبران عن شيء. حتى فكرة زيارات مومبي لمخادع رجال غيره ليلياً على مدى السنوات الست الأخيرة بدت فكرة لا تزعجه. غيكونيو كالخَدِرِ لم يشعر بالجرح وما أدرك سبباً لجذله المرعب.

«إنني متعب يا أماه. لقد سرت مسافة طويلة وأريد أن أنام»... لم تفهم وانغري. وبدأت مومبي بالنحيب الآن.

ما زار الكرى جفني غيكونيو. استلقى على قفاه وحملق في الظلمة وهو يدرك في كل لحظة تلك الأنفاس الثقيلة الصادرة عن المرأتين. لقد انتظر هذا اليوم بفارغ صبر طيلة ست سنوات، ست سنوات في سبع معتقلات وهو يتوق لهذا اليوم، يخالجه شعور، هذا الزمن بطوله، أن معنى الحياة يتمثل بعودته النهائية لمومبي. ما كان يعير اهتماماً لأي شيء آخر: المعتقلات،

الجبال، الأودية، كان بمقدوره أن يشاهد بأم عينه كل شيء ينطمس من على ظهر الوجود دون أن يرف له جفن لو علم بأنه سيعود في خاتمة المطاف إلى المرأة التي خلفها وراءه. وقتها ما كان يخطر بباله إلا قليلاً، بل وما خطر قط، بأن عودته ستكون عودة إلى الصمت. هل من الممكن الآن عبور وادي الصمت القائم بينه وبين هذه المرأة؟ وما الغاية من ذلك العبور لأنه ما إن يصل إلى الجانب الآخر حتى يجد أن تلك المرأة التي كانت تنتظر بفارغ الصبر مجرد ابتعاده عنها قيد أنملة كي تندفع على عجل إلى مخدع رجل آخر؟ لا، إن هذا الصمت أبدي. لقد كان في مشغله يعقد حواراً بلا كلمات مع وانغري. كانت مجرد نظرة منه في عينيها كافية لإدراك مخاوفها وهواجسها ومطامحها بالنسبة إليه. كانت تخطر في الكوخ العتيق بكل كبرياء الأم وثقتها، ويمحضهما ثقته. كان يعرف متى تذهب إلى النهر وإلى الحوانيت أو إلى المزرعة. وجاءت بعدئذ مومبي كي تحتل موقعها الصحيح ضمن سياق الأمور وتضفي دفئاً جديداً على الحوار وعلى حياة البيت. لقد كانت مومبي في مخدعه، حين تلقي برأسها على صدره أو تتنفس بالقرب منه، هي من علمته. هي من جعلته يدرك أن ملمس المرأة شيء ليس كمثله شيء في الوجود. فماذا كان خلف هذا الملمس. هذا الالتحام، الذي بالنسبة إليه أعطى الحياة معنى ما، وضوحاً ما؟ حينها لم تكن الثروة ولا السلطة تنطويان على أية أهمية ما لم تعنيا ذلك الالتحام الصامت الذي تضطرم فيه الأشياء الحية وتخرج كي تواجه النور. ولكن الصمت الذي عاد إليه الآن كان صمتاً ميتاً. بقي مستلقياً هكذا في سريره يراقب سلسلة لا نهاية لها من الصور تندفع من ذهنه المحموم. لعل نور الصباح يجد له مخرجاً.

ولكن الشمس لم تجلب له السلوى؛ إذ باكراً في الصباح زعق الطفل مذكّراً باحتياجاته، فأوقدت مومبي النار وأمسكت الطفل إلى ثديها مرة أخرى. استمر الطفل في عويله يعمل تمزيقاً بأعصاب غيكونيو. «اطرح الطفل أرضاً، ادفع بهذا الشيء القذر إلى مهاوي الصمت»، خطر لغيكونيو دون أن يحاول النهوض من السرير. لم يكن يريد رؤية عيني مومبي ولا أنفها ولا فمها – ومع

ذلك فيا للألم العذب الذي سببه له ذلك الوجه في المعتقل؟ انكفأ الآن على نفسه لورود فكرة خاطفة حول ملمس يدي مومبي على جسده. كف الطفل عن البكاء والعويل حين شرع يرضع ثدي أمه. ربما لم يكن قتل الطفل هو التصرف الصحيح، ولكن الموقف الذي أدى لخلق الطفل سيبقى ينيخ على ذهنه: لقد مضت مومبي إلى مخدع رجل آخر، وسمحت بل أولجت عملياً المتاع المتطاوح لرجل آخر بين فخذيها، وهلّل جسدها بكل انتشاء لدفق بذور ذلك الإنسان فيها. أمر لم يقع مرة واحدة وحسب، بل كل ليلة على مدى السنوات الست الأخيرة. لقد خانت العهد، السر، الذي بينهما: أو ربما لم يكن بينهما أية وشائج حميمة قط، لا شيء من ذلك الذي يمكن أن يترعرع بين إنسانين، واحد منهما عاش وحيداً ومضى إلى قبره، مثل غاتو، وحيداً. كان غيكونيو يَستَحلِبُ بكل نهمٍ البهجةَ المُرّة مِن هذا التصور الذي كان يرى فيه كشفاً مرعباً. إن عيش المرء وحيداً وموته وحيداً هو الحقيقة المطلقة.

خرج من الكوخ - كم كان يعبق بالدخان الكثيف - وتجول في قرية ثاباي الجديدة حيث كان هذا الشارع يفضي إلى ذاك، وكانت سحب الغبار تتجرر خلف كعبيه. حتى الهواء كان يسبب له الاختناق. لم تعد ثاباي أكثر من معتقل آخر له، فهل يستطيع الإفلات منها قط؟ ولكن أين يمضي؟ سار على الطريق الأسفلتي الذي قاده إلى رونجي. ها إن حوانيت الهنود قد انتقلت إلى مركز جديد، والأبنية الطويلة مبنية من الحجارة، والأضواء الكهربائية والشوارع الأسفلتية جعلت المنطقة تبدو على شكل حارة من مدينة ضخمة. كانت الروائح تفوح من البالوعات التي لم ينظفها أحد منذ عام. تابع مسيره حتى وصل إلى الحوانيت الأفريقية في رونجي: كانت كلها مغلقة، وكانت الحشائش الطويلة والشجيرات البرية قد عرّشت على جدران الأبنية الصدئة وغطت الأرض التي كانت ذات مرة هي السوق. كانت جدران معظم الأبنية مقصوفة بالقنابل مما أحدث فيها فجوات كبيرة مفتوحة الأشداق، وأبواباً مهشمة ممزقة كانت تحدق إليها - مجرد خرائب ليست أكثر من تلميحات عن حضارة أقدم. عند باب أحد الأبنية التقط غيكونيو لوحاً مكسوراً، حروفه

الكبيرة الباهتة فقدت أطرافها السفلية والعلوية. ولكنه بعد تمعّن دقيق تمكن أن يستنبط منها كلمة «فندق». في الداخل كانت كومة من التراب وحطام أوان فخارية متكسرة وصحون وكؤوس مبعثرة على الأرض. فقرع ثم قرع ثم خبط على الجدار بالنهاية المستدقة للوح المكسور، وفجأة انهال الإسمنت والتراب بكميات متزايدة جوفاء، وبدا أن الجدار على وشك التداعي والانهيار. اندفع غيكونيو إلى الخارج خائفاً من البناء، من رونجي المبتلاة بالأشباح، وما توقف عن عدوه إلى أن دخل الحقول. الحوانيت الأفريقية، كما علم فيما بعد، أجبرت على إغلاق أبوابها كعقاب جماعي للنجود كافة. سار غيكونيو على الدروب بين الحقول المسيّجة بشكل أنيق - كنتيجة لتجميل الأراضي - وحاول أن يغمض عينيه كي لا يشاهد أية تغيرات أخرى. كان كلما لمسه شيء، حشيشٌ كان أو فضول الشجيرات، يجفل ويرتعش. وفي النجد توقف ونظر ثانية إلى القرية الجديدة - كانت الأكواخ والحشائش تعيش متعانقة بعضها ببعض. الدخان الأزرق المنبعث من بضعة أكواخ تبدد في شمس الظهيرة الساطعة. في الليلة السابقة كان الأمر مختلفاً جداً؛ إذ وقتها كان الدخان المتعرج من سقوف الأكواخ المختلفة متجمعاً فوق القرية على شكل مظلة ساكنة هادئة. وخلف المظلة كانت خيوط الشمس القانية المنبعثة من الشمس الغاربة تنتشر من المركز وتتحلل إلى ظلال متنوعة الألوان منها البُني ومنها الأصفر عند التخوم، لكي تنحل بعد مسافة بعيدة إلى لون قاتم داكن. ولكن لا شيء الآن في هذه القرية الجديدة يشده إليها، حتى أكواخها لم ترقص قلبه طرباً كما فعلت في الليلة السابقة. هل ثمة مكان آخر يستطيع الذهاب إليه، هل بمقدوره الذهاب إلى منطقة أخرى؟ إن أصداء الخطوات على الرصيف، الطفل الباكي، وصورة الأم ترضع وليدها، ستستحوذ عليه دائماً في حلّه وترحاله.

وفجأة تذكر غيكونيو أن عليه أن يبلغ الرئيس عن وصوله إلى القرية. لم يكن قانون الطوارئ قد ألغي بعد: كان الإنسان الأبيض لا يزال يسعل وكان الناس أينما كانوا يرقصون على هذا اللحن مهما كان مقيتاً. لم يجد أية صعوبة في العثور على بيت الرئيس. كان بيته يقوم وسط مجتمع مركز

الحرس الوطني في ثاباي. وعلى الجانب الآخر للمركز، وتحته، كان يمتد الطريق الأسفلتي من ناكورو إلى المدينة الكبيرة.

وقف على باب بيت الرئيس وطفقت الأرض تميد تحت قدميه. حملق غيكونيو في وجه الرئيس الصارم الملامح؛ كأن القدر يسخر منه. هذا أمر غير معقول.

«ادخل» قال كارانجا. استغلاق الأمور على مداركه هزّ غيكونيو بشكل عنيف.

- كارانجا، رئيس؟ كان كارانجا يجلس منتصب القامة خلف الطاولة. الآن وقد قطب حاجبيه، أضاف عبوسه قسوة جديدة إلى تجهّم وجهه.

«قلت ادخل» كرّر كارانجا بصوت عال لا مبرر له.

دخل غيكونيو باحتراس شديد وأفكار متضاربة تختلط في ذهنه. جلس على كرسي وعضّ على شفته السفلى كي يخنق مرارة قريبة من البكاء في الوقت الذي كانت الهمسات فيه تنسل، كلها بوقت واحد، إلى داخل عقله وقلبه: لقد كان الإله قاسياً عليه وإلا، فلماذا لم يجنبه هذا الإذلال؟ ورأى كارانجا، صديقه العتيد، يراقب ردود أفعاله كلها، كارانجا الذي شرع الآن يتحدث إلى غيكونيو وكأنه لا يعرفه، وكأن غيكونيو أحد المجرمين.

«حسناً» كان يقول كارانجا وهو ينتزع صفحة مطبوعة من الورق كانت معلقة على الجدار. «أنت - أنت غيكونيو، ابن - ابن واروهيو» أكمل حديثه وهو يخطّ إشارة على الورقة. راقب غيكونيو كل هذا ورأسه مطرق كرأس إنسان كهل، وغرز أسنانه في شفته السفلى على نحو أعمق.

«أصغ جيداً» ها قد عدت الآن إلى حياة طبيعية في القرية. الناس هنا يطيعون القانون، أتسمع؟ لا اجتماعات ليلية، لا قصص عن غاندي وعن الوحدة وعن كل هذه الهرطقات. الإنسان الأبيض جاء إلى هنا لكي يبقى.

وقف غيكونيو فجأة، ودون أن يشعر بماذا كان يتصرف، ذهب باتجاه الباب. تركه كارانجا إلى أن وصل الباب ثم صاح به: «توقف»، فتوقف غيكونيو كأن الصوت قد أصابه بالشلل، ثم استدار ووقف منتظراً.

- إلى أين أنت ذاهب؟

«إليك» فّح مجيباً على سؤاله مندفعاً نحو الطاولة ويداه مسددتان كي تصلا إلى رقبة كارانجا. توقف قبل أن يصل إلى الطاولة وأطلق شهقة رعب: لقد كان كارانجا يصوب مسدساً إلى قلب غيكونيو.

«اجلس، يا غيكونيو».

جلس غيكونيو على الكرسي. كان جسده يرتعش بشكل ظاهر للعيان، كان كل شيء أمامه ينتحل طبيعة الحلم، ولكنه بصق على الأرض وشحن بصاقه بمقدار ما استطاع من الاشمئزاز.

«بإمكانك أن تبصق على الأرض» قال كارانجا بزهو واضح، متكئاً على كرسيه واضعاً المسدس على الطاولة. ولكن دعني أقول لك هذا الشيء كصديق.

- «عليك أن تحفظ درسك جيداً. أترى برج المراقبة في الخارج؟ كلمة واحدة مني عما حاولت فعله الآن، وسيكون البرج مأواك لأسبوع أو أسبوعين».

لقد حدث كل شيء بلمح البصر حتى إن غيكونيو أخفق في فرز المشاعر والأفكار التي هوّمت في فكره: كل ما عرفه هو أن ذلك الإنسان الذي أقسم معه على محاربة الإنسان الأبيض، ذلك الإنسان الذي كان يعزف معه الغيتار، الإنسان الذي كان دائماً يأتي إلى المشغل من أجل النميمة، ذلك الإنسان هو من يصرخ في وجهه الآن.

وما خرج من بيت الرئيس ومكتبه حتى تذكر أن كارانجا كان الرجل الذي ضاجع مومبي والذي حملت له طفلاً في رحمها لتسعة أشهر. ولسبب ما لم يترسخ اسم كارانجا في ذهن غيكونيو المحموم: طيلة الليلة السابقة والنهار بطوله ما كان يفكر إلا بمضاجعة مومبي لرجال آخرين. ولا مرة واحدة، ولا حتى في المكتب، أدخل كارانجا في إطار عذابه الآخر الذي كان يقبع، إذا جاز التعبير، في حيّز متميز من ذهنه. ولكن الآن صورة مومبي وهي تتأوه لذة حين كان جسدها العاري يتلوى تحت جسد كارانجا الثقيل، لازمته أينما

حل. أعاد خلق ذلك المشهد بكل تفاصيله الدنيئة: صريف السرير، أصابع كارانجا تتلمس مومبي في كل أنحاء جسدها، لهاثهما العميق يتحد في لهاث واحد - و، آه، يا الله، التنهدات، تلك التنهدات؟ سرت في أوصاله رعدة طويلة مستديمة، ثم ترنح نحو شجرة صغيرة بمحاذاة الطريق وتشبث بها. بيد أن الصور ما كفّت عن الورود على ذهنه. كارانجا يعتلي مومبي. وجد نفسه يتطرق لتفاصيل بعيدة عن الموضوع، يزعج بها نفسه، مثلاً، تساءل ما إذا كانت مومبي قد أنّت من المتعة إبان هزة الجماع... وقبل أن ينتهي من تفاصيل ذلك المشهد أعول وأطلق صرخة حادة. ترك الشجرة. ركض على الشارع باتجاه كوخ أمه. إن المرأة التي تنهدت تحت جسد كارانجا العرقان يجب ألا تبقى على قيد الحياة. كان المارة لا يتطلعون إليه أكثر من مرة واحدة ليبتعدوا من طريقه على عجل. ثابر غيكونيو على ركضه. لسوف يقتلها. لسوف يجندل مومبي. المسافة كانت طويلة جداً. جمح به خياله: ها إن مومبي تتوسل إليه طلباً للرحمة، اللعاب يتصبب من فمها، عيناها جاحظتان. بيد أن القدر كان له بالمرصاد. لقد كان الكوخ مقفلاً. لربما احتجزتا نفسيهما في الداخل. ألقى بكل ثقله على الباب صائحاً: «افتحوا الباب. افتحوا الباب أنتن يا من تبعن أجسادكن بالمزاد العلني في السوق». بقي الباب موصداً. استجمع قواه وضربه مرات عديدة. فجأة هوى الباب الخشبي. وقع غيكونيو على الأرض وخبط رأسه بإحدى أثافي الموقد. سال الزبد من شدقيه. بقي النجار مدة من الزمن يطلق جلبة غير مترابطة من خلال الزبد، وانتهت الجلبة بتوجع واحد طويل: «يا رب، آه، آه، يا رب، يا رب».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصْل الثّامِنُ

لم يستطع غيكونيو أن يتذكر بالتفاصيل ماجَريات الأيام القلائل الأولى لعودته إلى البيت؛ كان كل شيء مجرد حلم ضبابي، ولذلك وجد من العسير عليه أن يسرد لميوغو تقريراً متماسكاً عما حدث بالضبط. وبدأ ينقب مرة أخرى عن الكلمات المناسبة وكان يلقي من حين إلى آخر بذراعيه في الهواء بشكل ينمّ عن اليأس.

«على كل حال لا بد من أنني قد بلغت مرحلة الجنون. أعتقد بأنه ليس هنالك أمر أشد إيلاماً من اكتشافك أن صديقاً لك، أو إنساناً كنت تمحضه ثقتك دائماً، قد أقدم على خيانتك. وعلى أية حال، حينما استيقظت فيما بعد وجدت نفسي متدثراً بالدثار. كان السراج، تماماً كهذا السراج الذي هنا، يشتعل بشكل هزيل، كشيء معتلّ الصحة، أتعرف ما أقصد؟ إن مجرد رائحة أي شيء تذكرك بمشهد في المشفى. كانت والدتي جالسة حذاء السرير وومبي واقفة على بعد أقدام قليلة. لم أستطع أن أتبين وجهها بوضوح ولكنني ظننت بأنها كانت تذرف الدموع. لهنيهة، بل قل للحظة، شيء ما دغدغ فؤادي. مومبي، تلك المرأة التي عرفتها، لا يمكن أن تكون قد سمحت لكارانجا بزيارة مخدعها. لقد كانت هي نفسها تماماً كما كنت قد تركتها خلفي. ثم رأيت الطفل وأدركت أن ما ظننته مستحيلاً قد وقع فعلاً. فاصطكّت أسناني وسرت رعدة في كل مفاصلي، كنت كمن أصيب بالرشح والحمى، بالملاريا. ومع ذلك فقد تبددت لدي وقتئذٍ كل رغبة في قتلها. كانت تلك اللحظة هي اللحظة التي اتخذت فيها القرار

التالي: لن أتحدث مطلقاً عن الطفل. ولسوف أتابع حياتي وكأن شيئاً لم يكن. ولكنني لن أدخل مخدع مومبي بتاتاً. فماذا بقي عليّ أن أفعل سوى أن أغرق نفسي في العمل. في العمل المضني؟». تفرّس غيكونيو وجه ميوغو. لم يستطع أن يتبّين فيه شيئاً. جعله الصمت إنساناً مزعجاً. بدا الأمر برمته له وكأنه تكرار لمشهد مألوف.

«نعم... كرست نفسي قلباً وقالباً للعمل» أعاد عليه ثانية. بيد أن ميوغو بقي صامتاً ولم ينبس ببنت شفة. شعر غيكونيو بالمرارة على نحو غامض. لقد أزاح العبء عن كاهله، ولكن ذنباً من نوع آخر بدأ يتسلل إلى نفسه. ها هو يقف الآن مكشوفاً، عارياً، أمام ميوغو. لا بد من أن يكون ميوغو بقيمته الآن. شعر غيكونيو بقلق كذلك القلق الذي يساور إنساناً يقف أمام قس متزمّت. وفجأة أحس بالرغبة في الانصراف، في الابتعاد عن ميوغو، ليشكو أمر عاره في العراء.

«عليّ أن أذهب»، قال وانتصب واقفاً على قدميه. خرج تحت جنح الظلام. أفزعه وجيب قلبه. كان يشعر بالذعر من مواجهة مومبي، من أرقه الناجم عن أصداء خطوات الرصيف. كان الظلام يلفّه من كل جانب وهو يهرع باتجاه البيت الذي لم يعد بيتاً. إن نقاء ميوغو وخيانة مومبي، وكل شيء قد تآمر عليه بغية لَغْمِ رجولته، إيمانه بنفسه، وتعميق إحساسه بالغدر لأنه كان أول من حنث بقسمه وخان العهد في معتقل يالا.

وحالما انصرف غيكونيو، هرع ميوغو إلى الباب، فتحه على مصراعيه وصاح بأعلى صوته: عد. انتظر جواب صيحته ولما لم يصله أي جواب عاد وجلس مستغرقاً بالتفكير. كان فكره يقفز من حدث إلى حدث. لقد أراد منه غيكونيو أن يقول له أي شيء. شعر بأنه كان عليه أن يقول شيئاً ما. مرتين بلّل شفتيه بريقه وتنحنح استعداداً للكلام، ولكن فمه بقي جافاً واستغلقت عليه الأفكار والكلمات. ماذا كان بوسعه أن يقول له؟ إن انفجار غيكونيو ضد خيانة كارانجا واحتدام غضبه على مومبي جعلا ميوغو يتقوقع على نفسه. كل مرة كان يتحدث فيها غيكونيو عن مومبي

وكارانجا كان ميوغو يلتهب غضباً ويشعر وكأن الأسيد ينهش القرحة في معدته. ارتعد الآن من هذا التذكر. ساوره القلق. وقف ومشى في الغرفة. لنفترض بأنني قلت له... لنفترض أنني أخبرته. فجأة... لكان انتهى كل شيء... انتهى... المعرفة... العبء... المخاوف... الآمال... كان بإمكاني إخباره... ولربما... لعلي... إن ذلك هو السبب الذي حدا به لحكاية قصته لي؟ لدى ورود هذه الفكرة توقف على حين غرة عن الخطو واتكأ على السرير. إن الرجل لا يذهب إلى إنسان غريب كي يفضي له بمكنونات قلبه... إنني أرى كل شيء... كل شيء... تظاهر بعدم الالتفات إلي... ومع ذلك فقد دأب على اختلاس النظر إلي... ليرى فيما إذا كنت خائفاً... ليرى... ما إذا... لا. تذكر الكرب الذي كان يرين على وجه غيكونيو. كان لصوته طابع الجد والثقة.

خرج ميوغو. لعل الهواء البارد والظلمة البهيمة تعيدان الهدوء لأعصابه. فنجان من الشاي في مقهى (كابوي) بدا له أفضل الحلول. حينما كان يسير في الظلمة، عدة مشاهد من حياته خطرت على باله بلمح البرق. كانت تنتابه مشاعر الهلع والانفعال والنفور وغيرها على التوالي وفقاً لكل مشهد من المشاهد. ومن غرائب الأمور أن كل هذه المشاعر قد انتهت في الليلة الماضية في قول الإنجيل: «سوف يُنصف فقراء الناس، سوف يعين أطفال المحتاجين، ولسوف يمزق الظالم إرباً». غذّت هذه الكلمات شيئاً في سريرة نفسه وأيقظت إحدى الذكريات.

كانت هذه الذكرى تعود ليوم من أيام مايس 1955. كانت كينيا تعيش تحت ظل حالة الطوارئ منذ ما يقارب السنتين. ذهب ميوغو إلى مزرعته التي كانت عبارة عن قطعة أرض صغيرة قرب محطة القطار في رونجي. وقتها لم تكن تدابير حالة الطوارئ ومضايقاتها قد مسّته بسوء بعد. خلف المحطة كان يمر الطريق الأسفلتي ويجتاز الجنْد (المستوطنة) إلى نيروبي، إلى مومباسا وإلى البحر. لم يكن ميوغو قد سافر قط أبعد من رونجي، إلى الجند مثلاً أو إلى المدينة الكبيرة. مرة أو مرتين حين كان صبياً شاهد زمرة

من الناس البيض يدخنون ويتحادثون ويتضاحكون في الوقت الذي كان فيه الناس السود يحملون أكياس الذرة وحشيشة الحمى من شاحنات الخدمة إلى عربات النقل في القطار. وبعد أن تم إفراغ كل الشاحنات انطلق قطار الشحن صاخباً. لقد رأى ميوغو هذا المشهد من على بعد مسافة مضمونة. ولذلك كان في السنوات التالية كلما تصور إنساناً أبيض (حتى جون ثومبسون) كان دائماً يتخيل رجلاً يدخن سكيارة وقطاراً واقفاً ينفث الدخان. في هذا اليوم ربط قميصه - بلا أزرار - حول خصره، مما جعل قبّة القميص وكمّيه تحتك ببطني ساقيه وقفا فخذيه كلما انحنى فوق مزروعاته. كانت الشمس تحرق جذعه الأسود العاري بشكل بهيج. الضياء المنسكب على الجسد العرقان جعل بشرته تلمع بلون بني. تفتحت المزروعات - شتلات الذرة والبطاطا والفول والبازلاء - ومدّت أوراقها نحو الشمس. كان ميوغو يستعمل منكاشاً يقلّب به تربة المناطق الجرداء وينتزع العشب من المناطق المعشبة بين المزروعات، كما كان يستعمل أصابعه لقطف الثمار. كان كلما هزّ سوق النباتات تساقطت قطرات الندى عن الأوراق وذابت. كان الهواء نقياً ومنعشاً ولاذعاً. المزارع التي حول مزرعته، وقد كانت كلها مغمورة بالخضرة - أوراق طويلة وعريضة تحجب التربة السوداء - كانت تبدو جميلة لعين ناظرها. ازدادت حرارة الشمس واشتد القيظ، تبخرت الرطوبة من الأوراق، انحنت الأوراق مما جعل الخضرة تذوي عند وقت الظهيرة، وتتحول إلى لون رمادي خفيف، كما جعل القيظ الحقول تبدو مجهدة. استلقى ميوغو على ظهره تحت ظل شجرة (مواريكي) ونَعِمَ بذلك الرضى الفياض الذي يشعر به المرء خلال قيلولة ظهيرة يستريح فيها من كدّه. ثمة صوت - وكان دائماً يسمع أصواتاً كلما اضطجع على ظهره يستريح - قال له: سيحدث لك أمر ما. مغمضاً جفنيه تمكن أن يشعر بذلك الأمر، كاد يلمسه، شكله كان غامضاً ولكنه، آه، في غاية الجمال. ترك الصوت الرخيم يغريه وينأى به إلى بلاد بعيدة في الزمن الماضي. موسى أيضاً كان وحيداً يولي اهتمامه لقوم

(جثرو) والد زوجته. وقاد أولئك القوم إلى الطرف البعيد من الصحراء، وجاء إلى جبل الله، بل ووصل الطّور، وتبدى له ملاك من ملائكة الله على شكل لهب من نار من قلب إحدى الشجيرات، ودعاه الله بصوت خافت: يا موسى، يا موسى. فصاح هيوغو: لبّيك يا رب.

كلما فكر في ذلك اليوم رآه يمثل منعطفاً في حياته؛ إذ بعد أسبوع صُرع بالرصاص مدير المنطقة روبسون ودخل كيهيكا في مسيرة حياة ميوغو.

كان ميوغو تحت وطأة انفعال محموم حين هرع إلى داخل المقهى في (كابوي) الذي كان سابقاً يدعى «مامبو ليو»، بيد أن صاحبه أطلق عليه منذ بداية الحكم الذاتي اسماً جديداً: فندق الاستقلال، واسماً فرعياً: بار ومطعم. زمرة من الرجال كانوا يصخبون ويغنّون عند الطاولة. زمر أخرى كانت متناثرة حول الطاولات العتيقة ذات الصريف. ذهب ميوغو إلى إحدى الزوايا وجلس فيها. كان رأسه يدور ويدور: إنه في حلم من أحلام اليقظة. فالأرض التي مشى عليها ورواد البار، وكل شيء زيف على زيف. بعد دقيقة واحدة سيتلاشى كل شيء. وفجأة دوى صوت وعلا على ضجيج السكارى. ران صمت عميق من هول المفاجأة. غيثوا متوكئاً على عكازيه انفصل عن الزمرة التي كانت في الزاوية وطفق يحجل باتجاه ميوغو. وقف أمام ميوغو باستعداد وحيّاه ثم خلع قبعته وصاح:

«أحييك يا زعيم!» وفاحت رائحة الخمر من بين أسنانه التي فقدت لونها الحقيقي. بعد ذلك انمسخت وقفته إلى وقفة عبد ذليل.

«تذكّرنا يا زعيم، تذكرنا. هل ترى هذه الأسمال البالية؟ هل ترى القمل الذي يحبو على كتفي؟ ما كنت دائماً على هذه الحال. أقسم لك بالفرج اليابس لأمي، أو بفرج تلك المرأة العجوز. اسأل أي إنسان هنا».

رفع إصبعه كمن يريد أن يقسم وجال ببصره حول المكان وكأنما يريد أن يشهد الناس على قسمه. كان الناس وقتها قد تركوا أماكنهم وتسللوا قرب الرجلين. أصاب الهلع ميوغو ولكنه شعر، في الوقت نفسه، بالابتهاج بسبب وهم المشهد برمته.

«كنت سائقاً – يعرفني الناس من كيسومو إلى مومباسا – أنا». وعاد ثانية ذلك الإنسان المتكبر يضرب على صدره تحدياً وتباهياً... لم تكن النقود تعني شيئاً بالنسبة لي. كنت أتفاوض لشراء مزرعة في كيرارابون بالقرب من انغونغ.

هنا في بيتي كنت أقتني الدجاج – عدداً وفيراً – آه، ليتك رأيت البيض. يا نادل ناولنا شراباً إلى هنا – اجلب شراباً للزعيم. قبل حالة الطوارئ كان بمقدوري شراء هذا البار بأكمله.

وعلى الرغم من أن الناس كانوا قد اعتادوا على ثرثرة غيثوا، فإن أحداً منهم لم يضحك. أصغوا إليه بشكل جاد وهم يهزّون رؤوسهم بالموافقة أحياناً وبالأسى أحياناً أخرى رأفة بالدموع التي كانت تخالط صوته المتهدج. قال ميوغو بأنه لا يرغب بالشراب. بدأ الناس يتحدثون عن كينيا، بلد النزاعات، «لقد جلدتنا حالة الطوارئ جلداً مبرّحاً» كان بعضهم يقول.

«أنا! حين نشبت حرب التحرير عرفت بأن عليّ أن أحارب. إياك والشك بهذا القول. أيها الجنرال، يا جنرال. أين الجنرال؟»

كل العيون التفتت تبحث عن الجنرال ر. كان يحتسي الخمرة بهدوء عند الطاولة ويتفرج على هذا المشهد بذهول. كان غيثوا لا يزال يتكلم. روى عن مآثره إبان حالة الطوارئ: كيف كان يموّن كيهيكا وثوار التحرير بالطلقات. كان الناس يحبون القصص الجيدة، ولذلك حتى أولئك الناس السكارى نسوا البيرة التي كانوا يحتسونها وأسلموا أنفسهم لإغراء المواقف البطولية في حكايات غيثوا.

«ثم في أحد الأيام ضرب الإنسان الأبيض. ويلتاه! لقد اخترقتني الرصاصة هنا»!

أشار إلى ساقه المبتورة، وميوغو ارتد إلى الخلف اشمئزازاً من جدعة ساقه الهدلاء. ومع ذلك فقد شعر، كأي إنسان آخر، بأن عواطفه مشدودة نحو هذا الرجل الذي كان أجدر بالثناء منه هو.

«لقد نسيتنا الحكومة. حاربنا من أجل الحرية. ولكن أين نحن الآن؟»

وتهدج صوته وخنقته العبرات مرة أخرى قبل أن يتحول إلى صوت إنسان متسول.

«لذلك تذكّرْني أيها الزعيم. تذكر الفقراء. تذكر غيثوا - أيها النادل، أيها النادل هات إلى هنا كوباً من البيرة. الزعيم سيدفع ثمنه - لن يبخل الزعيم بكوبٍ من الشراب على غيثوا - غيثوا المسكين».

فتش ميوغو في جيوبه وأخرج شلنين. طيلة الوقت كان يدرك بأن عيني الجنرال لم تفارقاه. وفجأة هب واقفاً على قدميه، شق طريقه بين الجمهور ومضى. وصله صوت غيثوا إلى الشارع صائحاً: «شكراً لك يا زعيم! شكراً...».

قبل أن يقطع ميوغو الطريق في القرية سمع وقع أقدام تعدو خلفه. وبعد قليل وصل إليه رجل ومشى بحذائه؛ كان الرجل هو الجنرال ر.

- «إنه إنسان مضحك! أليس كذلك؟».

- من؟

- غيثوا.

كان ميوغو يرتعد فرقاً. تزاحمت عليه الأفكار في رأسه.

«لست قادماً معك إلى الكوخ» قال الجنرال، وأردف «سأراك غداً»، واختفى بعدئذٍ بالسرعة التي جاء فيها. كان ميوغو الآن وحيداً في الظلمة. شعر أنه يستطيع أن يعانق الليل برمته، وأن يضم العالم بأسره بين راحتيه، لأنه كان قيد أنملة من الكشف: غيكونيو وغيثوا أخذاه إلى هناك. وتذكر الكلمات: سوف ينقذ أطفال المحتاجين: لا بد من أن يكون هو. لقد كان ميوغو هو من استثني لإنقاذ أناس من أمثال غيثوا، والمرأة العجوز، وأي إنسان ممن ذاقوا طعم المرارة، فلماذا لا يتصدى لتلك المهمة؟ نعم، لسوف يتحدث في احتفالات الاستقلال. لسوف يقود الشعب ويدفن ماضيه في عرفانهم بجميله. ليست ثمة دواعي لإنسان أن يعرف

عن كيهيكا بتاتاً؛ فبالنسبة لعدد قليل من الناس – أصفياء الله – غُفر لهم ماضيهم، صار نقياً من خلال الأعمال المجيدة التي أدت لإنقاذ العدد الغفير. هكذا كان واقع الحال في زمن يعقوب وعيسى، وهكذا كان في زمن موسى أيضاً.

في سريره تلك الليلة حلم بأنه عاد إلى ريرا. مجموعة من المعتقلين كانوا قد اصطفوا مقابل الجدار، عراة حتى خصورهم. كان من بينهم غيثوا وغيكونيو. ومن زاوية أخرى ظهر جون ثومبسون يصوب رشاشاً على الرجال المساكين الواقفين مقابل الجدار. كان على وشك قتلهم – إن لم يقولوا ما يعرفون عن كيهيكا. وفجأة صاح غيثوا بملء صوته: أنقذنا يا ميوغو. ردد الآخرون هذه الصرخة: أنقذنا يا ميوغو. حتى جون ثومبسون نفسه انضم إلى الرجال المتهمين وكان صوته يعلو على صوت الجميع منادياً: أنقذنا يا ميوغو. فكيف كان بوسعه أن يهمل تلك الاستغاثة المكروبة. لبّيك اللهم لبّيك. هأنذا قادم، قادم، قادم، ممتطياً صهوة غيمة راعدة. فبكى الرجال وصرخوا بصوت واحد: آمين.

وقال الرب: بأم عيني شاهدت
أحزان شعبي الذي يعيش في مصر،
وسمعت عويلهم من خلال ظلامهم،
وأنا عالم بآلامهم.

سفر الخروج: 73
(آية موسومة بخط أحمر بيد كيهيكا في إنجيله)

الفصل التاسع

إن رجالات العلم سوف ينقّبون، دونما ريب، في تلك الظروف العصيبة التي عشنا تحت وطأتها في كينيا. وربما سيوجزون العبرة التاريخية منها في عبارة واحدة. تعالوا نسألهم عن الحدث الذي وقع في ريرا: إذا استأثر باهتمام العالم وخياله؟ مع العلم أن عدداً كبيراً من المعتقلات، أكبر من هذا المعتقل، قد انتشر في كل أنحاء كينيا بدءاً بجزر ماند في المحيط الهندي وانتهاءً بجزر ماغاتا في بحيرة فيكتوريا.

لدى اعتقال ميوغو اقتيد إلى مخفر شرطة تيغوني ومن ثم إلى معتقل تيكا الذي كان يحتجز خلف أسواره ثوار الغابة. كان أكثر الثوار من إمبو وميرو ومواريغا. احتجز هناك لمدة ستة أشهر. وفي إحدى المراحل ظن بأن هذا المعتقل هو مكان استقراره الأبدي. وفي صباح أحد الأيام الباردة حُشر المعتقلون كلهم في شاحنات حكومية، دون سابق إنذار، واقتيدوا إلى محطة القطار. نوافذ العربات التي نقلتهم إلى مانياني كانت مغطاة بالأسلاك الشائكة تحسباً لأية محاولة هرب. كان العساكر في انتظارهم في مانياني، وحالما خرجوا من القطار طلب إليهم أن يقعدوا القرفصاء على شكل صفوف طويلة وأيديهم فوق رؤوسهم. طفق العساكر يضربونهم بالهراوات وهم يشجعون بعضهم بعضاً بشكل سافر. اضربوهم على نحو أقوى لأن الإنسان الأبيض هو الذي أتى بهم إلى هنا لا نحن. كان معتقل مانياني مقسماً إلى ثلاثة معسكرات ضخمة: أ، ب، ج. المجمّع ج الذي حشر فيه ميوغو كان وقفاً على ذوي الرؤوس اليابسة. كان كل مجمع

يتوزع إلى أجنحة يضم الجناح الواحد عشرة عنابر. أحد العنابر الكبيرة كان يؤوي حوالي ستمائة رجل.

بعد سلسلة من إجراءات التنخيل، نقل ميوغو وبعض المعتقلين الآخرين، والأصفاد في أيديهم وأرجلهم، إلى ريرا.

كان معتقل ريرا يقع في مكان قصيّ من كينيا بالقرب من الساحل حيث لم يكن المطر يهطل هناك ولا تنبت في تلك المنطقة إلا الرمال - الرمال والصخور. المعتقلون الذي أخذوا إلى هناك كانوا زمرة من الرجال الذين أقسموا على عدم التعاون مع الحكومة ما دام كينياتا في السجن. كانوا يرفضون الإجابة على الأسئلة وكثيراً ما كانوا يرفضون الذهاب إلى العمل.

وجد ميوغو أن الأحوال هنا أسوأ مما كانت عليه في مانياني. جرايات الطعام كانت قليلة.

اللحم: 240 غراماً في الأسبوع.

الطحين: 210 غراماً في اليوم.

هنا قُدّر على ميوغو أن يقابل جون ثومبسون للمرة الثانية.

إن النجاح المفاجئ الذي أصابه ثومبسون في يالا كان باهراً جداً مما أدى إلى نقله إلى ريرا على جناح السرعة. أدخل ثومبسون روحاً جديدة إلى ريرا. تسلية شائعة في ريرا كانت دفن أحد الرجال، عارياً، في الرمضاء، وتركه هناك الليل بطوله في بعض الأحيان. وضع ثومبسون حداً لوسيلة انتزاع الاعترافات هذه. بدلاً من ذلك كان يلقي محاضرات على مجموعات من المعتقلين، عن مباهج البيت، وعن إمكانية عودة المعتقلين إلى بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم حال اعترافهم بالحقيقة. هذه الطريقة أضعفت المقاومة في معتقلات أخرى مما جعل الأمل يدغدغ أحلام ثومبسون في أن تفضي إلى ذلك السحر نفسه. في الأشهر الأولى لسلطته تحسّنت ظروف الصحة العامة في ريرا. فيما سبق كان يُترك المعتقلون المصابون بالتيفوئيد إلى أن يموتوا. الآن صاروا ينقلون إلى المستشفى مباشرة.

وحين اعتبر ثومبسون أن الفرصة أصبحت سانحة شرع يستدعيهم إلى مكتبه فرادى. نظريته التي نضجت عنده وبلغت مستوى القناعة على مر السنين من خلال تعامله مع الأفريقيين وإدارة شؤونهم كانت: افعل دائماً الشيء غير المرتقب. ولكنه وجد هنا أناساً مختلفين، رجالاً لا يفتحون حتى أفواههم، رجالاً يحملقون فيه وحسب. وبعد أسبوعين عيل صبره بعنادهم وأوصلوه إلى حافة الجنون. ذهب إلى بيته وصاح أمام مارغري: هؤلاء الرجال مرضى.

كان يأمل أن يأتيه الأسبوع الثالث بشيء مغاير. اتكأ في كرسيه ينتظر أن يدفع الحراس الأفريقيون إلى مكتبه بالرجل الأول.

كان ضابطان آخران يجلسان على جانبي ثومبسون.

- ما اسمك؟

- ميوغو.

- من أين أنت؟

- من ثاباي.

شعر ثومبسون بالانفراج لعثوره على رجل وافق على الأقل على الإجابة عن الأسئلة. إنها بداية طيبة؛ إذا ما اعترف إنسان واحد بالحقيقة فإن الآخرين سوف يقتفون أثره. كان يعرف ثاباي. لقد كان مدير منطقة مرتين في مقاطعة رونجي، كانت آخرهما حينما ذهب ليحل محل روبسون المغدور. وهكذا بقي لعدة ثوان يتحدث بشكل ودي عن ثاباي: يا لخضرة مناظرها، يا للطف سكانها ودماثتهم. ثم استأنف استجوابه.

- كم قسماً حلفت؟

- ولا قسماً واحداً.

جواب جعل ثومبسون يهب واقفاً على قدميه: زرع الغرفة جيئة وذهاباً، وفجأة وقف قبالة ميوغو. لقد بدا وجه هذا الرجل مألوفاً لديه على نحو غامض. ولكن كان وقتها من الصعب على المرء أن يميز وجهاً أسود عن وجه أسود آخر: إن وجوههم تبدو متشابهة جداً كالأقنعة.

- كم قسماً حلفت؟

- ولا قسماً واحداً.

- «أنت كاذب» صاح وتفصّد عرقاً.

أما ميوغو فقد كان يشعر حيال مصيره باللامبالاة. كان في حالة من اليأس كتلك الحالة التي يصبح فيها الفرد حين يكتشف أن أي نضالٍ عقيمٌ وبلا جدوى... إذا حكم عليه بالإعدام فيا مرحبا بسرعة التنفيذ.

همس أحد الضابطين بشيء ما في أذن ثومبسون، فتفرّس في وجه الرجل هنيهة. أشرقت أسارير وجهه. أمر ميوغو بالخروج من الغرفة وانكبَّ على سجل هذا الرجل.

سارت الأمور بعد ذلك من سيئ إلى أسوأ. كثير من المعتقلين لم ينبسوا ببنت شفة قط. كان ميوغو في الواقع هو الإنسان الوحيد الذي وافق على الإجابة على الأسئلة. ولكنه ما كان يفتح فمه إلا ليعيد ما سبق أن قاله في بقية المعتقلات الأخرى. لزق ثومبسون، كالقرادة، بميوغو. كان يستجوبه يومياً، ربما لأنه كان يبدو أكثر المعتقلين قرباً من الانهيار. زاد في تعذيبه. كان أحياناً يأمر الحراس بأن يجلدوا ميوغو على مرأى من المعتقلين الآخرين. وأحياناً كان يخطف السوط من الحراس، وهو في ذروة سورة غضبه، ويجلده بنفسه. ولو أن ميوغو بكى أو توسل طلباً للرأفة لربما لان ثومبسون. ولكن تراءى الآن لثومبسون أن جميع الموقوفين يسخرون منه ويحتقرونه لفشله في انتزاع صيحة من ميوغو.

ونتيجة لذلك الموقف حظي ميوغو بمقام رفيع بين بقية المعتقلين. ما وجد القنوط إلى نفسه سبيلاً وما صدرت عنه أنّة، ولعل إحساسه بأنه يستحق كل ذلك العقاب كان عامل تخدير ضد إحساسه بالألم. بيد أن المعتقلين الآخرين كانوا ينظرون إلى مقاومته للألم من منظور مختلف. لقد بثت فيهم الشجاعة فجاؤوا على شكل جماعة وكتبوا رسالة جماعية يعددون فيها مظالمهم ومطالبهم ومن بينها: أرادوا أن تطبق عليهم معاملة السجناء السياسيين وليس معاملة المجرمين، يجب زيادة جرايات الطعام.

وإن لم تنفذ هذه المطالب فسوف يضربون عن الطعام. وفعلاً اقتعد في اليوم الثالث كل المعتقلين الأرض مضربين.

وصل ثومبسون إلى شفير الجنون. «يجب استئصال الحشرات الضارة» كان يقول لنفسه في الليل متوعداً. أفلت الضباط البيض والحراس السود على الرجال. «نعم، يجب استئصال شأفة الحشرات الضارة».

ولكن الشيء الذي أشعل شرارة الميتات التي أصبحت مشهورة فيما بعد، كان عملاً شبيهاً بإثارة الشغب، وقد وقع في اليوم الثالث من الإضراب؛ إذ بينما كان بعض الحراس يجلبون الطعام للمعتقلين، قُذف حجر عليهم وشج رأس واحد منهم. فتركوا الطعام وولوا الأدبار وهم يصرخون: جريمة قتل! شغب! فضحك الموقوفون وأمطروهم بوابل من الحجارة.

إن ما وقع بعد هذا الحدث مشهور في كل أرجاء المعمورة. حشر الرجال واحتجزوا في عنابرهم. الضرب المبرح الذي صار مشهوراً الآن دام ليلاً نهاراً. مات أحد عشر رجلاً.

* * *

كان هذا الحدث سبّاقاً إلى فكر ميوغو عندما كان يسير – في اليوم التالي للحلم الذي رآه – باتجاه بيت غيكونيو. في معجزة نجاته من الموت بدأ يرى الآن يد القدر الحكيمة. لا بدّ من أنه قد استثني من الموت بالتأكيد لكي ينقذ أناساً مثل غيثوا من الفقر والبؤس. لقد ولد وحيداً لأبويه بغية إنقاذ الآخرين. الاحتمالات المثيرة لمنصبه الجديد الذي سيتسنّمه هزته وأغرته من أعماقه. لسوف يبلغ قراره إلى غيكونيو بأنه سيقود أهالي ثاباي في احتفالات يوم الاستقلال. وبعد ذلك سيقود شعبه كزعيم. عبر الصحراء إلى القدس الجديدة.

ثمة أغنية كانت تنساب من الراديو وتتناهى إلى سمع ميوغو. صوت عذب دافئ لامرأة كان يطغى على اللحن الموسيقى في الراديو. كانت الأغنية تنساب على شكل محزن بطيء – نقيض عجيب لهذا الصباح الفياض بالنور. وقف مدة من الزمن متردداً، قرب السياج الذي أحسن

تشذيبه والذي كان يحيط بالبيت. البيت الذي اتخذ شكل زاوية قائمة كان مسقوفاً بصفائح من الحديد المموّج الجديد اللامع كما كانت جدرانه الخارجية من ألواح خشب الأرز السميك. وقف هناك متيحاً لصوت مومبي أن يزعجه بشكل بهيج، وهو يرفض أن يصدق بأن النزاع يمكن أن يندس خلف هذا السياج الأنيق. وانغري غادرت البيت حاملة قصعة بيدها وسارت باتجاه بيت أصغر، حديث البناء أيضاً، يقع في الزاوية البعيدة من المجتمع. صبي صغير. عرف فيه ميوغو أنه أصل النزاع. كان يتراقص أمام وانغري. هذا المشهد سبب له الألم دونما سبب واضح.

رحبت به مومبي بابتسامة وانفرجت أسارير وجهها كأنها كانت على موعد محدد معه. استعاد في ذهنه سنوات عديدة مضت وتخيل فيها تلك الفتاة الصبية التي قابلته ذات مرة وعزّته بوفاة عمته. الآن بدا وجهها مكدوداً وأعجف. عيناها السوداوان العميقتان إلى اللانهاية، ابتعلتاه. أقلقتاه، فخاف منها.

- «كنت أريد مقابلة غيكونيو»، قال وقد امتنع عن الجلوس على المقعد الذي قدمته له. «هل هو في البيت؟».

- «إنه يمضي إلى عمله باكراً جداً» كان صوتها واضحاً ومحكماً، ولكن ميوغو تمكن من اكتشاف مسحة طفيفة من التفجّع تكمن خلف ظاهر كلماتها.

- «ألن تجلس؟» تابعت حديثها، «يجب أن تجلس وسأحضر لك فنجاناً من الشاي على جناح السرعة، لن يستغرق تحضيره أكثر من دقيقة». أصبح صوتها حيوياً ينفجر عذوبة، فجلس باستجابة غريزية لحضورها الطاغي. تفرّس في وجهها فخطر له أنه كثيراً ما أخطأ في عدم اعتبارها هي وكيهيكا أختاً وأخاً. حاجباها كان لهما انحناءة حاجبي كيهيكا نفسها، وأنفها كان له الشكل نفسه أيضاً على الرغم من أنه أصغر بقليل.

- «كيف حال أخيك؟ أقصد - أعني الأخ الأصغر، إن لك أخاً أليس كذلك؟» وحرك الشاي في الفنجان كي يخفي ارتباكه.

- «أتعني كاريوكي؟» وجلست قبالته على كرسي.
- «نعم، ذلك هو الاسم، أليس كذلك؟».
- «لقد أنهى دراسته الثانوية منذ عامين، ثم اشتغل في نيروبي في أحد البنوك قبل التحاقه بكلية ماكيريري».
- أتلك في أوغندا، مملكة أوبوتو؟
- «نعم إنه يسافر بالقطار إلى هناك. يقول بأن وصوله إلى هناك يستغرق منه يوماً وليلة. كم أشعر بالحسد... السفر بالقطار طيلة الليل والنهار... ما سافرت أنا قط في رحلة طويلة كهذه». ضحكت ضحكة خفيفة، أشرقت عيناها وكأنهما أشرقتا لفكرة السفر، جسدها كله بدا يعبر عن عودة رغبة بالحياة لديها على الرغم من المعاناة. «ولكنه لم يعد هذه المرة لقضاء العطلة في البيت، وهذا أمر سيئ، لأنه لن يشهد احتفالات يوم الخميس برمتها».

لم يشارك ميوغو في الحديث عن الاحتفالات، وانتهت المحادثة على نحو مفاجئ. فتش في ذهنه عن موضوع آخر، وحين أخفق قال بأنه يود الانصراف، وقام واقفاً.

بيد أن مومبي بقيت جالسة، وجهها جامد، كأنها لم تسمعه.

«لقد أردت أن أراك، وكنت أنا من سيأتي لزيارتك» قالت. ومع أن كلماتها لم تكن تعلو على الهمس، وصلت إليه كأوامر. فجلس منتظراً.

«ألا تلجأ أبداً إلى الأحلام؟» سألته فجأة، وتراقصت ابتسامة حزينة على شفتيها. هذا السؤال أدخل الرعب على قلب ميوغو، وأثار فيه الفزع المرعب الذي دام بضع ثوان قبل أن يخبو.

- «نعم، أحياناً، أعني أن أي إنسان يركن للأحلام».
- لا أعني تلك الأحلام العادية التي تزورك في الليل حين تكون نائماً. وإنما أحلام الصبا حين تكون شاباً وتمعن النظر في المستقبل وترى فيه أشياء عظيمة. قلبك يخفق بين جنبيك لأنك تريد الأيام أن تأتي سراعاً، وتعتقد حينها أن أحزان الحياة لا يمكن أن تقترب منك قيد أنملة.

صوتها زاد من ارتعاشات ميوغو. إنها تحيي له حلمه، تلبسه كلمات جديدة تضج بالحياة، وتنفخ فيه روحاً جديدة.

- أراودكَ حلم بهذا الشكل؟

- «ربما أحياناً» وأجفل في سريرته، ولكنها سرعان ما التقطت جوابه.

- «وصدق الحلم. إنك حلمت - نعم، كنت أعلم بأن الأحلام تصدق مع بعض الناس. أما أنا فقد كانت تراودني أحلام كثيرة، وكلها مغرقة بالواقعية» قالت وهي تنقّب في الماضي من خلال صوتها وعينيها ووجهها.

«إن هذا الأمر يحدث... يحدث... للناس حين يكونون شباباً». قال مغامراً بهذا التعليق العام.

«كان الحلم هناك»، تابعت... «حينما كان أخي يتحدث. قلبي ارتحل مع كلماته. كنت أحلم بالتضحية ابتغاء إنقاذ العديد من الناس. وعلى الرغم من أن الخوف كان ينتابني أحياناً كنت أتمنى سرعة حلول تلك الأيام. حتى بعدما تزوجت لم يتبدد الحلم. كنت أصبو لإسعاد زوجي، نعم، وكنت أيضاً أعد نفسي للوقوف إلى جانبه حين تسنح الفرصة المواتية. كان يمكن لي أن أحمل جعبة سهامه وأزوده بالسهام بالسرعة نفسها التي يقذف فيها سهامه على الأعداء. حتى إذا حمّ القضاء وتهاوى كان سيسقط بين ذراعي لأحمله بكل اطمئنان إلى البيت، إلى نفسي».

لاحظ أن البريق الذي كان يضطرم في أعماق أغوارها طفق يتراقص في عينيها. شعر بسطوتها المشؤومة عليه.

«نعم، حين اقتادوه بعيداً لم أفعل شيئاً، وحين عاد مجهداً إلى البيت في خاتمة المطاف، لم يعد بمقدوري أن أجعله سعيداً».

كانت لا تزال شابة. عرضة للغواية، ولكن ميوغو كان هو من يهرع على يديه وقدميه نحو ذلك الغور الصامت. هذا الصراع كان قاسياً عليه: فما أحب أن يغرق.

- «أتساءل أحياناً» تابعت بعد برهة صمت، «ما إذا كانت الأحلام قد راودت وامبوكو. ومع ذلك فإنها هي - هي - هل تتذكرها؟».

- وامبوكو؟

- نعم.

- لا، لا أعتقد ذلك.

- لكن يجب أن تتذكرها. أفلا تتذكر تلك المرأة التي حاولت إنقاذها، المرأة التي تعرضت للضرب في الخندق؟

- «نعم، نعم». لم يتمكن من تذكر وجهها ولكنه تذكر ثوبها الممزق من ضرب السياط وصورة الألم المرسوم على وجهها.

- لقد ماتت:

- ماتت؟

«نعم. ماتت فيما بعد. يقول الناس بأنها كانت حبلى في الشهر الثالث أو الرابع. كانت خليلة كيهيكا قبل أن يهرب إلى الغابة. إنها لم تغفر له ذلك قط. ولكنها كانت تأمل أن يعود إليها ولذلك فقلما عاشرت إنساناً آخر. ولكنها حين اعتقل كيهيكا وشنق على الشجرة، سيطر عليها شيء غريب. بقيت بضعة أيام لا تبارح البيت، ولكن حين بدأت تعاشر رجالاً آخرين لم تتوصل بالنتيجة إلا إلى تهديم سمعتها مع العساكر والحرس الوطني ومع أي عابر سبيل. ولكنها كانت ترفض، كما قيل، عروض ذلك الحارس الوطني الذي سنحت له فرصة الانتقام منها في حادثة الخندق. إنها لم تبرأ قط من ذلك الضرب المبرح وماتت بعد ثلاثة أشهر، وهي حبلى».

أخرجت منديلاً لتمسح به شيئاً في عينيها. في تلك اللحظة دخل ابنها الغرفة راكضاً. رمق الرجل بنظرة خاطفة وركض بعد ذلك إلى ركبتي أمه.

«لماذا تنتحبين؟» عاجل أمه بالسؤال وحدج ميوغو بنظرة عداء سافر. شدت مومبي الصبي إليها وكأنها تحميه من كل الأذى ومن المعرفة الهدامة. حاولت الابتسام وهمست له ببضع كلمات.

«عد إلى جدتك بسرعة. إنك لن تتركها وحيدة. أليس كذلك؟ قد يسرقها أحد أفراد قبيلة (إيريمو) وعندها ماذا ستقول؟».

تطلع الصبي إلى ميوغو ثم إلى أمه وركض خارجاً من الكوخ.

«يمكنك أن تقول بأنها ماتت من أجل أخي» تابعت مومبي، وكأنّ لم يكن ثمة انقطاع، بيد أن صوتها الآن كان أقل انفعالاً، وكان أكثر تردداً. «ضحية من الضحايا... وكانت هنالك أيضاً أنجري».

- ومن هي هذه؟

- «كانت صديقة أيضاً، صديقتي. وامبوكو وأنجري وأنا غالباً ما كنا نذهب معاً إلى القطار. ولكن كيف تقول بأن قلب أنجري كان في الواقع ينزف دماً على أخي. لقد كانت دائماً تتناحر وتتصادم مع غيرها من الرجال والفتيات. ولكن لم يكن أحد منا يعلم بأنها كانت تحلم أحلاماً سرية. وما عرفنا ذلك إلا بعد أن هربت إلى الغابة لتحارب إلى جانب كيهيكا. لقد صُرعت في إحدى المعارك، حالاً بعد موت كيهيكا».

اسودّ وجه ميوغو بعض الشيء، وتهدلت شفته السفلى قليلاً. ما كان يريد سماع أمثال تلك الأشياء. كاد يصل إلى الباب حين ناداه صوت مومبي الجفول، وجرّه جراً إلى الحاضر. وقف عند الباب وما تذكر نفسه إلا بصعوبة، وحينما استدار ببطء شعر بالخجل لكونه لا يزال واقفاً خائر القوى أمام نزواته. مومبي وقفت أيضاً وبالكاد استطاعت أن تخفي دهشتها وتشوشها.

«ما أفضيت بهذه الأشياء إلى أي إنسان آخر»، قالت وجلست ثانية «إنك تجعلني أشعر أن بمقدوري التحدث بهذه الأشياء والنظر إليها... عجيب، الآن أتذكر... أتعلم أن أخي قال ذات مرة، لا، قالها مراراً حين كان يغضب من أصدقائه، إنك تجعلني أتذكرها بشكل جيد جداً، قال بأنه لو كان عنده شيء سري هام وخطير، فإنه لن يثق أن يبوح به إلا لإنسان مثلك».

وقف ميوغو جامداً يحملق فيها بعينين خاليتين من أي تعبير. اتركيني وشأني، أراد أن يقول لها، ولكن الكلام الذي صدر عنه على شكل همس مسموع كان:

«هذه الأشياء... مؤلمة...».

جلس ميوغو مترنحاً أمام طغيان إغرائها، ضعيفاً أمام عينيها وصوتها. انتظر بينما كانت هي تجاهد لإخراج الكلمات.

«أردت أن أتحدث إليك عن زوجي» قالت صراحة وهي تحدق إلى وجهه مباشرة. وتدريجياً ذابت نظرة التحدي في عينيها واستحالت إلى نظرة تضرع ذليل صامت. كانت شفتاها المنفرجتان قليلاً ترتعشان.

«أريده لأنني. لأنني أريده قبل أي شيء آخر» قالت. بعد برهة صمت بدت عليها أمارات الانفراج. فسألت: «أتعلم عن أمر الطفل شيئاً؟».

فجأة أراد ميوغو أن يطعنها في الصميم. انتشى بهذه الرغبة الجامحة لكي يهينها لكي يجعلها تتمرغ في الوحل: لماذا حاولت هي أن تجره إلى حياتها، إلى حياة أي إنسان آخر؟

- زوجك أخبرني.

- هل أخبرك؟

- نعم.

- متى؟

- الليلة الماضية.

- وهل أخبرك بكل شيء؟

- «كل شيء... الطفل... كارانجا» حدّثها صراحة وهو يضحك من الألم في سرّه حين رآها تجفل مرة أو مرتين. كان البيت صامتاً. عينا ميوغو كانتا عدائيتين. حتى لو أجهشت بالبكاء علناً فلن يغادر البيت، لن يتزحزح، ولن يخفف عنها ولو بكلمة واحدة. ولكن في الدقيقة التالية اقتحمت مومبي ذلك الجو المشحون، وهي في ذروة الانفعال، وكأنها قد تذكرت للتو شيئاً كبيراً وهاماً.

- هل أخبرك عن البيت، عن كوخنا أقصد؟ هل أخبرك؟

- بيت - أي بيت؟ سأل مرتبكاً بشكل حقيقي.

- «البيت الذي كنا نعيش فيه قبل اعتقاله - آه، أرى أنه لم يخبرك عنه». تابعت حديثها بانتصار حزين... «من كان يمكن أن يخبره سواي؟ ولكنه لا يريد أن يعرف...».

تذكر ميوغو أن الناس الذين لم ينتقلوا إلى القرية الجديدة في الوقت المناسب طردوا من بيوتهم العتيقة وحرقت أكواخهم حتى أصبحت قاعة صفصفاً.

«حتى الآن وأنا في السرير ليلاً»، بدأت: «أتذكر ألسنة اللهيب الحمراء. كان عندنا كوخان واحد لحماتي والثاني لي أنا. قالوا لنا أن ننقل فرشنا وثيابنا وأوانينا المنزلية. رشوا بعض البنزين على سقيفة القش في كوخ حماتي. وقتها فكرت ببلادة أن ذلك ليس ضرورياً لأن القش يابس أصلاً. على كل حال، صبّوا البنزين على سقيفة القش اليابس».

كانت الشمس تسعر أوارها. جلست حماتي على كرسي إزاء كومة الأشياء من كوخينا ووقفت أنا قربها. كنت أضع غطاء على رأسي. قائد الحرس الوطني أشعل عوداً من أعواد الثقاب ورماه على السقف. لم يشتعل وسخر منه الآخرون. صاحوا وحمّوه. حاول أحدهم أن يأخذ منه أعواد الثقاب ليبين كيف يمكن أن تتم الأمور. أضحى الأمر لعبة فيما بينهم. بعد المحاولة الرابعة أو الخامسة علقت النار بالسقف. أعمدة الدخان الداكنة والفاتحة خرجت متعرجة من السقف وانطلقت ألسنة اللهيب تطاول عنان السماء. ذهبوا إلى كوخي. ما كان بوسعي أن أتحمل إعادة اللعبة ولذلك أغلقت عيني. أردت أن أصرخ ولكنني كنت قد فقدت صوتي ولأن الصوت لم يخرج من حلقي، فجأة تذكرت حماتي بجانبي وأردت إبعادها عن هذا المشهد كي أجنبها رؤية الأمر حتى نهايته. لأن ذينك الكوخين كانا يعنيان الكثير بالنسبة لها، لأنها كانت قد بنتهما بيديها بعد أن طلقها واروهيو، زوجها في وادي ريفت، وطردها من بيته.

ولكنها على كل حال دفعت يديّ بعيداً وهزت رأسها قليلاً واستمرت تحدق في ألسنة اللهيب. بدأ السطحان يفرقعان. أتذكر الألم كلما عادت ذكرى الفرقعة إلى قلبي. وسرعان ما تهاوى السطحان، واحد بعد الآخر، ورافقهما دوي هائل. ولكنها لم تبعد عينيها عن ذلك المشهد – شيء في قلبي تداعى أيضاً، شيء في سريرتي فرقع حين رأيت بيتنا يتداعى.

إن تقويض ثاباي القديمة حدث بعد سقوط مخفر (ماهي) على يد كيهيكا وزمرته من الثوار. إن الضربة التي حلت (بماهي) قد أثارت ثائرة الحكومة. يقال بأن الإنسان الأسود في نايري، وموانغي وماتيمو الذي سمع، في غفلة لحظة الحماس، أخبار الاحتلال من الراديو، قد نقل توّاً إلى مانياني، أشهر المعتقلات وأكبرها في البلاد. فرض الحظر على انتشار هذا النبأ، ولكن الراديو أكّد ما كان يعرفه كل الناس في منطقة الغيكويو. ردت الحكومة الحجر من حيث أتى. كل المراكز التجارية الأفريقية من أمثال رونجي كان سيتم إقفالها «حرصاً على الأمن والهدوء». كان على الناس أن ينتقلوا إلى قرى أقل عدداً وأقل تباعداً. في البداية ظن الناس أن هذا الأمر ليس أكثر من إشاعة بعيدة الاحتمال، ولذلك هزوا أكتافهم تكذيباً لها واستمروا يندبون أقدار أولئك الناس الذين مضوا إلى المعتقلات أو إلى الغابة: ترى هل يعودون؟ كان ثوماس روبسون وقتها مدير المنطقة، عقد الاجتماعات في كل نجد ممهلاً الناس شهرين لتقويض البيوت القديمة وبناء البيوت الجديدة.

سيطر الغم على مومبي لعدم وجود رجل في البيت. وفي النهاية ربطت حزاماً حول خصرها واشتغلت كما يشتغل الرجل. فأزالت الأنقاض من الموقع بالتعاون مع وانغري. جاء كارانجا وساعدهما في رسم مخطط الكوخ على الأرض. كان صامتاً ومتحفظاً ولكن مومبي كانت في شغل شاغل عن ملاحظة تحفظ رجل يعاني أزمة ما. أصبح الموقع جاهزاً في غضون أيام قلائل. تمثلت الخطوة التالية في ذهاب مومبي إلى حرجة أبيها الصغيرة واحتطاب أشجار الطلح السوداء لتجعل منها الدعائم

والأعمدة. كانت هذه الأيام هي الأيام التي لم ينبعث فيها الدخان من أي كوخ من الأكواخ في ثاباي لأن الرجال والنساء ما كانوا يعودون إلى بيوتهم إلا مع حلول الظلام، لكي يعاودوا العمل في الموقع في صبيحة اليوم التالي: وبين عشية وضحاها كبر الأطفال وصاروا رجالاً، وارتدت النساء البنطلونات، ولكن الأطفال المحرومين على ظهور أمهاتهم ما كفوا عن العويل طلباً للغذاء والرعاية. كان كاريوكي يترك المدرسة في الرابعة يومياً ويهرول عائداً إلى البيت لمساعدة أخته في البناء.

كان الرجال، حين يشاهدون نسوة من أمثال مومبي يعتلين السطوح ويطرقن المسامير، يتوقفون ويقولون لمكايدتهن: أنتن تكابدن كل هذا لأن امرأة – في إنكلترا – ارتقت العرش: هل نجم خير في الدنيا من حكم امرأة؟

«آه، ليس هذا القول صحيحاً» كان النسوة يجبْن في بعض الأحيان وهنّ مسرورات لمقاطعتهن. «أليس للحاكم بارينغ، الذي يحكم كينيا، قضيب؟».

«آه، انظرن كيف أنتن معشر النساء قد أرسلتن كل الذكور إلى المعتقل حتى تتعفّن قضبانهم هناك، كأزواج بالإكراه للملكة إليزابيث؟».

«وللغابات أيضاً» كان النسوة يتفجرن قائلات، وقد انقلب مزاجهن إلى حسرة. ودون إضافة كلمة أخرى كان يهرع الرجال إلى مواقع عملهم كي يواصلوا ضجيج المعادن بتطريق المسامير بالمطارق.

إن المساعدة المتقطعة التي قدمها كارانجا، ناهيك عن مساعدة كاريوكي، لم تكن كافية، وكان كوخ مومبي بحاجة إلى التسييع حين انتهى الشهران الرسميان، فمكثت مومبي ووانغري في كوخيهما العتيقين، وهما تستعدان لتسييع جدران كوخهما الجديد خلال يوم أو يومين. ولكن في اليوم التالي وصل أفراد الحرس الوطني. فتحت مومبي الباب، رأت وجوههم الخانقة، وهرعت عائدة إلى الداخل كي تعدّ وانغري للحقيقة.

«كنت أعلم بأنهم آتون يا طفلتي» قالت وانغري بكآبة وبدأت بإزالة الأواني المنزلية وأشياء أخرى من المكان الذي أصبح في حكم الأنقاض.

انصرف أفراد الحرس الوطني بكل هدوء كأنهم قد أدوا أحد الطقوس، عيونهم كانت تستجدي مباركة فعلهم من وجه روبسون. ساق روبسون سيارته. كان هناك العديد من الأكواخ بحاجة للحرق والنهار قصير.

قبل حلول الظلام كان آخر جدار من جدران قرية ثاباي العتيقة قد أصبح ركاماً: كان الوحل والسخام والرماد دلائل تشير إلى الأمكنة التي كانت فيها الأكواخ من قبل.

في تلك الليلة بت وأخي في كوخنا الذي لم يكن قد اكتمل بعد. خرق والدي أمر حظر التجول وجاء في عتمة الليل ليأخذنا إلى بيته. بيد أن حماتي رفضت الانتقال وما كان بوسعي تركها وحيدة، كان السطح مسقوفاً بالحشيش ولكن الجدران كانت بلا تسييع. طيلة الليل كانت الرياح الباردة تخترق ثقوب الجدران وتلسعنا من كل جانب. ومع أنني كنت قد تغطيت بدثار عتيق وبكيس من ليف السيزال فإنني بقيت أرتجف من شدة البرد. لا أعتقد بأنني أغمضت عيني لحظة واحدة. كنت أعلم أن حماتي لم تكن غافية أيضاً، ولكننا لم نتبادل الحديث. لقد كانت تلك الليلة في الواقع ليلة ليلاء.

منذ ذلك اليوم تكررت زيارات كارانجا إلى محلنا ليستفسر عن صحتنا وليجلب لنا الطعام في بعض الأحيان. وعلى الرغم من أنه كان هادئاً فقد كان يبدو أن القلق يساوره لأمر ما. في البداية لم ألاحظ هذا، كما أنني لم ألاحظ بتاتاً تزايد زياراته لنا لأنني كنت منهمكة في تمريض حماتي التي أصبحت بعد حرق بيتنا وتقويضه، دائمة الشكوى من آلام في المعدة وفي الرأس وفي المفاصل. أحد الأيام وجدني أكسر الحطب خارج الكوخ. وقف هناك ونظر إلي دون أن ينبس ببنت شفه. إنني أمقت أن يراقبني الآخرون وأنا في غمرة عملي لأنني سرعان ما أشعر بالقلق وأفشل في التحكّم بيدي على نحو صحيح. لذلك قلت له: «هيا ساعد امرأة في تكسير الحطب». أخذ الفأس مني وقام بالعمل بدلاً مني. كان لا يزال صامتاً. «ادخل لتناول فنجان من الشاي كما يتناوله أي عامل» قلت

له. وعندما انثنيت لتناول قطع الحطب مدّ يده وربت على رأسي وقال هامساً: مومبي. تطلعت إليه بسرعة ولاحظت بأنه كان ينوي أن يقول لي شيئاً ما. أصابني الذعر. كان كارانجا قد تقدم لخطوبتي مرة بعد أسبوع أو ما يقاربه من قبولي الزواج بغيكونيو. وقتها سخرت من عواطفه وذكّرته بأن غيكونيو صديق حميم له. بعدها ما تقدم لخطوبتي مرة أخرى. وثابر على زياراته لزوجي. لا بد من أنه الآن قد لاحظ الذعر في عيني لأنه سرعان ما انصرف دون أن يقول شيئاً، وحتى دون أن ينظر خلفه. وإنني أتصور بأنه لو نظر خلفه لدعوته للرجوع لأنني أصبحت مثقلة بأفكار الندم: لا بدّ من أن شيئاً ثقيلاً كان يجثم على صدره. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يترفق بي وبحماتي كما يجب أن يكون الصديق.

لم يعد ثانية. سرعان ما ألقي القبض، بعد ذلك، على كيهيكا عند طرف غابة كينني وشنق بعدئذ على شجرة من الأشجار. أتعلم أن أبي وقتها، وقد كان محارباً في الماضي وذائع الصيت من نايري إلى كابيت، قد تبوّل على ساقيه؟ لقد بكى كالطفل الليل بطوله، في الوقت الذي كانت فيه وانجيكو، أمي الفعلية، تواسيه. منذ ذلك اليوم أصبح الاثنان أبوين محطمين. وأعتقد بأنهما لولا إيمانهما وأملهما بكاريوكي لماتا. وأنا مرضت أيضاً وبقيت طيلة ليلتين أتقيأ كل ما يدخل جوفي من طعام أو شراب. وجاء بعدئذ، كما تعلم، العقاب. كان على ثاباي أن تدفع ثمن أفعال أخي. أنت تعرف حادثة الخندق، بدايتها على الأقل. إذ وقتها فقط، بعد اعتقالك مباشرة وأنت تحاول إنقاذ وامبوكو، علمت لأول مرة أن كارانجا قد انضم إلى الحرس الوطني. ما كنت لأصدق ذلك. لقد كان صديقاً لكيهيكا وغيكونيو، وأقسموا ثلاثتهم يمين الولاء فكيف كان بوسعه خيانتهما؟

هذه الأفكار سرعان ما تبددت أمام العمل الآني المفروض. فالخندق كان يجب أن يطوق القرية برمتها. وبعد أن اقتادوك لم يكن الضرب يتناول فرداً هنا وفرداً هناك، بل دخل العساكر والحرس الوطني إلى الخندق

وضربوا أي إنسان حاول أن يرفع ظهره أو حاول أن يتقاعس في عمله بصورة من الصور. لقد حشرونا في الخندق حشراً لأن زمن إنجازه كان محدداً. لقد سُمح للنساء بإجازة مدتها ساعتان فقط قبل مغيب الشمس بغية الذهاب والتفتيش عن الطعام. لم يُسمح لإنسان آخر بالخروج: حتى تلامذة المدارس كان عليهم البقاء في القرية. وبعد أيام قلائل تقلصت ساعتا الإجازة إلى ساعة واحدة. وحينما كان يقترب الموعد المحدد لإنجاز الخندق سُحبت حتى هذه الساعة الواحدة. كنا سجناء في القرية وكان العساكر قد طوقوها كلها بمعسكراتهم كي يمنعوا أي هروب منها. وهكذا بقينا على هذه الحال دون طعام. كان سماع صراخ الأطفال أمراً مرعباً. ومدير المنطقة الجديد لم يكن يعير اهتماماً لصراخهم ولكنه كان يسمح للعساكر باختيار بعض النساء وحملهن إلى خيامهم. يا إلهي! لا أعرف كيف تجنبت ذلك العار. كنت أصلي كل ليلة كيلا يلطخني ذلك العار. ماتت وامبوكو في الخندق. أخذوا جثتها ودفنوها في قبر حفروه على بعد ياردات قليلة من الخندق.

هل تعلم بأننا جميعنا حسبنا أن نهاية العالم قد دنت؟

ثم في أحد الأيام بدأنا الغناء. زيد عدد العساكر والحرس الوطني في الخندق. جاؤوا بالسياط والعصي ولكنها، لأمر ما، لم تخرس أصواتنا. كان يبدأ الغناء رجل أو امرأة من أحد أطراف الخندق ثم نشارك جميعنا بالغناء مبتكرين كلمات من العدم:

بنو إسرائيل
حينما كانوا في مصر
أجبروا على القيام بعمل
أشقّ من العمل الذي تقوم به الأبقار والحمير.

ولكن أهم أغنية أثارت أشجاننا كانت تلك الأغنية التي غنّيناها عن وامبوكو وهي راقدة في قبرها:

حين أتذكر وامبوكو
وقد كانت امرأة آية في الجمال
كيف كانت تشيح ببصرها إلى السماء
وتنهل الدموع من قلبها بسخاء
صلوا للإله بصدق
سبّحوه بصدق
لأنه أبداً الإله الواحد نفسه.
من الذي سينسى شمس وغبار هذا اليوم.
والخندق الذي حفرته بالدم!
حين رموا بي في الخندق
انهلّت الدموع من قلبي بسخاء.

توقفت مومبي عن سرد روايتها لكي تدندن ألحان الأغنية لميوغو، وتحاول إضافة كلمتين مناسبتين بدلاً من الكلمتين اللتين نسيتهما. كانت الألحان بطيئة، استفزازية ولكنها مفجعة، وترقرقت الدموع في مآقيها بشكل واضح. كان نهداها يتراقصان مع الأغنية وكان ميوغو متسمراً في مقعده، يحاول أن يخفف عن نفسه آلام مشهد لم يشهده قط لأنه كان قيد الاعتقال في ذلك الوقت.

المعلولون والشيوخ - كوالدي - والأولاد لم يفرض عليهم العمل. ولكن كان عليهم أن يجلسوا حول الخندق لكي يشاهدوا زوجاتهم وأبنائهم وبناتهم أو أمهاتهم يشتغلون ويتحملون السياط.

كل يوم كان يأتي مدير المنطقة ببوقه ليذكرنا مراراً وتكراراً بسبب عقوبتنا. كانت ثاباي تحذيراً لبقية القرى كيلا تقدم الطعام أو أي نوع من أنواع المساعدة لأولئك الثوار.

امرأتان أُخريان ماتتا. حفرة أخرى حفرت قرب الخندق.

طيلة هذه الفترة ما رأيت كارانجا. قال الناس بأنهم لمحوه هنا أو هناك

حول الخندق، ولكنه ما ظهر بتاتاً في المكان الذي كنت أشتغل فيه. في هذه الأثناء نفد مخزون طعامنا. ما كان بمقدوري أن أطلب المساعدة من الجيران لأن العديدين منهم كانوا في حالة مماثلة لحالتنا. كان المرء ذلك الوقت يكره أي ضيف يزوره أثناء تناوله وجبة من الطعام، لا، لم يكن أي منا يزور الآخر. وجاء يوم شعرت فيه بأنني لا أستطيع أن أتحمل وطأة ذلك. وعلي أن أعترف لك بأن حماتي ووالديّ قد تحملوا أكثر مني، أما أنا فقد شعرت بأنني لن أبقى يوماً آخر على قيد الحياة. وفي تلك الليلة زار كارانجا محلنا. ما رضي بالدخول فخرجت أنا إليه. كان قد جلب لنا بعض الخبز تحت جنح الظلام. تحلّب اللعاب في فمي. (أرأيت قط فم كلب يتضور جوعاً لدى رؤية الطعام؟). ولكن لرؤية البندقية التي كان يحملها، خانتني شجاعتي وشهيتي وما كان بمقدوري أن أستلم منه الطعام الذي قدمه. عدت أدراجي إلى داخل الكوخ. (وقتها راجت الإشاعات بأن كارانجا هو الإنسان الذي وشى بأخي). لم أخبر وانغري بما جرى ولم توجه هي لي أية أسئلة، ولكن لدى رؤيتي جسدها المهزول شعرت بالإثم لرفضي الطعام. تصورت أنها ستموت، كلنا سنموت، فانتحبت بصمت. وعرفت كذلك أن والديّ وكاريوكي كانوا أيضاً يتضورون جوعاً.

- مات رجلان.

توقف غناؤنا فجأة. ولم نعد نسمع جرس أي صوت بشري، وحتى الأطفال الصغار بدا أنهم قد كفوا عن البكاء من الجوع. استمرت أصوات المجارف والرفوش والمعاول والسياط. يا له من يوم عجيب: فقدت فيه الإحساس بأي شيء. وجاء كارانجا تلك الليلة مرة أخرى. لم أستطع أن أتبين ملامحه بوضوح في الظلمة، ولكنني استجمعت كل ما تبقى لدي من قوة وحركت شفتيّ وتركت كلمة «يهوذا» تفلت من فمي. وحين تكلم معي كان صوته يبدو لي بعيداً أميالاً عديدة عن المكان الذي كنت أقف فيه. «خذي طحين الذرة هذا وهذا الخبز وإلا فسوف تموتين من الجوع. لست من وشى بكيهيكا، لست أنا. وأما بالنسبة لتنكّبي هذه البندقية

لصالح الإنسان الأبيض، لا بأس، سيأتي وقت تدركين فيه أنت أيضاً أن أي إنسان في هذه الدنيا قد خلق وحيداً، وعليه أن يصارع وحيداً لكي يعيش»، ومضى. صدقته بعض الشيء، عما قاله بصدد أخي. ولكنني على الرغم من عدم تصديق كلماته كان في نيتي استلام الطعام الذي جلبه. إنني متأكدة من نيتي تلك، - مع العلم أن كلماته قد هوّنت ذلك الأمر علي. حين دخلت الكوخ شعرت بالخجل حتى وأنا في غمرة جوعي ولذلك فلم أتمكن من أن أكشف لانغري عن كيفية حصولي على الطعام. لم توجه إليّ أي استفسار، ولا أبويّ ولا أخي الأصغر، حين أعطيتهم الطعام في اليوم التالي. بقيت عدة أيام أسير مطرقة الرأس. في ذلك الوقت كان عدد من النساء يقدمن أجسادهن للعساكر مقابل حصولهن على النزر اليسير من الطعام، وشعرت بأنني بقبولي الطعام من كارانجا لم أكن أختلف عنهن. حتى هذا اليوم لم أبح لإنسان قط عن مصدر الطعام الذي أنقذ حياتنا، لأنني ما زلت، والحق أقول، أشعر بالخجل.

«مات واحد وعشرون رجلاً وامرأة دفعة واحدة. دفنوا قرب الخندق. الغريب في الأمر أنه لم يمت حتى طفل واحد خلال تلك الفترة».

«بعد الخندق بدأت أشتغل في المستوطنة. وأولئك الناس الذين اشتغلوا للبيض في مزارعهم أو في بيوتهم، استلموا بطاقات تعفيهم من العمل الإجباري الذي بقي وقفاً على من بقي في القرية، وكان حصولهم على بطاقات المرور أمراً أيسر. كان يجب أن تكون بطاقة مرورك ممهورة بخاتم مدير المنطقة كي تستطيع الانتقال من منطقة الاحتياط إلى المزارع الأوروبية أو من موقع إلى آخر. لقد كنت طيبة الحظ على العموم لأنني كنت أتقاضى تسعة شلنات أسبوعياً مقابل ستة أو أربعة شلنات فقط يتقاضاها غيري في مختلف المزارع. كنا نشتغل في مزارع الشاي الكبيرة، أحياناً نعزق الأعشاب وأحياناً نقطف أوراق الشاي. وبالنقود التي كنت أكسبها كنت أشتري الطحين الذي بفضله بقينا خمستنا على قيد الحياة. عقدت العزم على رفض أية مساعدة أخرى من كارانجا الذي كان الآن قد

بدأ يشق طريقه نحو الأعلى وأَضحى قائداً للحرس الوطني. كان كاريوكي يتقدم جيداً في المدرسة - دفعت عنه أقساطه المدرسية. رأينا فيه أمل المستقبل؛ لا شيء يفْضل الثقافة».

طيلة هذا الزمن ما انقطعت عن التفكير بزوجي. وبدا لي أنه لو كان معنا لسار كل شيء في مساره الصحيح. وكرّت الشهور والسنون. ما سمعنا شيئاً قط عن أولئك الذين اقتيدوا إلى المعتقل. قالت الإذاعة بأنهم لن يعودوا بتاتاً. لم نصدق ذلك، ولكن جهاراً كان واحدنا يقول للآخر بأن رجالنا لن يعودوا. وإذا صادف وعّبرت إحدى النساء عن فكرة مغايرة كنا نحدجها بنظرات الغضب - ونطلب منها أن تغلق فمها: «من أين لها أن تعرف؟» ولكننا في أعماقنا كنا نلوك كلمات الأمل بنهم كبير وكنا بأمس الحاجة لأي إنسان يشدّ من أزرنا بإصراره على القول بأن المعتقلين لا بدّ عائدون في يوم من الأيام.

في هذه الفترة حدث أمر للقائد موروثيا جعلنا كلنا نتوجس خيفة من خندق آخر. كان القائد موروثيا، وقد كان المسؤول عن هذه المنطقة، ذائع الصيت أينما كان لقسوته. لقد كان بمنتهى القسوة ولا سيّما مع أولئك الأفراد من قبيلة الغيكوبو الطامعين بالأراضي الاحتياطية للقبيلة والقادمين من وادي ريفت ومن أوغندا ومن تانجانيقا، سمعنا في أحد الأيام بأن الرصاص قد أطلق عليه وهو في طريقه إلى إندي يا، في وضح النهار. وأما الرجل الذي أطلق عليه الرصاص فقد كان يرتدي سترة عسكرية ويعتمر قبعة عسكرية على رأسه، وكان يتبع القائد وحرسه من على بعد مسافة مأمونة. فكان إذا وقف القائد وقف هذا الرجل أيضاً وانحنى متذرعاً يربط حذائه أو متظاهراً بالتبول. ثم دخل الغابة، ركض وسبقهم، وأطلق النار على القائد، لقد قالوا بأنه قهقه ضاحكاً علناً حين تراكض حرس القائد، من حرس وطني وشرطة، بغية الاختباء. وتمكن من الاختفاء في الغابة قبل أن يتمكنوا من إطلاق الرصاص عليه. لم يمت القائد فوراً بل نقل إلى مستشفى تيمورو. وبعد أسبوعين ذهب رجلان

يحملان سلة مليئة بالأطعمة لعيادة القائد المريض. وبما أنهما كانا يؤديان مهمة رسمية فقد سُمح لهما بالاقتراب من سريره. فصرعاه هناك وقفزا من النافذة وعادا إلى الغابة.

في تلك الفترة أصبح كارانجا قائداً. ويا للسرعة التي برهن بها عن نفسه على أنه إنسان مرعب أكثر من سلفه. لقد بدأ يقود الحرس الوطني إلى الغابة لاصطياد الثوار. وخلال مرحلة سلطته هذه اقتيدت من القرية إلى المعتقلات حتى البقية الباقية من الرجال المناسبين. وبلغ ذروة الصرامة في تطبيق أحكام حظر التجول وفرض العمل الإجباري. صادفته ذات يوم وأنا عائدة من العمل. توقف وناداني. تابعت سيري. اثنان من الحرس الوطني ركضا إلي وهدّداني بالضرب. ولكن كارانجا أمرهما أن يتركاني وشأني وطلب منهما أن يسبقاه قليلاً، قائلاً بأنه سوف يتبعهما عما قليل.

- لماذا لم تتركهما يقتلاني؟ انفجرت صائحة في وجهه.

- رجاءً يا مومبي.

- إياك أن تناديني باسمي مومبي، مومبي.

كنت غاضبة وما كنت أريده أن يذكرني بأعطية الطعام. كنت أتوق إلى أي شيء يحل لي عقدة الذنب تلك التي ربطتني به.

- لماذا يا مومبي تكنّين لي مثل هذا البغض؟ تابع حديثه وأغدق علي كلماته العاطفية. لقد أحبني، كما قال، وما كان يريد سواي، وأنه جنّب نفسه الاعتقال والغابات كرمى لي.

أليس من الغريب أننا نصطنع الدوافع العديدة لأفعالنا كي تلائم المناسبة؟ على كل حال، لم أعد حانقة عليه، صرت أحتقره الآن. لقد بدا بأنه جدير بالازدراء فعلاً وهو في بزة الخاكي الرسمية متنكباً بندقية ضخمة متحدثاً عن الحب على قارعة الطريق. حتى إنني ابتسمت ابتسامة طفيفة، ضايقته كما بدا لي، ولكنه لم يتوقف عن سيل الكلمات التي كان يتفوه بها. لم تؤثر بي كلماته. أردت أن أجرح مشاعره، أن أضربه ضربة في الصميم انتقاماً لكيهيكا وغيكونيو وأي إنسان آخر.

لماذا لا ترتدي تنورة أمك وقميصها الجلدي؟ ففي الوقت الذي نهض فيه الآخرون للحرب تخلفت أنت كي تلعق أقدام أزواجك البيض. قلت هذا بمنتهى الوضوح حتى إنني خلته سوف يصفعني. هذا الكلام طعنه في الصميم فعلاً، فارتعشت شفتاه وجاهد كي يقول شيئاً ما. امتقع وجهه وكمد لونه، وبعدئذ تكلم على نحو بطيء وواضح أيضاً.

- إنك لا تفقهين. أتريدين منا جميعاً أن نموت في الغابة أو في المعتقلات لكي يتمكن الإنسان الأبيض من أن يعيش بمفرده هنا على هذه الأرض؟ الإنسان الأبيض قوي. إياك أن تنسي هذا أبداً. أنا أعرف ذلك لأنني تذوقت قوته. إياك أن تخدعي نفسك أبداً وتظني بأن جومو كينياتا سيطلق سراحه أبد الدهر من لودوار. ولسوف يقصف البريطانيون الغابة بالقنابل كما فعلوا في اليابان وفي مالايا. وأولئك الناس الموجودون في المعتقلات لن يروا أبداً هذه الأرض مرة أخرى. لا، يا مومبي. لقد بقي الجبان حياً لكي يعتني بأمه، وأما الشجاع فقد خرّ صريعاً في ساحة الوغى. وليس من الجبن في شيء أن يتحاشى المرء الضربة.

أفزعتني هذه الكلمات.

- اتركني وشأني. وما بالك لا تتركني وشأني! صرخت في وجهه وقد شعرت بالضعف. فانصرف. خيمت الكآبة على نفسي واسودّ قلبي. كان قوله بأن غيكونيو لن يعود البتة قسوة بالغة منه.

ومع ذلك فقد ذهبت حوالي نهاية العام أبحث عن كارانجا في بيته في مركز الحرس الوطني. كان برفقتي كاريوكي لأنه كان قد اجتاز امتحان الكفاءة وكان الصبي الوحيد في هذه النجود الذي له مكان في مدرسة سيريانا الثانوية. هذا ما أغضب العديد من الناس الذين كانوا يتساءلون: لماذا يسمح لصبي أخوه في الغابة أن يلتحق بمدرسة حكومية بينما لا يسمح لأبناء الموالين؟ ولكنهم لم يستطيعوا منعه من ذلك إلا بعد أن برهنوا على أنه أقسم اليمين. وهذا هو السبب الذي دفعني لزيارة بيت القائد. لم يثر كارانجا أية أسئلة. أعطانا رسالة ضمنها توكيده بأن

كاريوكي، بعد إجراء التحريات المناسبة، لم يقسم اليمين. وقتها شعرت بالخجل من كلماتي اللاذعة التي كنت قد وجهتها لكارانجا.

لم تعد الحياة إلى والديّ إلا بعد أن التحق كاريوكي بمدرسة سيريانا. حتى إن ميوغوا طفق يتحدث عن المستقبل وانهلت دموع الفرح من عيني وانجيكو. وأنا أيضاً غمرتني البهجة ولكنني لم أستطع أن أنسى، ولو للحظة واحدة، كلمات كارانجا حين قال بأن المعتقلين لن يعودوا بتاتاً. بدأت أتصور أن غيكونيو والآخرين قد لاقوا مصرعهم منذ زمن بعيد - فكرة كانت تؤرقني ليلاً وتصيبني بالارتجاف مما كان يمنعني من الصلاة أو النوم. لاحظت وانغري نظرات القلق في عيني وأَضحت هي الآن عزائي وسلوتي. في سنوات الانتظار تلك، اقتربنا من بعضنا أكثر من ذي قبل، ليس كحماة وكنّة، بل كشيء آخر لا أستطيع له وصفاً.

كان كارانجا دائماً يبين لي أن وفائي موقف عقيم. كانت القوات الحكومية وقتها تضرب الثوار، وما كانت تصلنا من المعتقلين رسالة أو كلمة، والإذاعة لم تعد تأتي على ذكرهم. وعلى مر السنين أصبح كارانجا صلفاً نحوي. لم يعد يتواضع أمامي كما كان يفعل من قبل، وبدلاً من ذلك كان يضحك أمامي ليجرح مشاعري. وأما أنا فقد تشبثت بغيكونيو من أعماق قلبي. كان بودي انتظاره، لأنه زوجي، حتى لو قُدّر لي ألا أجتمع به ثانية إلا في القبر. فقدت الأمل نهائياً من مقابلته على وجه هذه الأرض وعشت على ذكريات الأيام الهنيّة التي عشناها قبل حالة الطوارئ.

لن أثقل عليك بسرد قصة طويلة علماً بأن سردي لها، صراحة، يخفف الكثير من الأعباء ويجعلني أشعر براحة أكبر لكوني أفضيت لك بمكنونات فؤادي. في أحد الأيام أرسل كارانجا في طلبي إلى بيته. كان يوم خميس، كما أذكر. وكنت قد برمت بمعيشة الضنك هذه؛ إذ ما معنى الحياة إن لم تحي لشخص تحبه، لرجل يتنفس قربك ويمكنك أن تراه وتلمسه؟ غيكونيو كان ميتاً، وليس ثمة بصيص أمل لانتهاء حالة الطوارئ. على كل حال، ذهبت إلى هناك وأقسمت بأنه إن حاول شيئاً معي، حتى لو كلمة،

لآخذن قطعة من الخشب وأوسعه بها ضرباً على رأسه أو رقبته. وجدته بمفرده. وقفت عند الباب برهة من الزمن. لم ينظر إلي مباشرة. كان يبدو بأنه قد تغير. ظهر عليه القلق والتقدم بالسن قليلاً - وهذا ما أذهلني - ظننت بأنه مريض أو شيء من هذا القبيل. وهكذا دخلت وسألته عما يريد مني. لم يجبني إلا بعد هنيهة، حيث قال:

- إن زوجك عائد.

- ماذا تقول؟

- زوجك عائد - أعاد القول وحاول أن يبتسم.

شيء مؤلم بدأ يدغدغني وكأنني كنت ضحية شلل عام وكان الدم والحياة يسريان في عروقي مرة أخرى.

«أرجوك يا كارانجا لا تلعب بأعصابي»، تلعثمت. صوتي كان محطماً. قلبي كان يطفح بالخوف والأمل، كنت على استعداد لفعل أي شيء في سبيل معرفة الحقيقة.

جاء إلى المكان الذي كنت أقف فيه وأراني صفحة طويلة من الورق ممهورة بأختام الحكومة. كان فيها لائحة بأسماء أولئك المعتقلين العائدين إلى قراهم. كان بينهم اسم غيكونيو.

«ماذا تريد أن أقول لك أكثر من ذلك؟ أأقول لك بأنني أتذكر الآن بأنني كنت وقتها مغمورة بالامتنان المهيض؟ وأنني ضحكت - بل إنني رحبت بشفتي كارانجا الباردتين على وجهي؟ شعرت بأنني في عالم غريب كالمجنونة. هل علي أن أقول أكثر من ذلك؟».

«سمحت لكارانجا بمضاجعتي».

توقفت هنيهة عن الكلام. كان لا يزال ذلك البريق يتراقص في عينيها السوداوين الشهوانيتين. كانت في ميعة الصبا. كانت جميلة. كتلة ضخمة سدت حلق ميوغو. ها هو الآن يتزلزل، يرتجف، كان في قعر التيه، ولكن هناك على سطح التيه، فوقه، كانت الأرض تدور. الحياة، الصراع، حتى

ضمن الألم والدماء والفقر، بديا شيئاً جميلاً، للحظة واحدة فقط، ويحه كيف تجرأ أن يحلم ذلك الحلم، بل ذلك الوهم؟

«عندما عدت إلى نفسي وتيقنت مما حدث لي، سرت البرودة إلى نفسي، إلى جسدي كله. حاول كارانجا أن يقول أشياء لطيفة لي، ولكنني أدركت بأنه يسخر مني بزهوّ. تناولت حذاءه وقذفته به. خرجت أركض واستعصت علي الدموع. ومع أنني قبل بضع دقائق كنت في غاية الغبطة، أصبحت أشعر الآن بالكآبة في سريرتي. ذهبت إلى وانغري، ولكنني بكيت هذه المرة ولم أتمكن من الإفضاء لها صراحة بما جرى. ولكن بدا عليها أنها أدركت الأمر فشدتني إليها وحاولت تهدئة ارتعاشاتي بكلماتها».

إن إصغاء ميوغو لقصة مومبي جرده من قوته. أخذ الآن ينقب عن الكلمات المناسبة لتحطيم هذا الصمت الثقيل.

- «ماذا تريدين مني أن أفعل؟» قال وقد أضعفه الألم والاشتياق.

كانت على وشك أن تقول شيئاً ما حين سمعت طرقات متسارعة على الباب ونداء «من هنا؟». دخل الجنرال ر وفي إثره الملازم الأول كويناندو. انفرجت أسارير وجه الجنرال بالرضى، شيء لم يكن ميوغو قد رآه ليلة الأحد أو الليلة التي سبقتها. ولكن كويناندو كان يبدو شارد الذهن، كهلاً.

«لن نمكث طويلاً، قال الجنرال ر بعد أن اتخذ له مقعداً». التفت بعدئذ إلى ميوغو. كان يبدو الآن أكثر تودداً وأكثر هذراً من المعتاد.

«لقد ذهبت إلى بيتك. وحين لم أعثر عليك هناك فكرت بالمجيء إلى هنا. أفلم أقل لك بأنني سأزورك؟ أتذكر الليلة الماضية؟ كنت تبدو قلقاً، أو مضطرباً بالأحرى. كانت عيناك زائغتين ولا تريان أحداً. تحدثت معك في الخارج وكنت تجيبني بصوت غريب عليك كأنه مستعار. أليس غيثوا رجلاً غريباً؟ أسمعت ما قاله عن الطلقات»؟

«لا أستطيع - لا أستطيع أن أتذكر؟».

- «أفلا ترى؟ قلت لك بأن ذهنك لم يكن على هذه الأرض. غيثوا دائماً يقول للناس بأنه كان يزوّدنا بالطلقات. أتدري بأنه لم يمدّنا بالطلقات (حبات الذرة كما، كنا نسميها ونحن في الغابة)، ولا مرة واحدة».

- «ألم يفعل؟» سألت مومبي.

- «مطلقاً. كما أنني علمت بأنه لم يتعرض لإطلاق النار من أحد».

- كيف إذاً كسر غيثوا ساقه؟ سألت مومبي.

- ساقه؟ الشاحنة التي كان يقودها انقلبت في ناكورو، وبذلك تحطمت ساق غيثوا وتهشمت.

- «فلماذا، إذاً...».

- إنها تجعل حياته أكثر إمتاعاً. إنه يختلق معنى لحياته، ألسنا جميعاً نفعل ذلك؟ ولئن يموت المرء دفاعاً عن الحرية، فذلك موت يوحي ببطولة أكبر من أن يموت بحادث سيارة.

شعر ميوغو بأنه كان موضع امتهان غيثوا له. ها هو الآن يشرد وحيداً مرة أخرى. حلمه تشوه على يد مومبي والجنرال ر. أجفل من النظرة الثاقبة التي حدجه بها الجنرال ر. أين منه الآن ذلك الدفء الذي غمره في الليلة الماضية، وفي هذا الصباح، قبل أن يدخل بيت مومبي؟

-«ولكن لندع غيثوا وشأنه. جئنا كي نراك» قال الجنرال ر إلى ميوغو.

- «أيجب أن أخلي لكم الغرفة؟» سألت مومبي وهي تحاول النهوض.

- لا. لا قبل أن ترغبي أنت بذلك. هذا أمر يتعلق بأخيك.

- كاريوكي؟ هل أصابه مكروه؟

- لا. بل كيهيكا.

- أواه.

- «كما قلت ليلة الأحد. نحن نعتقد بأن كيهيكا كان ضحية فخ. كان في طريقه لإجراء اتصال مهم. الآن، ليس هنالك أكثر من ثلاثة أشخاص

كان من الممكن أن يذهب لمقابلتهم. أحدهم وامبوي. بيد أن كيهيكا كان قد أوفد وامبوي إلى ناكورو وزودها برسائل إلى عملائنا. والشخص الآخر هو أنت» قال محملقاً في ميوغو. أحشاء ميوغو تشنّجت.

«ولكن كل طفل يعلم ما عملته أنت لكيهيكا وما فعل بك الإنسان الأبيض لقاء ذلك».

– من هو ذاك الرجل؟ سألت مومبي وقد شعرت بالانفراج.

– صديق وليس بصديق. ما المثل الذي كان كيهيكا يلهج دائماً به؟ آه، إنه «من مأمنه يؤتى الحَذِرْ».

– من هذا الرجل؟ ألحت مومبي بالسؤال وقد عيل صبرها.

– لقد قال كيهيكا مرة أو مرتين بأنه يريد مقابلة كارانجا.

– يا إلهي! تساءلت ونظرت إلى ميوغو.

– وحالما اعتقل كيهيكا التحق كارانجا بالحرس الوطني. إن سلوكه في غيثيما لهو دليل على إثمه. كوينادو كان هناك البارحة.

أجفل كوينادو ونظر إلى الجنرال. بدا الفسوق على وجهه والزوغان على عينيه.

«ولن أعود إلى هناك. أبداً أبداً». انفجر قائلاً بصوت غير عادي. نظرت مومبي والجنرال إليه.

– ما خطبك؟ سأل الجنرال.

– «لا شيء، لا شيء» قال كوينادو وهو يحاول جاهداً السيطرة على اضطرابه. «لا تلقوا بالاً إلي. أشعر بأنني لست على ما يرام».

– «يجب أن ترقد في السرير» قالت مومبي وقد سيطر عليها القلق. «أتريد بعض حبات الأسبرو؟»

– «لا، إنه مجرد صداع طفيف».

– «ماذا، ماذا تريدان – ماذا أردتما مني؟» ميوغو الذي كان شارد الذهن بأفكاره الخاصة، أطلق زفيره على نحو بطيء.

أردنا رؤيتك بخصوص احتفالات يوم الخميس. دعني أقول لك قبل كل شيء بأنني ما أقمت الصلاة لله قط. ما آمنت به قط. أنا أؤمن بالغيكويو وبمومبي وبالناس السود أهل بلادنا هذه. ولكنني أقمت الصلاة مرة واحد فقط ذات يوم. كنت ذات يوم وحيداً في الغابة، فركعت وصحت من صميم فؤادي: يا رب، إذا كنت هناك في السماوات، لئن نجّيتني لأجدنّ القاتل الحقيقي لكيهيكا. وها قد حان الوقت، وأينعت الرؤوس التي حان قطافها. يوم الخميس سوف يحتشد الناس في سوق رونجي لإحياء ذكرى كيهيكا. وفي غيثيما كلّفنا موارا بإقناع كارانجا بحضور هذا الاجتماع. ولذلك فإن ما يجب عليك أن تفعله هو أن تعلن في نهاية خطابك أن على الرجل الذي وشى بكيهيكا أن يتقدم إلى الأمام - ليقف مجللاً بالعار أمام الشعب. لأن كارانجا بتسليمه كيهيكا إلى الإنسان الأبيض يكون قد سلّم وخان الناس السود أينما وجدوا على وجه الأرض.

صمت مشحون بالتوتر خيم على الحضور بعد الحديث الحماسي للجنرال. بدا كل إنسان في البيت وكأنه غارق في خضم حياته الخاصة - في مخاوفه وآماله. كان الجو متوتراً - كالحبل المشدود، إذا شددته انقطع. وعلى حين غرة وقف ميوغو، مرتجفاً، من عبء قرار مفاجئ.

«لا يمكن لذلك أن يكون» قال. «جئت إلى هنا كي أخبر غيكونيو والحزب بأنني لست الإنسان المناسب للقيادة. ويجب على الحزب أن يفتش عن قائد غيري».

كان صوته متهدجاً. جاهد لكي ينطق بكلمة أخرى، ولكنه اندفع خارجاً على نحو مباغت.

***

الفصْل العاشِرُ

إن القرار بإقناع كارانجا، وفي حال فشل ذلك إجباره، على حضور الاحتفال الكبير في رونجي، كان قد اتخذ الليلة السابقة إثر المقابلة التي تمت مع الملازم الأول كويناندو موارا.

لقد أكدت تقارير موارا ما كان موضع شك بالنسبة للجنرال ر: كارانجا كان هو الرجل الذي وشى بكيهيكا. وإن مسألة موت كارانجا في يوم الاستقلال نفسه لأمر عادل: وإن مسألة إهانته أمام حشد كبير من الجماهير، إن أذعن من تلقاء نفسه أو مضايقته إن أنكر، ليست أكثر من إجراء ضروري تستدعيه الطقوس.

كان الجنرال ر رجلاً مقلّاً في كلامه، إلا إذا تمت إثارته. «إنني لا أجيد استخدام لساني» كان من عادته أن يقول بمسحة من الاعتزاز، «ولكنني أجيد استخدام يديّ». حينما كان كيهيكا يقف متضرعاً متألماً أمام مشكلة من المشكلات كان الجنرال ر يتنطح للتصرف حيالها. كان كيهيكا يتحدث عن الاضطهاد والظلم والحرية، في الوقت الذي كان فيه الجنرال ر يرى بأم عينه الأفراد المضطهدين كما كان يرى الإنسان الظالم أو الإنسان الطيب. كان به أثر من الإنسان المغامر. قبل حرب الاستقلال كان يعيش في وسط رونجي يعمل خياطاً. لم يكن أحد يعرف شيئاً عن أصوله: قال بعض الناس بأنه جاء وافداً من نايري وقال آخرون بأن مسكنه في إمبو. وعلى الرغم من أنه عاش عدة سنوات في رونجي فإن الناس في ثاباي اعتبروه رجلاً غريباً بينهم. «هؤلاء الناس القادمون من ذلك

الجانب من نايري وإمبو»، كانوا يقولون: «أناس يجدر الخوف منهم، لا يمكنك أن تعرف ما يخفون لك تحت أظافرهم أو تحت آباطهم». لم يكن الناس يعرفون حتى اسمه الحقيقي: كانوا كلهم يسمونه كا–40، لأنه مرة أو مرتين، في إحدى لحظاته العفوية والنادرة التي كشف فيها عن هويته الحقيقية، كان يغني مدائحه الشخصية على النحو التالي: انظروا إليّ، شاب في الأربعين، ولدت عام 1940، وختنت عام 1940، وذهبت لمحاربة هتلر عام 1940، وتزوجت عام 1940، ولذلك فأنا الشاب ابن الأربعين. (كان يعرف الناس بأنْ لا زوجة له، ولكنه حارب مع البريطانيين في الحرب العالمية الثانية).

عدا ذلك كان هادئاً، قلّما تحدث عن نفسه أو عن معتقداته السياسية، وبشكل ملحوظ كان يتجنب مشاهد العنف والمشاجرات التي كانت كثيراً ما تحتدم في المطاعم والحانات. كا–40 كان خياطاً ناجحاً وماهراً متخصصاً في خياطة أثواب النساء والأطفال. نجاحه كان يعزى «لشيء يخفيه تحت إبطه».

ومع ذلك فإن هذا الرجل الذي كان يتحاشى بوضوح المشاجرات وأعمال العنف وكان منكفئاً على نفسه معظم الوقت، أصبح واحداً من أعنف زمرة كيهيكا بين ثوار الغابة. كان إنساناً مرهوب الجانب في القرية وحتى بين أتباعه. لم يكن الجنرال ر ينسى أبداً صديقاً أو عدواً، وكان الحرف ر يرمز إلى روسيا.

في ذلك الوقت الذي كان فيه الجنرال ر يتحدث بحماس عن المسرحية الصغيرة التي كان سيجري تمثيلها في يوم الاستقلال، كان كارانجا، الممثل الرئيس، مهووساً بمشكلة كانت تبدو صغيرة له قبل ثلاثة أشهر – وكان ينظر إليها طبعاً بأنها احتمال بعيد – ولكنها الآن والاستقلال لا يبعد أكثر من ليلتين، أصبحت تتخذ عنده أبعاداً مرعبة: هل سيرحل فعلاً مستر ثومبسون؟ هذا اليوم عقد كارانجا عزمه على اكتشاف الحقيقة، إلماعٌ كان قد تذوق طعماً مثله ذات مرة حينما قيل له، كقائد، إن غيكونيو وغيره

من المعتقلين الآخرين كانوا عائدين في طريقهم إلى القرية. سيذهب الآن إلى ثومبسون ويقول: سيدي، هل أنتم راحلون فعلاً عن كينيا؟ لم تقم بين كارانجا وجون ثومبسون علاقة يمكن دعوتها حتى بالعلاقة الشخصية، كما أن الإحساس بالتواكل بينهما لم يكن متبادلاً. بل بالنسبة لكارانجا كان جون ثومبسون دائماً رمز سلطة الإنسان الأبيض؛ سلطة راسخة رسوخ الصخر، سلطة أنتجت القنبلة وحولت بلداً من الأدغال البرية والغابات إلى مدن عصرية ذات شوارع أسفلتية عريضة، وآليات بعجلتين أو أربع، وسكك حديدية، قطارات، طائرات، وبنايات تطاول أبراجها السماء - كل هذه المنجزات بمدة لا تزيد عن الستين سنة. أفلم يختبر هو نفسه تلك السلطة حين كان بإمكانه، كقائد، أن يجعل الرجال المختونين يجثون أمامه والنساء يزعقن بمجرد أن يرفع إصبعاً من أصابعه؟

وهكذا كان كارانجا على أحر من الجمر لمعرفة الحقيقة المرة، مشى مرتين في الممرات أمام مكتب ثومبسون، يصيخ السمع لأية نأمة داخل المكتب. عاد بعد ذلك إلى حجرة عمله وتذكر أن بمقدوره أن يعرف ما إذا كان جون ثومبسون في مكتبه أم لا من خلال اكتشافه ما إذا كانت سيارته الثانية، الموريس، جاثمة في مربضها الدائم في «موقف سيارات المديرين». نهض عن كرسيه كإنسان وخزه دبوس في مؤخرته، وبدلاً من أن يتفحص الكرسي مطّ رقبته واختلس النظر إلى المكان الفارغ الذي كانت تحتله في العادة سيارة الموريس. ألن يأتي الرجل إلى العمل هذا اليوم؟ وجد من العسير عليه كتابة القسائم لأي كتاب من الكتب المكدسة فوق الطاولة. لحسن طالعه أن السيدة ديكنسون ليست على رأس عملها اليوم. ذهب إلى معمل تجليد الكتب لقتل الوقت مع الرجال هناك، كان كارانجا يذهب دائماً إلى هناك بذريعة أو بأخرى كلما كان متعباً، كان معظم العمال هناك من سنترال نيانزا وكان كارانجا يشعر بحضرتهم بحرية أكبر. لم يكن يحس، كما كان شأنه مع العمال من قبيلة الغيكويو، بأنهم يتحرّون ماضيه. كان يكن الاحتقار لهم أيضاً ويبوح بذلك حينما يتحدث

مع موارا أو مع أي فرد آخر من قبيلته. «هؤلاء الجالو»[1] كان يقول عنهم: «إنهم دائماً ملتصقون بعضهم ببعض: فما أن تعين واحداً منهم في مركز مسؤولية حتى يستدعي كل رجال عشيرته حينما يتوفر الشاغر». وهم بدورهم كان يخامرهم الشك حياله. «هؤلاء الواكيكويو... إياك أن تثق بهم أبداً. إن من يعانقك اليوم منهم كصديق يطعنك في الظهر غداً»، في حضرته كانوا يلبسون لبوس الوداد.

وجدهم الآن يتحدثون عن المرحوم الدكتور دايك. هل كانت وفاته مجرد حادث؟ ماذا وجدت تلك المرأة الصغيرة، السيدة ثومبسون (يا إلهي ما أجملها - أردافها يا صاح - إنها لم تكن تبالي حتى لو أعطيتها العمل بنفسي) في ذلك البويريّ البطين؟ أكان يعلم ثومبسون بأنها تخونه؟ لا بد من أنه كان يعلم. ذلك هو السبب الذي جعل الكآبة تخيم دائماً على وجهه. هل هو نفسه ذاق طعم غيرها من النساء من مثل الدكتورة لايند؟ وطفقوا يقهقهون. عادوا إلى حادثة الضاري. غضبوا. لقد كانت عواطفهم بجانب كارانجا. يا صاح! ثومبسون هو الذي أنقذك. ولكنه ما كان ليتخذ عقوبة ضدها. وجد كارانجا أن رائحة الغراء الذي يغلي، وأحاديث الرجال وضحكاتهم، لم تهدئ له أعصابه المتوترة. خرج وسار بين مخبر التربة الفيزيائي وبين مجمّع الإدارة الرئيس، متصنّعاً جدية العمل ولكنه كان يأمل في الواقع أن يلمح جون ثومبسون من خلال النافذة في المكتب. هل رحل الرجل، تساءل كارانجا؟ كان يجب أن يسأله البارحة، البارحة بعد حادثة الضاري. تذكر كارانجا ذعره حينما اقترب منه الضاري. سرت قشعريرة في جسده. لقد أنقذه ثومبسون من العار. ثومبسون... إنه على أهبة الرحل. سار الهوينى عائداً إلى غرفته وهو يشعر بالانقباض من جراء إحساسه بخيانة قريبة.

شعور مماثل خالجه ذات مرة من قبل؛ كان ذلك في اليوم الذي نصحه فيه مدير المنطقة، مباشرة بعد إلغاء حالة الطوارئ رسمياً، بتقديم

1- كلمة للتحقير والازدراء.

استقالته من منصبه كقائد. وقتها كان القادة السياسيون الجدد للحزب، من أمثال (أوغنغا أودينغا) في حالة هياج عاطفي حيال الاستقلال وإطلاق سراح جومو كينياتا. اعتقل كارانجا رجلاً لم يكن قد أدى الضريبة الشخصية عن البالغين لمدة سنتين. كان الرجل عاطلاً عن العمل منذ أن غادر المعتقل، وبدلاً من إجابته على الأسئلة، وقد كان في غاية الحنق، بصق على الأرض. فعل القائد كما كان من عادته أن يفعل تماماً، أمر حرسه الشخصي بضرب الرجل، واحتجزه في مركز الحرس الوطني حتى الصباح. سمع بهذا الحدث رجال على علاقة بأودينغا، وبذلك وصل إلى المحاكم. فُرض على كارانجا دفع غرامة نقدية وتقديم الاعتذار علناً. هذا ما طعنه في الصميم. لماذا يجب أن يعاقب على فعل كان يثنى عليه لإتيانه به منذ شهر أو ما يقاربه؟ فيما بعد خُفضت مرتبة كارانجا. زوده مدير المنطقة برسالة توصية عدّد فيها مناقب كارانجا المتمثلة في الإخلاص والكمال والشجاعة. «يمكنكم الاعتماد عليه الاعتماد المطلق». انتقل كارانجا إلى غيثيما، متسلحاً بالرسالة (وكانت ممهورة بخاتم الحكومة)، حيث قابل هناك جون ثومبسون للمرة الثانية. لقد خان كارانجا العهد والتحق بالحرس الوطني حين كان جون ثومبسون مديراً للمنطقة هناك (وذلك بعد وقت قصير من وفاة روبسون)، وعلى الرغم من أن ثومبسون لم يكن يبدو عليه أنه يتذكر الأيام الخوالي، فإن كارانجا شعر بأن الرسالة «الحكومية» كانت بحد ذاتها تمثل حلقة اتصال جوهرية. حصل على عمل في غيثيما. وسرعان ما دلّت على نفسها مناقبه في الإخلاص والكمال والشجاعة، وسرعان ما أصبح خادماً أميناً للناس البيض في غيثيما.

هل كان تهديد الضاري نذير شؤم؟ فكر كارانجا. لم يعرف كارانجا، وهو في غمرة إحساسه بالكارثة الوشيكة الوقوع، إن كان عليه أن يبتهج أو يكتئب حينما دخل عليه مراراً إلى الغرفة.

«بالله عليك يا هذا قل لي إن كان الأمر صحيحاً؟» بدأ موارا بهمس

خانع خبيث قائلاً: «إنك تعرف أسرار كل أصحاب الشأن ممن يحكموننا. فألق إلي بنتف من معرفتك الواسعة».

- «ماذا تقول؟» سأل كارانجا. وقد كان بطيئاً في استجابته لذلك التزلف المصطنع.

- «هل صحيح أن مديرنا كا - ثومبسون قد ارتحل؟» لقد كان من عادة موارا أن يستعمل مقطع التصغير (كا) قبل اسم أي رجل في السلطة حين كان يريد أن يغمز من قناته.

- «من قال لك ذلك؟» ذعر كارانجا ولكنه حاول أن يتصنع الهدوء.

- «آه، مجرد إشاعات. وقلت لنفسي إن الشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة هو كارانجا. إنه يعيش أسرار هؤلاء الناس ولا سيما مدير المنطقة. كان ذلك الرجل يحبك وكان يرسل دائماً في طلبك - آه، نعم، ولمست بأنه كان يخشاك أيضاً. فهل ذلك الأمر صحيح؟».

أدرك كارانجا بأنه موضع تملق مما جعله يشعر بالرضى.

- يا لكم من قوم ويا لإشاعاتكم. ألم تره على رأس عمله البارحة؟

- نعم، ولكن... أليس من الممكن أن البارحة كان آخر يوم له؟ ذلك هو السبب الذي حدا به لزيارتك بغية توديعك، أليس كذلك؟ هل نقدك بعض الدراهم؟ ويقول الناس - أتعلم أنني أحياناً أوافقك على رأيك حين تقول بأن ألسنة الناس ألسنة خبيثة؟

- وماذا يقول الناس؟ سأل كارانجا وقد خامره الشك والفضول.

- يقولون إن إنساناً أفريقياً ذا بشرة سوداء، مثلك أو مثلي، سيحتل مركزه.

- «مستحيل!» قال كارانجا بحزم معبراً عما لا يرغب في حدوثه أكثر مما يعبر عما يعرف بأنه واقع لا محالة. «يحق لكم أن تتصوروا ما تشاؤون ولكن ثومبسون ليس راحلاً إلى أي مكان. البارحة كنت أتجاذب أطراف الحديث مع زوجته، وقدمت لي القهوة».

- أصحيح هذا؟ قال موارا وهز رأسه مؤيداً مرات عديدة. «حسناً، إنني أدرك. أتعلم بأنني لن أصاب بالدهشة إن سمعت بأنك تذوقت طعم تلك المرأة. أتدري كيف يتحلب فمي حين أنظر إلى أردافها الملساء وإلى نهديها اللذين يناديان إليك: هيا والمسنا، المسنا. وصوتها الرخيم كالأغنية، يجعلك تفكر بمتاعها نفسه. أنت إنسان محظوظ يا هذا، كيف توصلت إليها؟».

- «عم تتحدث؟» سأل كارانجا وقد شعر بالدفء لهذا الحديث، ولكنه كان قلقاً وعاجزاً عن تفنيد ما كان يلمح إليه موارا أو توكيده.

- هيا يا صاح. لا بد من أنك قد تذوقت طعمها، ما هو طعم متاعها؟

- «يا لكم من قوم. لماذا تظنون أن للأوروبيين أشياء خاصة بهم؟ إنهم كأي إنسان آخر، مثلك أو مثلي».

- وهل هذا اعتراف؟ على أية حال، أنا واثق بأنك قد مارست ذلك معها. وبالمناسبة ماذا أنت فاعل يوم الخميس، يوم الاستقلال؟

- «لا أدري لا شيء...» أضاف قائلاً وقد تبدد ذلك الدفء في داخله.

- «لا شيء؟ ألست ذاهباً إلى ذلك الشيء؟».

- أي شيء؟

الاحتفال في رونجي. ألا تعلم أنهم بصدد تنظيم الألعاب والرقصات احتفالاً بعيد الاستقلال؟

- «لا علم لي بذلك»، قال وقد ظهر التجهم على وجهه.

- ولكن لا يجوز أن تبقى وحيداً هنا! كل الناس في هذا المركز ذاهبون لسماع خطاب ميوغو:

- ومن هو ميوغو هذا؟ سأل وقد تسلّل شك أكبر إلى صوته. فتشبث موارا بذلك الشك.

- يقول الناس بأن هذا الرجل يتحدث مع الله ويتلقى الرسائل من أرواح الموتى. إذ كيف تفسر نجاته من الموت في ريرا وقد مات عشرة

من المتورطين في الإضراب عن الطعام. كما يجب أن تذكر بأنه كان القائد؟

- «هذا الحديث حديث خرافة. ألسنة الناس مفعمة بالأحاديث السخيفة»، قال دون قناعة عميقة منه. لم يخطر على ذهنه ما هو فاعل يوم الخميس. ولكن هل بوسعه الذهاب إلى ثاباي ومقابلة الناس الذين سيهزؤون به؟ ماذا لو ذهب لرؤية مومبي، ولمرة واحدة لا أكثر؟ أفلا يمكنه أن يقوم بمحاولة أخيرة لانتزاعها من غيكونيو؟

- يمكنك أن تقول عنه حديث خرافة. ولكنني على كل حال أفضل أن أذهب وأرى بأم عيني. إن ذلك الإنسان المدعو ميوغو ناسك حقيقي. لقد مكث منطوياً على نفسه وما حدّث أي إنسان آخر منذ مغادرته المعتقل. ولكن سيكون هنالك أيضاً جمهرة من النساء، وأنت تعرف الحرية التي تتسنى لهن (حتى المتزوجات منهن) في أمثال هذه المناسبات.

- «وهل أنت ذاهب إلى هناك؟» سأل وقد تملكته الرغبة برؤية مومبي.

- أنا! وهل يتخلف من كان مثلي؟

- «أخبرني حين تقرر الذهاب» قال كارانجا وهو ينظر من النافذة. في تلك اللحظة بالذات كان جون ثومبسون يوقف سيارته الموريس خارج المبنى.

- «ها قد وصل صاحبك ثومبسون» قال لموارا وهو يعجز عن إخفاء انتصاره. فوقف وبسرعة نفض الغبار عن البزة الخاكي، وربت بيديه على شعره واندفع خارجاً يحدوه الأمل في أن يحظى بمقابلة ثومبسون في الرواق. وقتها سيطرح عليه ذلك السؤال المشؤوم. كتلة من اللعاب سدت حلقه حين شاهد ثومبسون ذاهل المحيا: أيجب أن أسأله أم لا؟

- «عفوك يا سيدي!» صاح وكأنه على وشك البكاء. سار جون ثومبسون وكأنه لم ينتبه لوجود كارانجا في الرواق. «عفوك سيدي» رفع صوته بعد أن استجمع شجاعته وهو في غمرة اليأس. استدار ثومبسون كي يواجه كارانجا.

- ما خطبك؟ كان الصوت واضحاً، فاتراً، وعميقاً.

- «أنتم» - بلع كارانجا شيئاً من ريقه «- أنتم راحلون!» ابتدر، بعبارة عادية بدلاً من توجيه السؤال الرصين المتعمد.

- ماذا؟

- «أنتم - أنتم» وبلع من ريقه مقداراً أكثر من ذي قبل. خرجت قرقرة من حلقه حين بلع ريقه. لكنه رفض التراجع: «هل أنتم عائدون إلى - إلى بلدكم؟»

- «أجل، أجل»، أجاب الإنسان الأبيض على عجل، وكأنه أصيب بالحيرة لهذا السؤال. ركب الذعر كارانجا. طفق يعبث بأصابعه من خلف ظهره. كم تمنى لو ابتلعته الأرض بدلاً من الإحساس بتلك القشعريرة التي سرت في كيانه. كاد ثومبسون ينصرف ولكنه توقف.

- ماذا بإمكاني أن أفعل من أجلك؟ سأله بأسلوب فظ.

- لا شيء، لا شيء يا سيدي. هذا كرم منك.

أسرع ثومبسون مبتعداً.

وقف كارانجا في الرواق هنيهة ثم أخرج منديلاً قذراً كي ينشف به العرق عن وجهه. انصرف بعد ذلك عائداً وكانت مشيته، لمن براقبها، تحاكي مشية كلب زجره فجأة صاحبه الذي يثق به. كان كارانجا كمن لا يرى موارا الذي كان لا يزال في الغرفة. جلس على كرسيه، يداه راهنتان على الطاولة، وألقى على العالم الواقع خارج النافذة نظرة حيرى.

- هل هو عائد إذاً؟ سأل موارا متردداً.

- لا أعلم. أجاب كارانجا بصوت خافت لا لون له.

وفجأة بدا كأنه يرى موارا للوهلة الأولى.

«ماذا تفعل أنت في المكتب؟» صاح في وجه موارا الذي أسرع بالتراجع إلى الباب. ها قد شاخ الناجذ وتقصّف ولم يعد يقوى على العض. كارانجا، وكأنما قد هدّه ذلك التلميح، استمر في جلسته الميتة

إلى الطاولة. وها قد سنحت الفرصة لموارا أن يزهو بانتصاره فنسي، للحظة عابرة، أن مهمته كانت تنحصر بمد يد الصداقة إلى كارانجا وإغرائه بحضور احتفالات الاستقلال.

– «أغاضب أنت لأن ذلك السيد تارك إياك، أليس كذلك؟» سخر منه وهو يقف بكل اطمئنان عند الباب المفتوح. «أفلا تستحق منه كلمة وداع، أم أنه ليس على ذلك القدر من اللياقة؟ لقد عملت ذات مرة لدى إنسان أبيض في نيروبي، وعندما غادر كينيا على الأقل أطلق الرصاص على حيواناته الأليفة كلها – القطط والكلاب. ما استطاع أن يتحمل تركها أحياء خلفه دون مربٍّ رقيق».

كان من الواضح أن كارانجا لم يكن يسمعه. لم يقم بأدنى حركة تبدل من جلسته إلى الطاولة.

* * *

الفَصْل الحَادي عَشر

حفلة الوداع التي كانت ستقام في فندق غيثيما كان مقرراً لها أن تبدأ في الساعة الثامنة. ذهب جون ومارغري ثومبسون باكراً ولكنهما وجدا أن بعض الضيوف قد سبقوهما إلى هناك. الدكتور برواينا أو دونوغو، مدير مركز البحوث الزراعية والحراجية في غيثيما، كان غائباً عن الحفلة لأنه كان قد سافر في مهمة حراجية دولية إلى سالزبوري، ماشياً في أراضي غيثيما بمعزل عن كتاب تحت إبطه، وأما زوجته فقد شاركت مشاركة قصيرة. وفيما بعد تعزّز الفريق الرسمي بوصول المدير المساعد وزوجته ورؤساء الأقسام المختلفة. وفي غضون ساعة أو ما يقاربها أصبحت الصالة العامة في الفندق تعج بالرجال والنساء الذين يرتدون مختلف أنواع الثياب والذين بدؤوا يقرعون الكؤوس ويطلقون النكات الخفيفة ويقهقهون.

في البداية كان السيد والسيدة ثومبسون محط اهتمام الفريق الرسمي. نظرات الحسد والازدراء كانت تنصبّ على زوجتي المديرين الاثنين اللتين كانتا دائماً تحتلان مركز الصدارة: أليس بوسعهما إتاحة الفرصة لقول كلمة للسيد ثومبسون من مثل (مسكين جون، عزيز حقيقي، أحببته حباً جماً، يا لتهذيبه، يا لولائه، أمن الممكن لإنسان أن يكون موضع معاملة أسوأ من جانب حكومته؟). لقد فتشوا في قلوبهم واكتشفوا فجأة بأنهم كانوا دائماً من المعجبين بجون، وأن مارغري كانت صديقة خاصة، وأنهم سيفعلون كل شيء لمساعدتهما على الاستقرار في موطنهما التالي!

إن الرحيل الوشيك لثومبسون والاستقلال ليلة الغد أعادا إلى الأذهان

صورة الرجل الذي كان في قلب فضيحة ريرا. ولذلك كان ثومبسون ضحية، واستقبل استقبالاً رائعاً في غيثيما، وها هو الآن موضع اعتبار كبير عشية رحيله من بلاد أسدى لها خدمات جلى.

حلما انفرط عقد الفريق الرسمي، قفزت الحفلة إلى نوع جديد من الهرج والمرج. النساء أمطرن ثومبسون بالأسئلة: ماذا سيفعل بعد ذلك؟ هل وجد ثمة عملاً؟ أليست مشينة تلك الطريقة التي تخذل بها الحكومة البريطانية رجالاً كانت تشجعهم من قبل وترسلهم إلى الخارج؟ إن ذلك ناجم عن خضوعها للعنف الأفريقي وللشيوعية الدولية. أفلا ترى ما يجري في أوغندا وفي تانجانيقا؟ لقد هرع الصينيون والروس لفتح سفاراتهم. السيدة ديكسون، قيّمة المكتبة، كانت أكبر المتحدثين في السياسة وتنبأت بوقوع الإبادة الشاملة بعد الاستقلال.

لقد حجزت، هي وعشيقها، روجر ماسون، تذكرتين للسفر بالطائرة إلى أوغندا كي يتجنبا العنف الذي سينفلت من عقاله على الناس البيض كلهم في كينيا. كانت الآن تقول للحضور: «أقول لكم، يمكنني أن أرى ما سيجري في غضون عشر سنوات؛ ستكون هذه المناطق توابع روسية، أو ما هو أنكى، جزءاً من الإمبإمبوراطورية الصينية». امرأة أخرى قاطعتها مخاطبة جون: «أنت تقدمت باستقالتك، أليس كذلك؟ فكّر الآن في ذلك، وأنا...». بعضهن أردن أن يعرفن سبب إقدامه على تلك الخطوة. أخريات انسحبن خشية إحراج جون (مسكين جون، قلن من باب الإشفاق عليه، ملقيات نظرات الازدراء على مارغري التي كان يحيط بها الرجال. يا للطريقة التي تعاملت بها مع الكحول. ليس من المدهش إذاً أن يحاول جون الابتعاد فعلاً عن مشهد العار.

الدكتورة لايند كانت تتحدث إلى روجر ماسون عن عملها، ولكنها بقيت تلقي نظرات القلق باتجاه جون ثومبسون. كانت تتكلم بلا انقطاع، وروجر ماسون، رجل طويل ذو شارب أحمر، كان يبدو برماً بها مع أنه لم يقدم على أية محاولة للإفلات منها.

«منطقة غيثيما؟ آه، إنها على ما يرام، إذ إنها على الرغم من أن معظم البطاطا هنا تتعرض لآفة الفطر فإن من الممكن معالجتها بِسُلفات النحاس. ولكن البطاطا التي تتعرض لآفة الباكتيريا لا يمكن علاجها. وهذه هي الآفة التي تؤثر على معظم أنحاء كينيا، ولا سيما مناطق الأفريقيين. آه، نعم، نحن جميعاً نقوم بكل أنواع التجارب من مثل التجربة التي أقوم بها الآن – حقن نوع خاص من الباكتيريا كي يطارد أثر الوباء في النبات. ولكن، آه – أعذرني...».

هرعت إلى المكان الذي كان يقف فيه ثومبسون وتمكنت – الآن فقط – من احتكاره لنفسها. وتدريجياً قادته إلى ركن قصي وأجبرته على الجلوس. كان يبدو عليها الاضطراب وتوقع منها أن تفاتحه بحادثة الضاري.

– أتذكر الحادثة التي حدثتك عنها البارحة؟

– الضاري؟

– لا، لا، بل القصة – قصتي.

– أجل.

– تذكر أنني حدثتك عن خادمي في بيتي.

– نعم.

– لم يلق القبض عليه حتى الآن.

– نعم، أعتقد بأنك حدثتني عن شيء من هذا القبيل.

– إنني خائفة. لا أعرف ما يجب أن أفعل.

– لماذا، ماذا حدث؟

– لأنني – لأنني – شاهدته مرة ثانية.

– متى؟

– البارحة.

في الساعة الحادية عشرة أصبح الناس سكارى. أزواج قلائل كانوا يتراقصون. كان الندل الأفارقة يقفون جانباً كالأعمدة يلبسون الجلابيب البيضاء، والأحزمة الحمراء حول خصورهم والطرابيش الحمراء على رؤوسهم.

تحلق الرجال حول مارغري، يلتهمون قامتها بنظراتهم. واحداً واحداً جرتهم زوجاتهم إلى حلبة الرقص، حتى لم يترك معها إلا رجل واحد بلحية طويلة شعثاء وحاجبين كثّين يتحدث معها. دأبت تختلس نظرات الاستغاثة إلى زوجها الذي لم يكن يراها لأنه كان الآن منهمكاً مع مجموعة تبحث في السياسة، في يوم الاستقلال، وفي مصير الإنسان الأبيض في ظل حكومة من السود.

- «إنه من الأمور المنطقية، أليس كذلك؟» كان يقول لها الرجل الملتحي وهو يجرها إلى حلبة الرقص.

- وما المنطقي في ذلك؟ قالت متثائبة عاجزة عن إخفاء تأففها منه. هذا الرجل كان يذكرها بأسوأ جوانب عشيقها.

- «أن نكون كلنا سكارى؟ لا أعرف لماذا أتصرف هكذا اليوم - تفوّقت، وينجم عن ذلك أن - تفوّقت مرة أخرى - أنت...».

وفجأة سمعت صوت حطام كأس على الأرض. توقف الجميع عن الرقص والحديث. نظرت مارغري إلى المجموعة التي كانت حول زوجها. كانت يده الفارغة معلقة في الهواء وكأنها ترفع كأساً إلى شفتيه. العيون كلها التفتت صوبه الآن. سارت مارغري بعجلة عبر الحلبة وشبكت يدها بيده وابتسمت بجرأة لا لشيء. اندفع نادل أفريقي يحمل بيده لاقط الكناسة ومكنسة ورفع الحطام. انتهى الصمت. عادت المحادثة إلى سابق عهدها وكأن شيئاً لم يكن.

استقل جون ومارغري سيارتهما عائدين في الظلمة ببطء. إدراكها بأنها ترى غيثيما لآخر مرة شدّها إلى زوجها على نحو أوثق.

«قبل هذه الحفلة لم أكن أشعر بأننا راحلون فعلاً. والآن يبدو أن كل شيء أصبح يخص ماضينا».

تابع زوجها قيادة السيارة متجنباً بيتهما. وعند طرف الغابة أوقف السيارة وأشعل سيكارتين. وفجأة تيقنت مارغري أن هذه البقعة هي البقعة نفسها التي ضاجعها فيها فان. بدأت تدخن بجنون، تنتظر منه أن يوجه الاتهام.

«ربما لن تكون هذه الخاتمة نهاية الرحلة» قال أخيراً.

- ماذا؟

- «إننا لمّا نُضرب بعد» أكد بصوت أجش. «أفريقيا لا يمكنها، لا يمكنها الاستمرار بمعزل عن أوروبا».

شخصت مارغري ببصرها إليه ولكنها لم تنبس ببنت شفة.

الفصْل الثاني عَشر

حينما عاد غيكونيو إلى بيته مساءً، قالت مومبي عنه أنه كان عكر المزاج. في البداية لم يتحدث إليها – شيء لم يكن مستغرباً منه. وبعد أن قدمت له الطعام ما زاد على أن نظر إليها نظرة واحدة ثم تابع تحديقه إلى الجدار، وهذا أيضاً لم يكن أمراً مستغرباً منه. ولكن الطريقة التي كان يتنفس بها، وكأنه يكبت أنيناً، هي ما أقنعتها بأن ثمة طارئاً قد طرأ، وعلى الرغم من أنها كانت ترتعد فرقاً منه، ومن أطواره، فلم يكن لها مناص من الخوص في شؤونه.

– ما خطبك؟ سألته باهتمام ذلول.

– مذ متى كنت أبحث شؤوني معك؟ أجابها. انسحبت خجلى. ما الذي طرأ عليه في هذه الأيام الأخيرة؟ لم تكن تعرف أيهما أسوأ: الحديث السابق الرسمي المهذب أو هذه المحاولة الجديدة لجرح مشاعرها بالكلمات.

«ميوغو كان هنا اليوم» قالت بفتور بعد هنيهة، «وقال بأنه لن يشارك في الاحتفال».

– ماذا؟ صاح بها وكأنها مسؤولة عن تصرفات ميوغو. فلم تجب.

– أليس لك أذنان؟ أنا أتكلم إليك. ماذا قال؟

– يبدو أنك تسعى وراء الشجار هذه الليلة. أفلم تسمع ما قلت؟ لقد قال ميوغو بأنه لن يتصدّر احتفالات عيد الاستقلال.

- يجب أن تفتحي فمك واسعاً وألا تتكلمي وأسنانك مطبقة. لا أحد حريص على رؤية أسنانك. أضاف قائلاً واستعاد وضعيته السابقة.

كان من الممكن أن تعود المياه إلى مجاريها (التهذيب وخلافه) لو لم يدخل الطفل - أصل النزاع - الغرفة راكضاً من غرفة وانغري. سابقاً كان غيكونيو يعامل الطفل بأدب أيضاً، دون إبداء استيائه منه أو حدبه عليه، وذلك لأن الطفل، كما حاكم الأمر في ذهنه، ليس إلا طفلاً وليس هو المسؤول عن ولادته. كما أن الطفل كان يشعر بفتور غيكونيو حياله وكان يحترم، غريزياً، تلك الفجوة بينهما، بيد أنه اليوم ركض ودس نفسه بين ركبتي غيكونيو وبدأ يلغو وهو يحس برغبة التقرب منه.

«جدتي حدثتني بمثل هذه القصة - قصة جميلة - حول - حول - هل تعرف تلك القصة التي تحكي عن الإريمو؟».

أبعد غيكونيو الطفل بفظاظة عن ركبتيه وبدا على وجهه التقزز.

تعثر الصبي وسقط على قفاه وانفجر باكياً متطلعاً إلى أمه ابتغاء تعليل ما. وقفت مومبي وقد سدّ الغضب حلقها لهنيهة.

«أي نوع من الرجال تسمي نفسك؟ أتخونك جرأة الرجال في أن تلمسني؟ لماذا تحوّل غيظك الجبان على طفل، طفل صغير...». طفقت تزبد كنهر حطم سداً من أمامه. تدفقت منها الكلمات وهدرت على شكل الفيضانات، تملأ فمها حتى إنها لم تكن تنطقها إلا بصعوبة.

- «أغلقي فمك يا امرأة!» صاح بها ووقف على قدميه أيضاً.

- أو تظنني يتيمة؟ هل تتصور أن أبواب كوخ أبي تغلق في وجهي إن غادرت هذا القبر؟

- «سوف أجبرك على إغلاق فمك هذا، فم العاهرة» صرخ بها وصفعها على خدها الأيسر ثم على الأيمن. انقطع فجأة سيل الكلمات. حدقت إليه وهي تحبس دموعها. ركض الصبي خارج البيت ينادي جدته.

- «كان أولى بك أن تقول لي هذا من قبل» قالت بهدوء وهي لا تزال

تحبس دموعها. هرعت وانغري إلى الكوخ، التوت قسمات وجهها من الألم، والطفل يسير في إثرها على بعد مسافة مأمونة. وقفت وانغري بين غيكونيو وومبي.

- «ما الأمر أيها الطفلان؟» سألت وهي تواجه ابنها.

- «يصمني بالعاهرة، يحتفظ بي في هذا البيت كعاهرة يا أماه» قالت ومبي بصوت مخنوق وأطلقت العنان الآن لنشجيها.

- علام كل هذا يا غيكونيو؟ سألت وانغري ابنها.

- «هذا ليس من شأنك يا أماه».

- «أليس من شأني؟ رفعت صوتها وهي تلطم جنبيها بكلتا يديها. فليأت كل من في الدنيا ويسمع بماذا يجيبني ابني أنا. أفليس من شأني أنا المرأة التي ولدتك من بين فخذيها هذين؟ لا بد من مجيء ذلك اليوم - ها - المسها ثانية إن كنت رجلاً». وسيطر الغضب الجامح على وانغري. حاول غيكونيو أن يقول شيئاً ما، ولكنه فجأة استدار وخرج من البيت.

- «وأنت الآن، كفي عن البكاء وأخبريني بما حدث» قالت برفق إلى ومبي التي كانت قد جلست وهي تشرق بالدمع.

تجري مياه النهر حذاء أقل التخوم مقاومة. لقد كان غيظ غيكونيو موجهاً وجهة أخرى ولكن تصادف أن كانت ومبي أقرب الناس منه. ووجهها وصوتها وجداه في وقت كانت فيه الأسوار التي صانت حياته - بما اعتورها من إحباط - من الخارج، هي أضعف الأسوار.

في اليوم التالي لحديث غيكونيو مع نائب منطقته، ذهب لزيارة الرجال الخمسة المعنيين بالموضوع. تدارسوا وضعهم وقرروا أن يوسعوا عدد شركائهم في الأرض برفع سعر السهم ودعوة الناس لشراء الأسهم. وبهذه الطريقة يستطيعون جمع ما يكفي من النقود لشراء مزرعة بورتن. وفي عصر ذلك اليوم ذهبوا لمقابلة مستر بورتن كي يعرضوا عليه ما إذا كان يقبل القسط الأول على شكل مبلغ كبير من المال ومن ثم يدفعون

له الباقي في نهاية الشهر. وأما القرض الذي وعدهم به النائب فقد كانوا سيستخدمونه، إذا تمّ، في تطوير المزرعة. أول شيء شاهدوه عند المدخل الرئيس لمزرعة غرين هيل (وهو الاسم الذي كانت تتسمى به مزرعة مستر بورتن) كان علامة جديدة. لم يصدق عينيه غيكونيو حين قرأ الاسم. عادوا إلى البيت حتى دون أن يتبادلوا همسة واحدة، بيد أن الفكرة نفسها كانت تجول بأذهان الجميع. لقد غادر مستر بورتن كينيا إلى إنكلترا، وكان المالك الجديد للمزرعة صاحبهم النائب ذاته.

حاول غيكونيو ألا يفكر بتجربته المرة ذلك اليوم ولا بمشاجرته مع مومبي حين كان في طريقه إلى كوخ واروي. واجبه الأول كان تجاه الحزب، وعلاوة على ذلك فقد أراد النجاح لاحتفالات عيد الاستقلال لأن نجاحها يعزز من نفوذه ومقامه. ما الذي جعل إنساناً مثل واروي يرضى عن الحياة على الرغم من تقدمه في السن وفقدان زوجته، استغرق في التفكير، وقد اتخذ له مقعداً وأصغى إلى كلمات الترحيب البهيجة الصادرة عن واروي. هل كان السبب يكمن في أنه عاش حياته الشخصية كاملة كإنسان، كزوج وكأب، أم لأنه كرس حياته للشعب؟ «لقد تحققت أولى أمنياتي القلبية: إن لأمي بيتاً جيداً أحيا فيه، وأمتلك قطعة أرض صغيرة، ومعي من النقود ما يسد لي نفقات الطعام والشاب. ولكنني بت الآن لا أجد أية متعة في النقود. وللثروة طعم الماء الآسن في فمي. وعلى الرغم من ذلك أرى من واجبي متابعة البحث عن المزيد».

لم يكن واروي راضياً عن الحياة ذلك الرضى الذي أوحى به مظهره الخارجي لغيكونيو. وكان الأمر لا يعدو أنه يجد متعة في العيش النشيط ويرفض الانحناء أمام النوازل المخيبة للآمال. لقد ماتت زوجته منذ عام مضى. مو كامي كانت زوجة تكن الإعجاب لزوجها وتجد المتعة في كيل المدائح له بين غيرها من النساء. وأما واروي فقد كان يعود إليها بالطُرَف كل مساء. كانت تجيد الإصغاء إليه كل ليلة وهو يحيا مجدداً معها كل أفعاله في النهار. وإن لم يكن يطرأ معه شيء مثير كان يعيد عليها

سرد القصص القديمة عن ولادة الحزب، وعن انقطاع علاقة الغيكونيو بالبعثات التبشيرية، وعن مسيرة هاري. كثيراً ما كانت مو كامي تؤنبه على غروره ولكنها كانت تستمتع بكل حادثة توحي بقوة زوجها وجرأته.

خيبة الأمل الرئيسة التي كان يعاني منها واروي في حياته كانت تتمثل بأولاده الثلاثة. لقد جنّدتهم بريطانيا ليدافعوا عنها في الحرب العالمية الثانية. مات أكبرهم في الخدمة الفعلية، وعاد الاثنان الآخران مذهولَيْن بالمصاعب الفعلية والعنف في الحرب أكثر من ذهولهما بما شاهداه من بلدان ونساء غريبات. لقد مر كلاهما من حالة الطوارئ دون أن يمسهما الأذى، متحاشيَيَن الغابات والمعتقلات على حد سواء وذلك بانبطاحهما وركوعهما أمام الجانب الأقوى في أي زمن وفي أي مكان. بعد حالة الطوارئ عادا إلى وادي ريفت ليعيشا كأجيرين على الأرض التي كان يمتلكها الناس البيض. كاماو، أكبرهما، كان يؤمن ضمنياً بقوة البريطانيين.

«أقول لكم، إذا قابلتم إنكليزياً فيجب أن تخافوه» كان يقول بصوت يوحي بمعرفته بأسرار الإنسان الأبيض بشكل أكبر مما كان يريد تبيانه. «لقد رأيت بأم عيني ما فعله بهتلر. وأقول بالمناسبة إن الألمان لم يكونوا صبياناً. ماذا تتصورون كيهيكا ورجاله فاعلين بأسلحتهم التي لا يمكن التنبؤ بجدواها من بنادق مصنوعة محلياً وسواطير صدئة وحراب مثلومة؟».

لم يكن واروي يؤمن إلا بإله الشعب أو بما كان يسميه بشكل ملغز بروح الشعب الأسود. وكان يؤمن أن قوة خفية تكمن بأناس من أمثال هاري وجومو، اللذين كانت خطاباتهما تثيره دائماً إلى حد البكاء. في أمثال هذه المناسبات كان يروي قصة مسيرة عام 1923 ويختتمها بالأسف المألوف: «لو كانت الحراب بين أيدينا لربما...». كان له إيمان مماثل بميوغو وكان يتمنى أن يكبر ابناه ويصبحا رجلين مثله. ولكم كان يستعمل الصيغة نفسها التي جعلته - على مر السنين - يتنبأ، بدِقَّةٍ نبوئيّة أصابته بالدهشة شخصياً، ببطليه القوميين: «يمكنكِ رؤية ذلك في عيني أي

منهما» كان يقول دائماً لزوجته. ولكن مو كامي الآن أصبحت في عداد الأموات وخيب ابناه فأله.

انهمك غيكونيو بموضوع الزيارة بعد أن تحدث ببضع كلمات لا علاقة لها بذلك الموضوع.

- يقول ميوغو بأنه لن يتصدّر المهرجان.

- ماذا تقول؟ لكنني كنت معه عصر هذا اليوم ولم يقل أي شيء من هذا القبيل.

- ومع ذلك فإنه يقول بأنه لن يشرف عليه. إنه إنسان غريب، من الصعب فهمه.

- الآن وأنا أفكر بهذا الأمر أقول بأنه كان يبدو عليه الاضطراب حين تحدثت إليه.

- جئت إليك لكي نذهب معاً لمقابلته مرة أخرى. وإلا فعلينا اختيار إنسان آخر وليس أمامنا متسع من الوقت.

في طريقهما إلى كوخ ميوغو، غيكونيو تحدث إلى واروي عن خيبة أمله بخصوص مزرعة غرين هيل.

- أفلم يقل لك بأنه اشتراها حين قابلته البارحة؟ سأل واروي.

- لا، لم يقل لي شيئاً. ومع ذلك فقد لاحظت بأنه كان يتحاشى النظر إلى عيني.

- «يا للآلهة التي تحكمنا» قال واروي من زاوية التعاطف مع غيكونيو. أراد أن يحدثه عن كيفية ثورة الشعب ذات مرة ضد حكامه من النساء اللواتي تناسين مسؤولية مكاتبهن وما فعلن أكثر من زيادة ثرواتهن، ولكنه لم يضف على أن تمتم قائلاً: «لن يثيروا إلا النقمة على محبّيهم وعبّادهم».

فلم يجب غيكونيو ولم يضف شيئاً على الموضوع.

عندما كان ميوغو صبياً ذهب ذات مرة إلى محطة القطار في رونجي كي يتفرج على القطارات. فسار على طول الرصيف وهو يحس بالرهبة من

قطارات الشحن ذات العربات العديدة. في بعض العربات شاهد الخيول، حيوانات قوية ضخمة. حدجه أحد الخيول بنظراته ومن ثم تثاءب فاتحاً شدقيه على نحو عريض. ارتعد ميوغو هلعاً وبقي لحظة مشلول الحركة. لقد أصابه الذعر من أن تطرحه أرضاً سنابك الخيل.

لقد شعر ميوغو بالهلع اللامعقول نفسه لدى مغادرته مومبي والجنرال ر. تراءى له أن ثمة خطى تغذ السير في إثره على شكل مطاردة لا مهرب له منها. أراد أن يعود إلى كوخه فتعجّل في خطاه كي يصل إلى مبتغاه. ولكنه وجد أنه مجرور للتفكير بحياة هؤلاء القرويين بشكل لا مندوحة عنه. حاول أن يفكر بشيء آخر - بنفسه مثلاً أو بعمّته - ولكن أنّى له أن يتملص من معرفته بحياة كل من غيكونيو ومومبي.

كانت الشمس ترسل شُواظاً مِن نار. كان الأطفال - على مألوف عادتهم دوماً - يلعبون في الشوارع. لقد شاهد البارحة - يوم الأحد - هذه الأكواخ وكانت كأشياء لا علاقة له بها. البارحة، وهذا الصباح، قبل أن تسرد عليه قصتها مومبي، كانت الأكواخ تمر به دون أن تثير في نفسه شيئاً من الماضي. ولكن الأشياء الآن صارت تبدو على نحو مختلف: الأكواخ، الغبار، الخندق. وامبوكو، كيهيكا، كارانجا، معسكرات الاعتقال، الوجه الأبيض، الأسلاك الشائكة، الموت. ها هو الآن يدرك تلك القبور التي تجاور الخندق. قشعريرة باردة بدأت تدب في أوصاله، خوفه من سنابك الخيل الجامحة تحول إلى ذعر من مفاجأة لا تحمد عقباها. منذ سنين، في المعتقلات، ما كان يتبادر لذهنه الاهتمام بتسجية واموبو كو في قبرها ولا بمشاعرها. فكيف حدث وشقّت له قصة مومبي سريرته المتبلدة وأطلقت العنان لأفكار ومشاعر حبيسة. إن وطأة كلماتها ووجه الجنرال ر قد استحالا إلى أفعال من الماضي. كان يحب فيما مضى أن ينظر إلى الأحداث في حياته كل على حدة. لقد قُدّر للأمور أن تحدث في لحظات مختلفة، وليس للمرء خيار في أي شيء بذلك القدر من التوكيد الذي يرافق عدم استشارة المرء في أمر ولادته. وقتها لم يكن

ينهك فكره في محاولة الربط بين ما حدث من قبل وما حدث من بعد. سار في الشارع كالخدر دون أن يفكر فيه، لا في بدايته ولا في نهايته.

فجأة توقف ميوغو في منتصف الطريق الرئيسة، أصيب بالذهول لاكتشافه أنه قد غاص بأعماق القرية. تزاحمت الأحداث عليه. قلقل نفسه بصعوبة كي يجد مخرجاً من كومة الأحداث. انجرّ ثانية إلى الخندق وقد كانت مقاومته لهذه العودة حتى البارحة أمراً بالغ الأهمية. جدران الخندق كانت الآن متداعية: لقد تكوم التراب وملأ قاع الخندق. قشور البطاطا، قشور الذرة المتعفنة، قصاصات الورق الأبيض، عظام لصقت بها نتف من اللحم المتعفن، كلها كانت الآن منثورة فوق وعلى ما أصبح الآن حفرة ضحلة.

ثلاث نساء، وقد تقوست ظهورهن بأكداس الحطب ضعف تقوسها العادي، عبرن الحفرة باتجاه القرية.

تابع ميوغو مسيره يحدوه الأمل - بفضول آثم - أن يصل إلى المقطع الذي ساهم هو نفسه بحفره. احتدم في سريرته الخوف والترقب المتوتر. لسوف يثبت ناظريه على ذلك المشهد، لا، ولن يجفل.

المشهد برمته أصبح حيوياً وشيقاً من جديد. كان يشتغل على بعد ياردات قليلة من المرأة. وقد مضت ثلاثة أيام على عمله في البقعة نفسها. قفز الآن أحد أفراد الحرس الوطني وطفق يلسع المرأة بالسوط. شعر ميوغو بأن السوط ينهش من لحمه، نشيجها المؤلم كان كصرخة في أعماق فؤاده. لم يكن يعرفها. لقد رفض طيلة الأيام الثلاثة أن يعترف بأن من حوله مضطهدون مثله. الآن لم يكن يرى إلا المرأة، والسوط والحارس الوطني. تابع معظم الناس حفرهم متصنّعين عدم سماع صيحات المرأة، خائفين أن يلقوا المصير نفسه. أناس آخرون اختلسوا النظر إلى المرأة حين كانوا يرفعون مجارفهم ورفوشهم. ميوغو مذعوراً شق طريقه إلى الأمام وأمسك بالسوط قبل أن يكيل الحارس الوطني السوط الخامس. تراكض إلى مكان الحادث عدد من أفراد الحرس الوطني وجنديان أو

ثلاثة. توقف الناس الآخرون مؤقتاً عن الحفر وشاهدوا العراك والسياط التي كانت تتهاوى على جسد ميوغو. «إنه مجنون»، قال بعض الناس فيما بعد، بعد أن ابتعدت به عربة الشرطة. بقي المشهد بالنسبة لميوغو كابوساً يعجز عن إدراك تفاصيله المتفتّتة والضبابية، ولَحَم بعضها ببعض خلال عملية التنخيل السري التي تعرض لها فيما بعد. لم يكن يرى خلف الطاولة سوى الوجه الغامض للرجل الأبيض بعَينَيهِ الفاترتَين وهما تتفحصان ميوغو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. وأما الصوت الذي صدر أخيراً وكأنه صادر عن جثة هامدة، فقد كان مشحوناً بالسم الزعاف.

- إنك ممن حلفوا اليمين.

- لا، لا، يا أفندي.

- أعيداه إلى الزنزانة.

شرطيان جرّاه خارج المكتب، صبّا عليه الماء البارد، واحتجزاه في الزنزانة. يا لعدد المرات التي نسي فيها تلك النعال المسمورة تنغرز في لحمه، ولكنه لم ينس ولو مرة واحدة الماء المسفوح على الأرض الإسمنتية.

مدّ ميوغو بصره وتطلع إلى الرجال والنساء الذين كانوا يشتغلون في المزارع الضيقة المسوّرة بالأسيجة الشعثاء الممتدة من الحفرة التي كانت خندقاً ذات مرة. بدا عليه كأنه يرى الأشياء لأول مرة. أكان الناس دائماً يفعلون هذا، يوم عمل ويوم راحة، يتملقون التربة الصماء ابتغاء الحصول على الطعام؟

وفجأة تلاشى ذلك الفضول الذي دفع بميوغو للعودة إلى الخندق، ورغب بالهرب من الخندق ومن الذكريات التي شرعَت تجلجل في نفسه. فدخل القرية وبدا كوخه الآن وكأنه المكان الوحيد الأمين. أراد أن يعود إلى تلك الحالة، حالة النسيان، التي كان فيها قبل أن يسمع قصة مومبي ويحدق إلى عينيها. في طريق عودته إلى كوخه كان يثير زوبعة خفيفة من الغبار خلف قدميه.

تلك كانت اللحظة التي قابل واروي فيها ميوغو في الشارع. كان واروي قادماً من تجمع صغير تجمهر خارج كوخ المرأة العجوز. وأما بالنسبة إلى ميوغو فقد كان واروي شبحاً مقيتاً ولا سيما في هذه المرحلة. كان يحتقر واروي دون أن يعرف سبباً لذلك. كان القلق بادياً على وجه واروي من جراء التفكير ولكن ميوغو لم ينتبه إلى هذا.

«أمثال هذه الأمور كانت تحدث في الماضي البعيد»، بادره مباشرة وكأن ميوغو كان يعرف مسبقاً تلك الأفكار التي تدور في ذهن واروي.

- أية أمور؟ مشيا الهوينى في الاتجاه نفسه.

- أفلم تسمع؟

- لم يتناه إلى سمعي شيء ذو شأن.

- ولكن هذا الأمر ذو شأن. صدقاً كانت أمثال هذه الأمور تحدث، ليس مراراً وإنما مرة أو ربما مرتين، ولكنها وقعت فعلاً. حين كان الرجل أو الطفل يموت، كان يلقى به في الغابة. لقد رأيت بأم عيني، حين كنت يافعاً، رجلاً يعود من بين الأموات.

- ما الذي حدث؟ سأله ميوغو وقد عيل صبره.

- أنت تعرف تلك العجوز. وتعرف أنه كان لها صبي أبكم أصم منذ الولادة.

اضطرب ميوغو لمجرد ذكر العجوز، وتلاشى الضيق الذي أحاق به لمرأى واروي. نفد صبره قبل أن يروي واروي القصة على هواه. وتذكر ميوغو أنه كاد يدخل عليها في كوخها الأحد الماضي، فهل ماتت؟

- وماذا حدث لابنها؟ لقد أردي قتيلاً بطلقة أصابت منه مقتلاً خلال حالة الطوارئ. وكما يمكنك أن تتصور فقد سبب لها مصرعه ألماً مفجعاً. طيلة هذه السنوات ما بارحت كوخها ولا حدثت إنساناً بكلمة واحدة. اليوم بدأت بالنطق. مجرد مصادفة. وماذا تقول؟ تقول بأن ابنها عاد وقد شاهدته مرتين.

- إنه لأمر عجيب، علّق ميوغو.

- تقول بأنه دخل الكوخ مرة ثم غادره دون أن ينبس ببنت شفة. ولذلك تركت الباب مفتوحاً أياماً بلياليها كي يتمكن غيتوغو من العودة. تقول بأنه عاد مؤخراً، وقف بالباب، ومضى دون كلام للمرة الثانية. لقد أصبحت تنطق، إنها تتحدث طيلة الوقت.

- إنه لأمر عجيب، قال ميوغو ثانية وقد بلغ به الذعر أي مبلغ.

- نعم، هذا ما أقوله. إنه حدث عجيب في قريتنا، ولا أستطيع أن أمتنع عن قوله لنفسي حين أرى أن ثمة أشياء قد وقعت منذ سنة أو سنتين - أو منذ عدة سنين، تعود لكي تقلقل طمأنينة امرأة عجوز وراحتها. أولئك الذين دفنوا في التراب يجب أن يبقوا في التراب. والأشياء التي حدثت البارحة يجب أن تبقى مع البارحة.

لقد وجد ميوغو أن هذا الأمر أقلقه بطريقة لا تفسير لها عنده إلى أن تمكن في خاتمة المطاف من تخليص نفسه من واروي. تجول في الشوارع يفكر في تلك المرأة العجوز وفي ذلك الرباط المثير القائم بينه وبينها، حاول أن يطرد الحادث من ذهنه بعد ذلك، ولكنه اكتشف وهو في طريقه أن نفسه تجفل من فكرة مقابلته شبحاً ميتاً. الحياة نفسها بدت تجوالاً لا معنى له. ليس هنالك بالتأكيد أية علاقة بين شروق الشمس وغروبها، بين اليوم والغد، فلماذا يخشى إذا ما دفن وانتهى أمره... فكّر بينه وبين نفسه وهو يتذكر المرأة العجوز. بيد أنه سرعان ما بدأ يسمع صوت مومبي في سريرته، ويرى وجه الجنرال ر يحدجه بنظراته. وقف في ساحة مكشوفة في القرية، تهدلت شفته السفلى: شعر بأن عزمه يخور. وحين شعر بالوهن يدب في جسده اتكأ على شجرة صغيرة وتهاوى تدريجياً على الحشيش. أمسك رأسه بكلتا يديه. لست أنا. همس كي يقنع نفسه. لست أنا. كان من الممكن أن يحدث... قتل الرجال والنساء في الخندق... حتى لو... حتى لو... ها هو الآن يئن. كان صوت مومبي كالمدية التي شقت له قلبه وتركته عارياً. كان الطريق من كوخه يفضي إلى الخندق. ولكن هل كان

ثمة مناص من ذلك؟ كان من الممكن أن يموت المسيح على الصليب، بطريقة ما. فلماذا أنحوا باللائمة على يهوذا وقد كان مجرد حجر قذف من بين يدي قوة خارقة أكبر من قوة الإنسان؟ كيهيكا... مصلوباً... ومضت هذه الفكرة في نفسه، وحدث شيء غريب له. ها هو يرى الآن دماء غزيرة تسيل من جدران كوخه الطينية. لماذا لم ير هذه الدماء من قبل، تساءل الآن وهو صامت تقريباً. دونما خوف. ولكنه طفق يرتجف وهو في طريقه إلى كوخه وقد عقد العزم على أن يكتشف إن كانت الدماء هناك فعلاً.

لم ير شيئاً على الجدار. جلس على سريره وأسند رأسه بكلتا يديه من جديد. هل كان رأسه يتصدع؟ أجفل لورود هذه الفكرة ونظر إلى الجدران مرة ثانية.

كان الظلام قد حل مساء حين دخل غيكونيو وواروي كوخ ميوغو.

- «أخشى ألا يكون رأسي على ما يرام»، قال لهما... «ليس بوسعي، ليس بمقدوري أن أواجه هذا العدد الكبير من العيون».

- «تناول حبوب الأسبرو وهي تصفّي لك رأسك» قال واروي، وقد عجز عن الغوص إلى أعماق تلك الكآبة المبهمة التي تهيمن على الكوخ. «ماذا تغني الدعاية؟ دونك الأسبرو لأنه الدواء الناجع» وضحك ضحكة صفراء لوحده، ثم صمت فجأة حين تذكر محادثته القريبة مع ميوغو بشأن المرأة العجوز.

- «نرجوك أن تفكر بالأمر ثانية» قال له غيكونيو، وغادر الكوخ واروي وغيكونيو. احتار غيكونيو لنظرة الرعب التي كانت تهوم على وجه ميوغو. وأما واروي فقد تذكر بأنه لمّا يحدث ميوغو بعد عن المرأة العجوز.

«إنها مجرد تصاوير في الذهن» أنهى غيكونيو الموضوع وقد بدأ يفكر في مومبي. وفجأة شعر بالحافز لضربها، لضربها فعلاً، ووضع حدٍّ لها. وهذه المرة لن يسمح لأمه بالتدخل.

اتجه واروي إلى مسكن وامبوي وأخبرها عن تمنّع ميوغو. ذهبت

وامبوي وواروي إلى عدة أكواخ أخرى وتحدثا بالأمر نفسه. وهكذا انتقل الحديث من كوخ إلى آخر. إن الرجل الذي عانى عناء مريراً يدلل الآن أخيراً على عظمته بتواضعه هذا. لقد أصبح ميوغو، برفضه تصدّر المهرجان، بطلاً أسطورياً.

إلى من يتوجه الإنسان، تفكر غيكونيو وهو يسرع لصب جام غضبه على مومبي. كان غاضباً على كل الناس: النائب (لماذا يجب انتخاب أمثال هؤلاء الرجال الذين لا يفعلون أكثر من زيادة ثروتهم الشخصية (وميوغو) من يظن نفسه؟ (ومومبي) حسبت بأن الزواج سيحقق لي السعادة). ارتجف انفعالاً خارج البيت. لن يمنعه إنسان قط. لسوف يجلد مومبي إلى أن تستغيث طالبة منه الرحمة.

فتح الباب على مصراعيه بعنف، ولكنه ما زاد على أن حدق إلى عيني وانغري.

- «لقد عادت أدراجها إلى ذويها، انظر كيف هدمت بنفسك بيتك. لقد دفعت بامرأة طيبة إلى حمأة البؤس دونما ذنب اقترفته. فلنر الآن ما الفائدة التي ستجنيها من المثابرة على تسميم أفكارك بأمثال هذه الأشياء في الوقت الذي كان يجب عليك أن ترضى وتفتش عن أفضل وسيلة لبناء حياتك. ولكنك أنت، كطفل سخيف، ما رغبت بمعرفة ما حدث قط، ولا أردت أن تعرف على أي نوع من النساء كانت تنطوي مومبي».

في الظروف العادية كان يدرك غيكونيو أن وانغري حين تلجأ إلى ذلك الصوت الفاتر المحكم، فقد كان ذلك ينم على أنها غاضبة أو مجروحة في الصميم. والآن هو نفسه غاضب ولكنه لا يحسن التعبير بالكلمات عما يجيش في ذهنه من أفكار عديدة.

- «فلْتمض ولا تعد مطلقاً» صاح في وجه أمه غاضباً وقد شملها ضمن تلك المؤامرة العامة على حياته. وقفت وانغري وهي تهز سبابة يدها اليمنى في وجهه.

- «أنت. أنت. لو أنك اليوم طفل تحبو على ركبتيك وتأكل الطين

والتراب لقرصت فخذيك قرصاً موجعاً لكي تتعلم. ولكنت صرت الآن رجلاً. عد وتأمل ما في سريرتك وافهم نفسك».

خرجت وتركت غيكونيو يقف وحيداً داخل مسكنه الجديد.

* * *

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

الفصْل الثالِث عَشَر

إن معظمنا نحن الوافدين من ثاباي، رأوه لأول مرة في سوق رونجي الجديدة في ذلك اليوم الذي هطل فيه المطر غزيراً. أتذكرون ذلك الأربعاء الذي سبق عيد الاستقلال بيوم واحد فقط؟ يومها أعولت الريح وانهمر المطر مدراراً على الأرض، فسارعت النساء لترك سلعهن في العراء وتدافعن إلى الحوانيت طلباً للمأوى. وسرعان ما تجمهرن تحت السقائف الضيقة، وبدأت حبات المطر تتقطر من الأكياس ومن رقاع الثياب التي كن يسترن بها رؤوسهن، وتشكلت البرك الصغيرة على الأرض الإسمنتية. قال الناس بأن ذلك المطر 'لمدرار كان ثواباً لنا على حريتنا التي دفعنا ثمنها غالياً. إن عين مورونغو في السماء لا يغمض لها جفن: إنه دائماً يذرف دموعه فوق أرضنا هذه منذ بدء الخليقة. كما كان من عادتنا، نحن الأطفال، أن ننشد:

انغاي (الله) وهب الغيكويو منطقة جميلة.

لا ينضب فيها الماء ولا الطعام ولا المراعي،

لذلك من الجميل أن يرفع الغيكويو آيات الشكر لله أبد الدهر،

لأنه كان دائماً سخياً عليهم.

لقد هطل المطر في اليوم الذي عاد فيه كينياتا إلى وطنه من إنكلترا، كما هطل أيضاً في اليوم الذي عاد فيه كينياتا إلى غاتوندو من مارالال.

رأينا هذا الرجل يسير تحت المطر ويحمل سلة مليئة بالخضار والبطاطا تتدلى فوق ظهره. كان طويل القامة عريض المنكبين، يسير بانحناء طفيف

مما ترك لدى الناس انطباعاً خاصاً عن قوته البدنية. وبما أنه كان الإنسان الوحيد السائر تحت المطر فسرعان ما استقطب انتباه الناس الواقفين على الأرصفة وتحت سقوف الحوانيت، حتى إن بعضهم شقوا طريقهم بالقوة وسط الزحام للتقدم إلى الأمام ابتغاء رؤيته.

- ماذا هو فاعل، أَيَمزَحُ تحت المطر؟

- إنه إنسان أبكم أصم.

- إنه يتباهى، إذا سألتموني.

- ربما عليه أن يقطع مسافة طويلة ويخشى حلول الظلام.

- حتى لو كان كذلك، يجب عليه الانتظار إلى أن يخف المطر قليلاً، إذ أخبروني بربكم ماذا يجني إن وصل البيت مصاباً بذات الرئة في حناياه؟

- أو ربما ينيخ على صدره هم ثقيل.

- ليس ذلك أمراً يدفع بالمرء إلى البلل لحد المرض، ومن منا لا يحمل هماً في صدره؟

اقترب الرجل من الطرف البعيد لحوانيت رونجي. تحدثت النسوة عن كل المخاطر التي يتعرض الناس لها إن هم عرضوا أنفسهم للمطر. سرعان ما اختفى الرجل وغاب خلف الحوانيت.

- ما الذي يمنعه من اتقاء المطر؟

- «ميوغو إنسان غريب الأطوار» قالت وامبوي ممعنة في التفكير.

مضى ميوغو إلى السوق لابتياع بعض الأطعمة. وحينما كنا يشق طريقه وسط الزحام، بين صفوف النساء اللواتي كن يفترشن الأرض، شعر بأنه مراقَبٌ، وندم أشد الندم لمجرد مجيئه إلى هذا المكان. وفجأة بدا أن الشمس تحتجب قبل أوانها وتلونت المنطقة والسماء باللون الداكن القاتم. هبت ريح باردة وبدأت تنسج قصاصات الورق البيضاء ورقع الثياب والحشائش والريش وتدور بها على شكل الإعصار.

وسرعان ما تلبدت السماء بالغيوم، ولمعت ومضات البرق التي تبعتها

زمزمة الرعد. وهطل المطر مباشرة. إحساس مرعب جديد طفق يخالج ميوغو مخافة عودة مشاهد ميتة للحياة من جديد، تذكر التمائم النسائية في الحوانيت الهندية منذ زمن بعيد، فولى الأدبار.

في مكان ما بدأت امرأة بأغنية الخندق التي كانت نشيد القرية في زمن مضى. نساء أخريات التقطن منها اللحن.

وقفز في الخندق.

والكلمات التي وجهها للعسكري خرقت كالحربة قلبي.

إنك لن تضرب المرأة قال له،

إنك لن تضرب امرأة حبلى، قال للعسكري.

توقف العمل في الخندق

وسكنت الأرض أيضاً.

وحينما اقتادوه بعيداً

دموع، قانية كالدماء، تدحرجت على وجهي.

كان الناس يلهجون باسم ميوغو وتتناقله الشفاه همساً من شفة لأخرى، كما أن قصصاً سرية عنه انتشرت بين نسوة السوق. ما كان لهذا الأمر أن يحدث في يوم تسوق عادي، بيد أن هذا اليوم لم يكن مجرد يوم آخر كبقية الأيام؛ إذ إن كينيا، في هذه الليلة، ستنال استقلالها، وميوغو، بطل ضيعتنا، لم يكن إنساناً عادياً.

وامبوي أوضحت الموقف على النحو التالي: إن يوم الاستقلال دونه سيكون يوماً باهتاً، إنه كيهيكا جديد بعث من القبر. فطافت في السوق وقد عقدت العزم على وضع قرارها الضمني موضع التنفيذ: «على النسوة أن يتصرفن، على النسوة أن يفرضن المسألة، وفي خاتمة المطاف إنه ابننا»، قالت للنسوة في السوق إبان تجمع مرتجل انعقد بعد المطر. إن شعلة النضال لم تخب بعد في روح وامبوي.

كانت تؤمن بقدرة النساء على التأثير في الأحداث، ولا سيّما حيث

يفشل الرجال في التصرف أو حين يبدو عليهم التردد. كثير من الناس في ثاباي القديمة كانوا يتذكرون مسرحيتها التي أصبحت شهيرة في هذه الأيام، ألا وهي إضراب العمال عام 1950. كان المقصود بالإضراب أن يشلّ حركة البلاد ويضع العراقيل في وجه حكم الإنسان الأبيض لها. حفنة من الرجال ممن كانوا يعملون في معمل كبير للأحذية بالقرب من ثاباي، وممن كانوا يعملون في المستوطنات، تذمروا من الإضراب، بل وقالوا، كما راجت الإشاعات، بأنهم لن يشتركوا فيه، فعقد الحزب اجتماعاً عاماً في رونجي. في ذروة ماجَريات الأمور اندفعت وامبوي فجأة من قلب الجماهير إلى المنصة وهي تقود زمرة من النساء. خطفت مكبر الصوت من الخطباء - تصرف استقطب اهتمام الناس كافة. «هل ثمة رجل مجنون ترتعد فرائصه لرؤية إنسان أبيض؟ لقد رفعت النسوة أبناءهن من أمثال ميثورو ومينغر إلى المنصة»، قالت... «فليتقدم أمثال هؤلاء الرجال»، جأرت ساخرة، «وليلبسوا تنانير النساء ورباطهن، وليتخلوا عن سراويلهم للنساء». جلس الرجال في مقاعدهم بشكل متعنّت وحاولوا الضحك مع الجماهير كي يخفوا ضيقهم الضمني. في اليوم التالي ترك الرجال عن بكرة أبيهم العمل.

الآن قررت النسوة أن يوفدن مومبي إلى ميوغو. مومبي أخت كيهيكا. لقد عقدن العزم على مواجهة ميوغو بفتوة جذابة طاغية - فتوة ليس بوسع مخلوق أن يتجاهلها أو يغض طرفه عنها.

وهكذا ذهبت وامبوي تنقل هذه المهمة إلى مومبي. وهناك اكتشفت أن مومبي قد هجرت زوجها، ولكنها سرعان ما عثرت عليها.

«هذا الأمر يهم ثاباي كلها» أدخلت هذه الفكرة في ذهن المرأة الشابة، «انسي همومك البيتّية والعاطفية. هيا إلى ميوغو وقولي له ما يلي: إن النسوة والأطفال بحاجة إليه».

وجدت مومبي أن من العسير عليها أن تخبر ذويها عن سبب هجرانها لزوجها. لم تتحدث قط لأمها أو أبيها عن ذلك الجو المشحون الذي

كانت تعيش فيه: إذ كيف بوسعك أن تذهبي وتقولي للناس بأن زوجك قد رفض مضاجعتك؟ أليس من الممكن أن يظنوا وقتها بأنه عنّين وينشروا تلك الإشاعة الهدامة؟ ولذلك بما أن أبويها لا يعرفان القصة بحذافيرها فإنهما لم يستقبلا عودتها بالأحضان. ليس لأحد الأبوين أن يشجع البنت على عصيان زوجها. بل إن وانجيكو سخرت من ذلك التعليل الهزيل الذي قدمته مومبي.

«لشد ما تدهشني نساء هذه الأيام. إنّ واحدتهن لا تتحمل من زوجها صفعة خفيفة بخف الريشة، أو أقل نأمة منه. في زماننا كانت الزوجة تتحمل من زوجها اللطمة تلو اللطمة دون أن تخطر لها فكرة العودة إلى ذويها».

- ألم تعودي تعيرينني شيئاً من الاهتمام قط؟ لا أستطيع البقاء في بيته أكثر من ذلك. لا أستطيع، ولا سيّما بعد أن قال ما قال - لا أستطيع لا أستطيع.

- صه! إياك أن تتحدثي كامرأة سخيفة.

- «لا يا أماه إذا كنت لا تقبلينني في هذا الكوخ، صارحيني حالاً، وسأغادره مباشرة مع ابني إلى نيروبي أو إلى أي مكان آخر. نعم، لن أعود ثانية إلى ذلك البيت. قد أكون مجرد امرأة، ولكن حتى الكلبة الجبانة تدافع عن نفسها حين تحشر في زاوية ضيقة».

كانت عواطف اونجيكو في صف مومبي، بيد أن واجبها كان دقيقاً ويتمثل في رأب الصدع الذي وقع.

«سوف نتحدث بالأمر يا طفلتي» قالت بصوت خفيف.

ثمة شيء آخر كان يسمّم حياة مومبي؛ إذ حتى وهي في حمأة بلواها لم تجد لها سبيلاً لنسيان ما قاله الجنرال ر. كارانجا سوف يُقتل للدور الذي لعبه في موت كيهيكا. أيقضي الواجب إتيان ذلك الفعل باسم أخيها؟ لقد تم سفك الكثير من الدماء: فلماذا يجب تحميل الأرض آثاماً جديدة؟

استفاقت في الصباح والمشكلة ما زالت عصية على الحل. ولكن لحسن طالعها كان يوم الأربعاء هو يوم التسوق في رونجي حيث يجتمع الناس من النجود الثمانية التي حول ثاباي. قابلت عرضاً رجلاً ذاهباً إلى غيثيما وسرعان ما حزمت أمرها، فتناولت ورقة (كان أخواها قد علماها القراءة والكتابة) وخربشت عليها: إياك أن تحضر الاجتماع غداً. كتبت عليها عنوان كارانجا وأعطتها إلى الرجل. بعدئذ شعرت بالانفراج.

والآن توجهت إليها وامبوي برفقة عدد من النسوة طلباً لمساعدتها. في البداية أحجمت مومبي عن التدخل في أمور تهم الزوج الذي هجرته. ولكن حين كانت وامبوي تتحدث في الموضوع أصبحت مسحة التحدي لدى مومبي أقوى من ذي قبل: إنها لن تسمح لغيكونيو أن يظن بأنها وحيدة وبائسة. ماذا لو نجحت حيث أخفق هو؟ هزت هذه الفكرة مشاعرها وهكذا قبلت تنفيذ المهمة بكل رضى.

زادت حدة رعشتها وهي في طريقها مساء إلى كوخ ميوغو. كان النهار داكناً وغائماً، وبدا الليل أكثر ظلمة من المعتاد. شعرت مومبي مرة ثانية بشعور الصبيّة التي تتحدى الظلمة والريح والعاصفة بكل جرأة وهي في طريقها لملاقاة حبيبها. ماذا لو حاول ميوغو أن – تركت السؤال والجواب معلقين. ولكن الاحتمال بأن يضبطها غيكونيو تحادث رجلاً آخر سبب لها الهواجس. ولكنها طليقة بلا قيود، قالت لنفسها، كي تهدئ من روعها. فليضبطها إذاً، أعادت بنوع من التحدي. ومع ذلك فإن خطواتها تعثرت وقلبها زاد وجيبه حينما وقفت عند باب كوخ ميوغو.

في البداية تدفق الدم حاراً في عروقها، واختلطت الرهبة بالبهجة حين رأت ميوغو بالباب. ولكن ميوغو سدّ الباب بكل فظاظة وكأنه يتوقع تعليلاً منها. انتابها شيء من القلق.

– ألن تدعوني للدخول؟ سألت بلهجة تودد زائف.

– «آه، آسف تفضلي». لم تستطع أن ترى وجهه غير أن الرعشة في صوته. كانت واضحة جداً. لاحظت تحت النور ذلك القلق الذي يساور

ميوغو. تقلص صدوده المتعجرف. كان في عينيه السوداوين تلك النظرة الفاسقة التي يراها المرء على مدمني الشراب. جلس بعيداً عنها، حذراً، وكأنه كان خائفاً منها، جالت ببصرها في الكوخ العاري من الأثاث، الذي كانت جدرانه مضاءة بنور السراج الخافت.

- «إن الكوخ خال تقريباً من الأثاث» قال بفظاظة وقطع لها سلسلة أفكارها.

- إن ما فيه يكفي لرجل واحد. حاجات الرجل العازب قليلة. وضحكت بقلق. احتارت لصدوده وخوفه، تناقض صارخ مع ذلك الانفعال الذي كان يتراقص البارحة في عينيه. ومع ذلك فقد سمحت لأفكار لا علاقة لها بالموضوع، أن تأسر خيالها. - لو رغب بي - لو رغب أن -.

أتعلم سبب مجيئي إليك؟ سألته وهي تفتش عن الكلمات المناسبة، ويحدوها أمل كبير في أن تستطيع تحطيم عناده المثير للأعصاب.

«لا أعلم - ما لم - ما لم يكن بسبب ما تحدثت به إلى الدرجة - إن ما أعنيه هو - ما عرفت ماذا كنت تريدين مني...».

«آه، أردتك أن تكلم زوجي. كان لا بد له من أن يصغي إليك. أتعلم أنه منذ عودته من المعتقل لم يشاركني مخدعي مرة واحدة. ولم يقل كلمة واحدة بشأن الطفل. إن ما كان في سريرته كان خافياً عني البارحة. لقد كان أمراً قاسياً، قاسياً، قاسياً...». لقد بدأت بلهجة واقعية وخلصت إلى حالة من الهيجان. تذكرت ذلك اليوم الذي عاد فيه غيكونيو من المعتقل. كانت ترغب بالتحدث إليه، كي تفهمه بكلمة، بلمحة، ولكن الكلمات لم تتكون في ذهنها. إن ظهوره المفاجئ بدا كأنه قد سحقها وأحالها إلى صمت مطبق غبي. ومع ذلك فكم رغبت في التوصل إليه، حينئذٍ، هناك، حين كانت تحدق إلى الجدار قبالتها، وهي تتساءل عما سيفعله بها. تمالكت نفسها وسادت فترة صمت محزنة قبل أن تصحو وتعود إلى ما هي فيه الآن. «على كل حال لم يعد ذلك مهماً الآن. لقد تشاجرت معه في الليلة الماضية - وعدت إلى ذويّ».

- لا! قال متأسفاً في غفلة عن نفسه.

- بلى. ولكن ليس هذا الأمر هو ما دفعني للمجيء إليك هذه الليلة. نسوة ثاباي ومنطقة رونجي أوفدنني إليك. إنهن يردن حضورك الاجتماع غداً.

- لا أستطيع، قال بلهجة قاطعة.

- يجب عليك أن تحضر، أجابت وارتفعت لهجتها إلى مستوى التحدي.

- لا، لا.

- يجب أن تحضر. كل هؤلاء الناس في انتظارك. الشعب يريدك.

- ولكنني - لكنني - لا أستطيع.

- إنهم يطالبون بك.

- يا مومبي، يا مومبي، صاح بصوت معذب.

- سوف تحضر يا ميوغو، ستحضر.

- لا.

- إذاً أتوسل إليك. قالت بحزم، بقوة وسلطان جديدين. حدجته في عينيه، ها قد توصلت إليه الآن، تخالجها رغبة في أن تشق قلبه، للحظة، وتقف على أسرار سلطانه على الناس والقدر. ها هو بين أصابعها الآن كالريشة في مهب الريح، وفجأة أدركت سلطانها عليه. إنها لن تتركه يفلت منها الآن.

- أتدركين ماذا تطلبين مني؟

- هل هي المعتقلات؟ سألته وقد رقّ قلبها قليلاً.

- لا - نعم - كل شيء.

- ماذا.

- أنت تطلبين مني ذاتي.

كان أمراً قاسياً. لقد ضربوك في المعتقلات. سمعنا بذلك.

- هل سمعتم؟

- نعم، ماذا جرى؟

«لا شيء سوى أنني شاهدت رجالاً يزحفون على الأرض كالمقعدين لأن أيديهم وأرجلهم كانت ترسف بالقيود». وهكذا بدأ الآن يتحدث بصوت مقهور كالطفل. «ذات مرة حشروا أعناق الزجاجات في مؤخرات الناس وكان الرجال ينشجون كالحيوانات الحبيسة. جرى ذلك في ريرا». توقف عن الكلام وكأنه يتمعن بكل فتور مشهداً بعيداً وقريباً في آن واحد. ثم انحنى قليلاً إلى الأمام وباح بسرّ طفولي. «حين كنت يافعاً شاهدت الإنسان الأبيض، لم أكن أعرف وقتها من هو أو من أين جاء. وبدأت أدرك الآن أن الفرد من قبيلة مزونغو ليس بشراً سوياً - تذكري ذلك دائماً - إنه شيطان - شيطان». توقف ثانية كي يلتقط أنفاسه وتابع بصوته المقهور. رأيت رجلاً قطعوا له قضيبه بالكلاّبة. خرج من مكتب التحقيق وتهاوى على الأرض وأعول قائلاً: «يجب أن تعلموا بأنني لن أمس زوجتي بعد الآن، آه، يا إلهي، أبوسعي أن أنظر في عينيها بعد هذا؟» وأما بالنسبة لي أنا فقد تطلعت في الفراغ وفي أعماقي ظلمة لا يمكن النفاذ إليها.

تساقطت الدموع على وجه مومبي. تمنت لو تتوصل إليه من جديد، لو تصحح الخطأ، لو تشفي الجرح.

«إذاً يا ميوغو» توسلت إليه من خلال الدموع، «يجب أن تتحدث غداً. ليس عن أخي، لقد مات وانتهى أمره. أدى واجبه على هذه الأرض. تحدّثْ إلى الأحياء. حدثهم عن أولئك الذين شوهتهم الحرب، تركتهم عراة وجرحى: اليتامى. الأرامل. حدّث شعبنا عما شاهدت».

- لم أشاهد شيئاً.

- حتى ذلك قله يا ميوغو، قل أي شيء. قالت وقد شعرت بأنه تملص بعيداً عنها. جاهدت للإمساك به ورأت بأنه كان يرتعش.

- أأحدثهم عن نفسي؟

- عن كل شيء.

- أتريدينني أن أفعل ذلك؟ جأر بصوته. إن تغير لهجة الصوت، وقد أصبح يشبه الجؤار الصادر عن حيوان على وشك الذبح، أدخل الذعر إلى نفسها.

- نعم. وافقت وهي تشعر بالخوف.

«لقد أردت أن أعيش حياتي. ما أردت أن أتورط بأي شيء قط. ثم دخل حياتي، هنا، في ليلة كهذه، وشدني إلى التيار. ولذلك قتلته».

- من هو؟ عم تتحدث؟

قهقه ضاحكاً بشكل غير طبيعي. «من قتل أخاك؟».

- كيهيكا؟

- نعم.

- الإنسان الأبيض.

- لا. أنا من شنقه - أنا من شنقه.

«ليس هذا صحيحاً - أفقْ يا ميوغو - كيهيكا شنق - أصغ إلي وكفّ عن الارتجاف هكذا - رأيت جسده يتدلى من الشجرة».

«أنا الذي فعل ذلك! أنا الذي فعل ذلك! وطفق يقهقه. ذلك ما كنت تبغين معرفته. وسأفعل ذلك ثانية - لك - هذه الليلة».

حاولت أن تصيح طلباً للنجدة ولكن صوتها توقف في حلقها. اتجه نحوها وهو يدمدم بالضجيج والضحك المخبول. قفزت إلى الباب ولكنه كان قد وصله قبلها.

«لن تستطيعي - الإفلات. اجلسي - ها! سأفعله لك...». كان يرتجف والكلمات تخرج من فمه بارتعاش عصبي عنيف.

«تصوري أنك لا تجدين إلى النوم سبيلاً طيلة حياتك - أصابع لا تعد ولا تحصى تلمس لحمك - العيون تراقبك دائماً - في الأمكنة المعتمة - في الزوايا - في الشوارع - في الحقول - تنامين تستيقظين دونما

راحة – آه. يا لتلك العيون – أفلا يمكنكم أن تتركوا إنساناً وحده. لدقيقة واحدة، لدقيقة فقط – أعني أن تتركوا إنساناً يأكل ويشرب ويشتغل – كلكم – كيهيكا – غيكونيو – المرأة العجوز – ذلك الجنرال – من أرسلك إلى هنا الليلة؟ من هو؟ قولي. تلك العيون مرة أخرى – سنرى من الأقوى – الآن –».

حاولت أن تصيح ولكن صوتها خانها للمرة الثانية. أطبق عليها، يد على فمها والثانية تبحث عن رقبتها. لهثت وارتجفت بشكل مرعب. حدقت إلى عينيه. حتى فيما بعد لم تستطع تعليل الرعب الذي شاهدِته فيهما. وعلى حين غرة كفّت عن مقاومته واستسلمت له.

ما بالك يا ميوغو؟ ما العيب في ذلك؟ وأجهشت بالبكاء.

***

أولئك الذين منكم زاروا ثاباي أو نجداً من النجود الثمانية حول رونجي (أي من كيرارابون إلى كيهينجو) لا بد من أنهم قد سمعوا عن ثوماس روبسون أو كما كان يدعى في العادة (توم) المرعب. كان رمزاً لتلك الأيام السوداء في تاريخنا، تلك الأيام التي شاهدت ولادته كمدير منطقة في رونجي – أي حين بلغت حالة الطوارئ ذروة العنف والرعب. قال الناس عنه بأنه كان مجنوناً. تحدثوا عنه بخشوع، دعوه (توم) أو بكل بساطه (هو)، وكأن ذكر اسمه الكامل يستحضر روحه في حضرتهم. كان يسوق سيارة الجيب وخلفه عسكري أو عسكريان ورشاش برن عند ركبتيه، ومسدس في بنطاله الخاكي تخفي قسماً منه سترة مموهة، ليظهر فجأة في معظم الأزمنة والأمكنة غير المتوقعة كي يقبض على الضحايا الأبرياء الذين هم فوق الشبهات. كان يسميهم بعناصر الماو ماو. كان يضعهم في سيارة الجيب وينقلهم إلى طرف الغابة ويطلب إليهم أن يحفروا قبورهم. كان يطلب منهم الركوع وتأدية الصلاة، وأحياناً كان يقاطع صلاتهم بطلقة من رشاشة البرن. ولكنه في غالب الأحيان كان يقاطع صلاتهم بطلقة مسدس. بيد أنه أحياناً كان يعفو عن أحد الرجال

حتى وهو راكع عند حافة قبره. كان يمارس ذلك السلوك حتى لا تعرف الضحية، حتى اللحظة الأخيرة، ماذا يجب أن تفعل: أتهرب منه وتخاطر بطلقة أو تنتظر فربما يغير توم رأيه. قالوا بأنه كان حاضراً في كل مكان. وسرت الإشاعات. هذا الرجل شاهد توم هنا وذاك الرجل شاهده هناك. بعض القرويين كانوا يرون سيارة جيب في أحلامهم ويزعقون خوفاً. كان آكل لحم البشر يسير ليلاً ونهاراً. كان هو الموت بعينه. كان متوحشاً بشكل خاص مع أولئك الأجراء الذين يتم ترحيلهم من وادي ريفت إلى أرض الغيكويو.

كان ذلك عام 1950.

وصل نشاطه إلى ذروته في مايس 1955. وفي إحدى الأمسيات بينما كان يقود سيارته من رونجي إلى مكاتب المنطقة، رأى رجلاً يسير بمفرده على الطريق الأسفلتي. أقعى الرجل قرب سياج عند الطريق. صاح به توم. جاء الرجل باتجاه سيارة الجيب متعثر الخطى، كانت ركبتاه تصطكان على ما يبدو. قرب سيارة الجيب كان من الممكن سماع صريف أسنانه حتى إن توم انفجر ضاحكاً. «لا تخف أيها العجوز» صاح به مرحاً وكأنه يريد طمأنة الرجل، «توم لن يأكلك» فجأة انتصبت قامة الرجل العجوز واستل شيئاً من جيبه، وطلقتان سريعتان اخترقتا جسد توم. وقبل أن تتمكن عناصر الشرطة المذعورة من فعل أي شيء قفز الرجل فوق السياج صوب الحوانيت الهندية. أطلقت الشرطة النار في الهواء. لم يمت توم مباشرة. يقال (ولها طابع الخرافة في القرية) بأنه قاد سيارته بنفسه إلى المستشفى حيث مات بعد ثلاث ساعات دون أن ينطق بشيء واضح إلا الكلمة الوحيدة: وحوش.

وفي غضون ساعات كانت القرى محاصرة من جانب الجنود. وصدر البيان الرسمي - الذي احتل السطور العريضة في الصحف فيما بعد -: مقتل مدير منطقة بشكل وحشي على يد الماو ماو السفاحين.

في ذلك اليوم - والقرويون يتحدثون عن هذا إلى يومنا - كان ميوغو

كعادته في طريقه إلى أرضه الصغيرة قرب محطة قطار رونجي، منتشياً بالأحلام التي كان يحبها، أحلام كانت تنقله دائماً من الحاضر إلى المستقبل. لقد صار يرى بتلك الأحلام مهمة خاصة، نبوءة. أفلم يتملص، دون خدوش، من العمليات الأولى لحالة الطوارئ؟ كانت كينيا ترزح تحت ظل قانون الطوارئ منذ 1952. اقتيد بعض الناس إلى المعتقلات بينما هرب بعضهم الآخر إلى الغابة، بيد أن هذه الأمور كانت بمثابة مسرحية في عالم لا علاقة له بعالمه الخاص. حافظ على تفرّده وهو يشعر بأن ثمة يوماً لا بدّ آت حيث تدق فيه الطبول والمزامير والأبواق معاً معلنة دخوله إلى العالم الجديد الآخر. لطالما سمع الرجال يتحدثون أثناء بناء الأكواخ في رونجي الجديدة، ولكن لم يكن لكلماتهم تأثير فيه: إذ ماذا يهمه من الأمر إن كانت النساء تقمن بعمل الرجال أو أن الأطفال يكبرون بسرعة كبيرة؟ أفلم يبدأ هو نفسه بإعالة نفسه في سن مبكرة؟ كان ميوغو من بين الأوائل الذين أنجزوا بناء أكواخهم ضمن المدة المحددة. لقد أنجز الكوخ: رفع بنيانه وقشّش سقفه وسيّع حيطانه دونما مساعدة من أي إنسان. كان الكوخ أول مأثرة عظيمة له. وبعد انتقاله إليه تابع سيرة حياته اليومية: طفق يولي عنايته للغلال وعيناه شاخصتان إلى المستقبل.

ذلك اليوم، عشية تلك الجمعة، عاد إلى البيت من المزرعة مجهداً. بكل رفق أسند المجرفة والساطور على الجدار قبل أن يفتح الباب، مغتبطاً في سريرته لملمس القفل، نشوان لحشر المفتاح في القفل، مؤجلاً الإجراء الأخير، العملية برمتها كانت تهزه طرباً، كان الكوخ امتداداً لنفسه، لآماله وأحلامه. دخل، جلس على السرير، أبدى إعجابه بالجدران (لم يكن الطين قد يبس بعد) وبالسقف المخروطي الذي كانت تنتأ منه قضابات الحشيش والسرخس. سرعان ما تسللت الظلمة إلى الكوخ، أضاء السراج وهو يصفر لنفسه لحناً. أشعل بعد ذلك النار وقلى خليطاً من حبوب الذرة والفول فوق أثافي الموقد الثلاث. كانت هذه وجبته الوحيدة في اليوم. كانت من عادته دائماً أن يسلق كميات كبيرة من

حبوب الذرة والفول ويحتفظ بها لعدة أيام ليقلي منها وجبة كل حين، ما يكفيه لوجبة واحدة. بعد تناول الطعام سار إلى الباب ليتأكد من أنه أزلجه بإحكام. وثانية كان يتمهل عند المزلاج مبدياً إعجابه به. لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره. لم يكن يمتلك شيئاً، ولكن المستقبل كله بين يديه. تمدد منبسطاً على السرير: كان من المريح له دائماً أن يستلقي على السرير بعد جهد يوم جهيد في المزرعة. دلّك بطنه وتجشأ يغمره الرضى بشكل غامض. خارج الكوخ كانت قوانين منع التجول. وثانية هذه القوانين لم يكن لها أثر على ميوغو لأنه، حتى قبل 1952، نادراً ما كان يغادر الكوخ. لقد درب نفسه على الولوج في شفق آمن كلما استلقى على ظهره في السرير أو في المزرعة. في أمثال هذه اللحظات كان قلبه يناجي أصواتاً غريبة تتجمع كلها في صوت واحد من الله ينادي يا موسى! يا موسى! وحينها يكون ميوغو متأهباً للإجابة: لبّيك يا رب.

كان في هذه المرحلة من حلمه حين تناهت إلى سمعه أصوات الصفارات والصيحات وحفيف الأقدام. مزّق الصفير بكل حدة سكون الليل وأفكار ميوغو. كان يقوم مثل هذا الصفير دائماً كلما هاجم الثوار قرية من القرى أو قتلوا شخصية مرموقة. ولكن مرت على ثاباي فترة هدوء طويلة، وآخر مرة وقع فيها مثل هذا الهرج والمرج كان الأسبوع الذي قتل فيه الأب جاكسون كيغوندو والمعلم مونيو. كان يزداد حجم الصفير حيناً ويخبو حيناً آخر وكأنما كان يروح ويجيء مع الريح. ثم توقف نهائياً. خيم على القرية صمت مطبق. وبغتة أيضاً مزق السكونَ صوتُ الطلقات النارية. تعالت الصيحات وتناهت إلى سمع ميوغو زعقات بعيدة صادرة عن نسوة. إطلاق النار اقترب الآن من الكوخ وأصبح الصفير أشد إلحاحاً وتواصلاً. رجل صاح: روبسون. اتكأ ميوغو على مرفقه في سريره، شرع قلبه يخفق الآن قلقاً لاقتراب إطلاق النار والصياح. ومرة ثانية تبددت الضجة العامة. سمع ميوغو رجلاً يعول محتجاً: كنت في طريقي إلى البيت. أصدقكم القول بأنني كنت في طريقي إلى البيت، حين ساد الهدوء

ثانية اضطجع ميوغو على السرير وراح في حالة من الوسن. كان ميوغو من بين القلائل الذين حالفهم الحظ ولم يعرفوا ذعر التفتيش البوليسي في أكواخهم ليلاً.

لم يكن بمقدوره أن يقدّر طول المدة التي بقي فيها على تلك الحالة: ولكنه استفاق بالتأكيد لدى سماعه طرقة على الباب. فتح عينيه جافلاً وجلس. من تُراه الطارق؟ تكرر الطرق. تحرك ميوغو إلى الأمام، بحذر، توقف، ثم تحرك إلى الأمام وتوقف مرة أخرى. اصطدم بالسراج. انطفأ. الظلمة المباغتة سربلت نفسه برعب أشد من الرعب الذي سببه له قرع الباب. أخذ يتلمس طريقه بحثاً عن الثقاب حول الأثافي وأعماق فكره مشغولة بالسؤال الملحاح: أعليه أن يفتح الباب؟ قرع الباب للمرة الثالثة قرعاً متواصل أكثر من ذي قبل، عنيداً أكثر من ذي قبل، فوثب إلى الباب. تنحى جانباً مفسحاً طريق الدخول للحرس الوطني، متابعاً في الوقت نفسه بحثه الخائف عن الثقاب.

«دعني أشعل السراج» غمغم وهو يختلس النظر إلى شبح الرجل الواقف عند الباب.

- «لا حاجة لك به» قال الرجل بصوت خفيض. «إن وميض النار يكفي».

- من أنت؟

- صه! لا ترفع صوتك و - ولا تخف.

- من أنت؟ أعاد ميوغو السؤال يائساً، متعرفاً على الصوت.

ضحك الرجل قليلاً بعصبية، وفجأة أحس ميوغو بالغرفة تتحول إلى جليد، تعثر بعلبة الثقاب وكاد يشعل منها عوداً لولا أن همس الرجل سراً.

- لا تشعله - الحرس الوطني والشرطة منتشرون في كل مكان - لقد مات.

- من؟

- مدير المنطقة.

- روبسون؟

- نعم - لقد صرعته. لقد بقيت طيلة هذه الشهور أنتظر الإجهاز عليه.

كانت الدموع تخالج تلك الهمسة، ووقعت علبة الثقاب من يدي ميوغو. كان عليه أن يستردها بيد أن فكره لم يكن مهتماً بذلك الأمر - سائل بارد انزلق في أمعائه لدى سماع كلمات الرجل، إبرٌ لا تحصى وخزت لحمه.

- «اسمح لي بإشعال السراج». قال بصوت لا يمت بصلة إلى صوته الحقيقي.

- إن كنت تريد ذلك - ربما من الأفضل لنا هكذا - إنني معتاد على الظلمة - أتعتقد بأنهم سوف يفتشون الأكواخ كلها هذه الليلة؟

أضاء ميوغو السراج أخيراً. نظر إلى زائره.

كيهيكا! ندت عنه شهقة لا إرادية.

كان كيهيكا يلبس سترة قذرة ممزقة، من ذلك النوع من الخاكي الذي كان يرتديه الجنود في الحرب الكبرى الأخيرة (أضحى الكهول في هذه الفترة يلبسون أمثال هذه السترات) وينتعل خفاً موحلاً كان أبيض ذات مرة. كان شعره الأشعث القصير يضفي على وجهه قسمات قاسية. تراجع ميوغو إلى الخلف واستند على عمود قرب السرير.

- ما عرفت - ما عرفت بأن الطارق أنت.

- «أرجو أن تعذرني» قال كيهيكا وعيناه تجوبان الكوخ. «ما كنت أريدهم أن يتبعوني إلى الغابة. وبالإضافة إلى ذلك فقد رغبت بزيارتك - كنت دائماً أريد التحدث إليك».

- دونك - دونك ذلك الكرسي.

- آه، أنا معتاد على الوقوف. ينتصب الواحد منا أياماً وليالي على قدميه. واقفاً أو جاثياً.

- لماذا؟

- لأن المرء لا يجرؤ على النوم.

- «أتبغي قتلي؟ لم أفعل شيئاً» قال ميوغو متوسلاً.

ولكن قبل أن يتمكن كيهيكا من الإجابة قامت موجة أخرى من الصفير. استلّ كيهيكا مسدساً وزحف تحت السرير. تداعى ميوغو على الكرسي وشعر بأنه على وشك البكاء. لسوف يُضبط بالجرم المشهود، يأوي إرهابياً. وفجأة تذكر السراج فأطفأه. خيم الظلام ثانية على الكوخ. تبدد الصفير. انسل كهيهكا خارجاً من مخبئه ووقف قرب الموقد. شعر ميوغو بشبح قامة الرجل يخيّم عليه.

«نحن لا نقتل إي إنسان»، بادره بالكلام وكأن لم يكن ثمة انقطاع في حديثه. «نحن لسنا قتلة. لسنا جلادين - مثل روبسون - نقتل الرجال والنساء دون سبب أو غرض». تكلم بسرعة، بعصبية، وطفق يدور حول الموقد. أمن المعقول أن يكون هذا الرجل هو نفسه الذي أحرق (ماهي) حتى أصبح قاعاً صفصفاً؟ أمن المعقول أن يكون هذا الرجل هو نفسه الذي خطب ذات مرة في اجتماع حاشد وجعل النسوة ينتفن شعورهن ويمزقن ثيابهن؟

«إن ما نفعله لا يعدو رد الضربة. أنت تُضرب على خدك الأيسر فتدير الخد الأيمن طيلة سنة، سنتين، ثلاث - بل ستين سنة. ثم فجأة - والأمور لا تحدث دائماً إلا فجأة - تقول: لن أدير الخد الآخر أكثر من ذلك. فتتحصن بالجدار وترد الضربة، يخالجك شعور الثقة برجولتك وتأمل استمرار ملازمتها لك. هل تتصور أننا نحب أن نتعارك من أجل الطعام مع الضباع والقرود في الغابة؟ أنا أيضاً عرفت سلوى النار الدافئة وممارسة الحب مع المرأة قرب الموقد. أتُرى يجب أن نقتل؟ أن نجلد أعداء حرية الإنسان الأسود؟ يقولون بأننا ضعفاء. يقولون بأننا لن نكسب المعركة ضد القنبلة. إذا كنا ضعفاء لا يمكننا كسب المعركة. إنني أحتقر الضعفاء. فليوطَؤوا بالأقدام حتى الموت، إنني أبصق على ضعف آبائنا. إن ذكراهم لا تثير بي أي نوع من الاعتزاز. وحتى في هذا اليوم، وغداً، سوف يُكنس

الضعفاء وذوو القلوب الخائرة من على وجه الأرض. الأقوياء هم الذين سيحكمون. لم يكن لآبائنا مبرر يجعلهم ضعفاء. الضعفاء يجب ألا يبقوا ضعفاء. لماذا؟ لأن الشعب الذي يتسلح بالعقيدة يصبح أقوى من القنبلة. إنهم لن يرتجفوا أو يفروا أمام السيف. بل بدلاً من ذلك، العدو هو من يلوذ بالفرار. هذه الكلمات ليست كلمات إنسان مجنون. لم تكن الكلمات، ولا حتى المعجزات، هي التي جعلت فرعون يسمح لبني إسرائيل بالخروج. بل في منتصف الليل أنزل الرب الوباء وضرب به كل المواليد الأبكار في أرض مصر، من أبكار فرعون الذي كان يتربع على العرش إلى أبكار الأسرى الذين كانوا يرسفون بالأغلال في الزنزانات – حتى أبكار القطعان أيضاً. وفي اليوم التالي سمح فرعون لبني إسرائيل بالخروج. ذلك هو مقصدنا؛ أن نثير الذعر في قلوبهم، أن نصل إليهم في بيوتهم ليلاً ونهاراً. سيشعرون في عروقهم بالسهم المسموم. لن يعرفوا أبداً من أين سيأتيهم السهم التالي. يجب بث الذعر في قلب الطاغية».

تكلم دون أن يرفع صوته، وهو لا يكاد يشعر بوجود ميوغو، وكأنه إنسان به مس. لقد تبدت مرارته وإحباطه في ذلك السيل الجارف العصبي من كلماته. وكل كلمة قالها أكدت شكوك ميوغو بأن هذا الإنسان مخبول. ضحأضح

«أتتصور أننا لا نهاب الموت؟ نحن نهابه. كادت ساقاي ترفضان التحرك حين صاح بي روبسون. كنت أتوقع كل دقيقة أن تمزق قلبي رصاصة منه. رأيت رجالاً يبولون على أنفسهم وآخرين يضحكون بشكل جنوني كلما قام احتمال بنشوب معركة. وتلك الحشرجة الحيوانية التي يطلقها الناس وهم في النزع الأخير، لهي صوت مرعب سماعه. ولكن لا مناص من موت القلة في سبيل حياة الكثرة. ذلك ما يعينه الصلْب في هذه الأيام. وإلا فإننا نستحق أن نبقى عبيداً مبتلين بحمل الماء واحتطاب الحطب للإنسان الأبيض إلى أبد الآبدين. قارن بين الحرية والعبودية

وإنك لواجد أن من المناسب للرجل أن يتشبث بالحرية ويموت من أجلها. نحن نريد...».

وفجأة كف عن الكلام، خطا، ولأول مرة بدا عليه بأنه يدرك وجود ميوغو. كان ميوغو يجلس جامداً على كرسيه مطرقاً بالأرض، واثقاً أن الحراس الوطنيين لا بدّ سوف يصطادونه هذه الليلة. «إن كيهيكا رجل مخبول، مخبول»، فكّر ميوغو، مما زاد في رعبه.

«ماذا تريدون؟». فليبق متحدثاً لأن المجنون لا يكون خطراً ما دام يتكلم.

«نريد منظمة قوية. يعرف الإنسان الأبيض هذا الأمر ويخشاه. وإلا فلماذا عمد إلى نقل شعبنا إلى هذه القرى الجديدة؟ إنه يريد أن يحجزنا عن شعبنا. عن قوتنا الوحيدة. ولكنه لن يفلح. يجب أن نبقي الطريق مفتوحة بيننا وبين شعبنا. لطالما رأيتك في ثاباي العتيقة. إنك إنسان عصامي. إنك رجل عانى الكثير. نحن نحتاج لمثل هذا الرجل كي يُنظّم حركة سرية في القرية الجديدة».

كان ميوغو يجفل لكل كلمة من كلمات كيهيكا.

- «أنا - أنا لم أقسم اليمين»، بادر للاحتجاج بوهن.

- «أعرف ذلك» قال كيهيكا... «ولكن ما هو القسم؟ بعض الناس بحاجة للقسم ابتغاء ربطهم بالحركة. ثمة فئة من الناس لا تحفظ السر إلا إذا ارتبطت بالقسم، إنني أعرفهم. أعرف الناس من وجوههم. وبالمناسبة، كم عدد الذين أقسموا اليمين وهم الآن يلعقون أقدام الإنسان الأبيض؟ لا، القسم يعني توكيدك لاختيار أقدمت على اختياره مسبقاً. إن القرار بأن تهب حياتك للشعب أو لا تهبها يكمن في الصميم. القسم ليس إلا بمثابة الماء الذي يُرش على رأس الإنسان إبان تعميده».

ثمة اعتبارات أخرى تزاحمت في ذهن ميوغو. تذكر أنه لم يزلج الباب. فوقف، مشى واجتاز كيهيكا وأصاخ السمع عند ثقب المفتاح. فكر في

الهرولة إلى الخارج أو بالصياح للحرس الوطني ولكنه تذكر أن كيهيكا يحمل مسدساً، وأن ذلك المسدس قتل رجلاً لتوه. أرتج الباب وعاد إلى مكانه. كان يسير وكأنه في كابوس. ليس من المعقول أن يكون عملياً داخل الكوخ ذلك الرجل الذي قَوَّضَ (ماهي) من قبل وقتل لتوه روبسون. شعر برغبة سقيمة في أن يتحدث ولكنه لم يتمكن من التفكير بشيء يقوله أو يفعله. والآن ها هو السكون المطبق يخيم على القرية من جديد.

الصفارات وإطلاق العيارات النارية كانت كأشياء حدثت في سنوات بعيدة. ولكن كيهيكا كان هناك. لم يكن يلهث الآن أو يخطو بعصبية، بل كان رابط الجأش بشكل واضح. كان حقيقة حية.

«سأقابلك خلال أسبوع» قال كيهيكا بلهجة انتصار. هزّ ميوغو رأسه بالموافقة. حدّد كيهيكا بكل دقة مكان اجتماعهما القادم في غابة كينني.

وما أن اختتم كيهيكا كلامه حتى مزقت السكون، للمرة الثالثة، زعقات وطلقات بعيدة. حدثت الزعقات والطلقات بشكل متقطع ولكنها لم تتوقف هذه المرة. (في اليوم التالي علم ميوغو أن عدداً من الرجال - مشبوهي ماو ماو - اقتيدوا من بيوتهم فيما يتعلق بمقتل روبسون. رجلان من القرية صرعا ليلاً وصفتهما الصحف فيما بعد بأنهما عضوان في عصابة هاجمت مدير منطقة أعزل من السلاح تقريباً، أسدى خدمات جلى للمنطقة).

«يجب أن أنصرف - ربما يفتشون البيوت»، همس كيهيكا. عادت له عصبيته، حاول اختبار الوضع في الخارج مرة ثانية. فتح الباب ثم أغلقه بهدوء:

«تذكر لقاءنا»، قال قبل أن ينسل في الظلمة كي يختفي على نحو مفاجئ وهادئ مثلما دخل.

وقف ميوغو ساكناً وسط كوخه الجديد عدة دقائق. مادت الأرض تحت قدميه. ركض إلى الباب، فتحه على مصراعيه. متردداً في الصراخ طلباً للنجدة. حدق في الظلمة. أزلج الباب بالمزلاج للمرة الثالثة. ولكن

لماذا يزلج الباب؟ لماذا يجب عليه؟ تمنى لو أن الكوخ بلا باب بدلاً من أن يكون الباب مرتجاً هناك، حتى لو جلب له البرد والخطر. حلّ مزلاج الباب وسار ببطء إلى السرير حيث جلس وأمسك وجهه بكلتا يديه. أخرج منديلاً قذراً كي يمسح به وجهه ورقبته. ولكنه قبل أن ينتهي من ذلك، نسي العرق البارد وانزلق المنديل على ركبتيه. لقد سمع ذات مرة ضوضاء في الريح، منذ عهد سحيق، ولم يكن بمقدوره أن يفهم رنة متماسكة واحدة. ها هي الضوضاء الآن تنتقل إلى داخل فكره.

منذ بضع دقائق فقط كان مستلقياً على السرير في غرفته وكان المستقبل واعداً. كل شيء في الكوخ كان في مكانه العادي، كسابق عهده، غير أن المستقبل فارغ. توقع مجيء الشرطة أو الحرس، كما توقع اعتقاله أو مصرعه. لم يكن يرى إلا السجن والموت. كانت الحكومة تبحث عن كيهيكا بإلحاح، ولا سيّما بعد إقدامه على تقويض (ماهي). إن ضبطك تؤوي إرهابياً كان يعني الموت. لماذا يجرني كيهيكا إلى صراع ومشكلات لا علاقة لي بخلقها؟ لماذا؟ إنه لا يشبع من ذبح الرجال والنساء والأطفال، ويرى زيارتي واجباً عليه كي أسبح في حمام دم. لست أخاه. لست أخته. إنني لم أسبب الأذى لأي مخلوق. ما كنت أهتم إلا بمزرعتي وغلالي. والآن أيجب علي أن أقضي بقية حياتي في السجن من جراء سخف رجل واحد؟

استيقظ ميوغو في اليوم التالي مستغرباً عدم وجوده في السجن. حاول أن يبعد عن تفكيره ذلك اللقاء الذي تم في الليل. لم يكن أكثر من حلم. كانت تزورني أمثال هذه الكوابيس قبل هذا الكابوس. إن الليل يضخّم كل الأشياء – مخاوفنا، بؤسنا ويأسنا. حتى الأشجار والشجيرات تتبدى كالكائنات البشرية. قهقه قهقهة صاخبة. غير أن محاولاته المبتسرة لمواساة نفسه فشلت في إلغاء الواقع: وجه كيهيكا كان منقوشاً في ذهنه بشكل راسخ، الشعر الأشعث والعين الرأراءة طمسا له كل أوهامه الوردية وجعلاه يرتجف على الرغم من ضياء النهار. تصوروا رجلاً يسير وقت

الشفق ويشعر بالطمأنينة في عزلته. ثم بغتة يعم الظلام ويدرك أن ساقه معرضة لخطر الكسر لأنه يسير على طريق سوف ينتهي، في أية لحظة، إلى هوة سحيقة. خلال الأيام القليلة التالية كان ميوغو ينتقل بين كوخه ومزرعته وهو يتوقع كل ثانية أن يربت على كتفه شرطي أو حارس وطني. كان كلما شاهد جندياً أو حارساً وطنياً يتصبب وجهه عرقاً فجأة وتخور ساقاه، ولم ينس مرة واحدة شبح كيهيكا خلفه يطارده وينتظر منه الجواب. ماذا سأفعل، سأل نفسه. سيقتلني كيهيكا إن لم أخدمه – لقد قتلوا الأب جاكسون والمعلم مونيو. وإن عملت لحسابه اعتقلتني الحكومة وشنقتني – إن للإنسان الأبيض ذراعين طويلتين –. رحماك يا إلهي، لا أريد أن أموت، لست الآن متأهباً للموت، ما عشت حياتي بعد. تشوش ذهن ميوغو أيما تشوش وشعر بالأسى العميق لأنه كان يتجنب المشاحنات طيلة حياته: قلما شارك الصبيان الآخرين صحبتهم، في البيت أو في المدرسة، خشية تورطه في مشاحنات قد تقضي على أحلامه بمستقبل أفضل. لقد أجرى محاكمة الأمر على النحو التالي: إذا ابتعدتَ عن الشر عندها لن يمسّكْ، وإن أنت تركت الناس وشأنهم فعليهم أن يتركوك وشأنك. وذلك هو السبب الذي جعل ميوغو الآن، ليلاً، – وهو لا يزال عاجزاً عن حل معضلته – يندب حظه العاثر مرتبكاً في سريرته: هل أقدمت على سرقة شيء لأي مخلوق؟ كلا. هل صادف وتغوطت في باحة أحد بيوت الجيران؟ مطلقاً. هل قتلت أحداً؟ كلا. إذاً كيف بإمكان كيهيكا الذي ما أسأت إليه بتاتاً أن يفعل هذا بي؟

ولذلك قرّر أن الحسد، حين لم يجد جواباً آخر على سؤاله، هو السبب في ذلك. بعث هذا التفكير حقده الدفين على كيهيكا، وها هو ذا الحقد يكاد يخنقه الآن بعد أن ضرب بجذوره في أعماق نفسه. إن لكيهيكا أماً وأباً وأختاً ولذلك بإمكانه أن يتلاعب بالموت. إن له أناساً يندبون نهايته ويسمّون أبناءهم باسمه كي لا يغيب اسم كيهيكا أبداً عن لسان البشر. لكيهيكا كل شيء وليس لميوغو أي شيء.

هيمنت عليه هذه الفكرة، شحنته بغيظ لا قرار له، بغضب خال من الدموع طمس له كل الأشياء الأخرى وقذف به في حمأة الأرق. ولذلك داهمه اليوم المشؤوم، يوم الجمعة، وهو لم يتوصل بعد إلى قرار حيال ما يجب عليه أن يتصرف. وعلى مألوف عادته، تناول مجرفة وساطوراً ومضى باتجاه مزرعته. ولكي يتحاشى مقابلة الناس سلك درباً مهجوراً بين الحقول باتجاه رونجي. كان الوقت باكراً جداً وكانت الحقول كلها مقفرة من الناس. كانت تتناثر فوق الحقول، هنا وهناك، أنقاض المواقع المهدمة التي كانت تنتصب مكانها، منذ ما يقارب الأسبوع فقط، تلك المنازل التي كانت تشكل قرية ثاباي العتيقة. لم تستطع عينا ميوغو المجهدتان تمييز أي شيء. كان ذهنه فارغاً ناصع البياض يبهر الأبصار كالشمس في رابعة النهار. كان في حالة من الإرهاق كتلك الحالة التي تنجم عن تراكم ليال من الأرق وعن تزاحم أفكار حادة متلاحقة لا وجهة لها - تلك الحالة التي يكون فيها الإنسان عرضة للانفعال وجاهزاً للانفجار لدى أدنى إثارة دون أن يدرك هو نفسه خطره الشخصي. كان يسير وقدماه تتمسحان بالأسيجة المخضّلة بالندى حتى إن الماء سرعان ما بدأ يسيل على قدميه على شكل خطوط متعرجة. تهدلت شفته السفلى - لطالما كانت تتهدل كلما سيطر عليه الانفعال - وارتعشت كل أوصاله. كان يشتد به الارتعاش والوجوم كلما ازداد قرباً من السوق. وما إن وصل إلى الحوانيت الهندية حتى خارت قواه ولم يعد يقوى على متابعة مسيره، فألقى بمجرفته وساطوره قرب كومة من القمامة خلف أحد الحوانيت وجلس كي يستعيد أنفاسه. خلف كل حانوت كانت تقوم مثل تلك الكومة التي ينبعث منها نتن القمامة المتعفّنة. كان من عادة الأطفال الهنود - والرجال أحياناً - أن يتغوطوا هناك. بينما كان الأطفال الأفارقة كثيراً ما يقلبون بأقدامهم أكوام القمامة الملقاة حديثاً وينقبون فيها بحثاً عن الخبز أو النقود المنسية. وحينما كانت أقدامهم تغوص في تلك «الكتل الصغيرة» كانوا يطلقون أقذع الشتائم ويمطرون الهنود بالحجارة انتقاماً في بعض الأحيان. وفي إحدى المناسبات ضبط

ثلاثة صبيان أفارقة برفقة بنت هندية مطروحة على الأرض مباشرة خلف تلك الكومة التي جلس قربها ميوغو الآن كي يستريح، فاتهموا باغتصاب الفتاة ولكن القاضي لم يصدر حكماً بحقهم بل أحالهم، باعتبارهم أحداثاً، إلى المدرسة الإصلاحية في وامومو. لم يكن ميوغو الآن يفكر في هذه التفاصيل الخسيسة المرتبطة بماضي ذلك الحانوت، بل كان يمسك رأسه بكلتا يديه متذمراً المرة تلو المرة: لماذا فعل هذا بي؟

وفجأة هبت الريح وثوّرت الغبار وحثالة القمامة في الهواء حتى إن ميوغو غطى وجهه بكلتا راحتيه ليصون عينيه من الرمال. وطارت قصاصات الورق عالياً فعالياً على شكل مخروط حلزوني. لقد قيل وقتها عن هذه الزوبعة - التي دوّرت الغبار والقمامة بشكل أهوج على شكل إعصار مخروطي متنقّل - إنّ بها مسّ الشياطين النسائية. كان مثل هذا الإعصار لا يدوم في العادة أكثر من ثوان معدودة ليختفي بعدها بشكل مفاجئ وغامض مثلما جاء. ولكنه الآن زاد عنفاً واشتد جموحاً وهو يقذف الأشياء في أعالي السماء. أخيراً سكنت الريح الهوجاء وشاهد ميوغو تساقط الغبار والقمامة على الأرض على نحو بطيء. خفّف هذا المشهد من ارتجافة ووجومه، فتناول الساطور والمجرفة وتابع رحلته إلى المزرعة. عاد شيء من السكينة إلى نفسه.

ولكن للحظة ليس إلا.

فما إن ابتعد ميوغو خطوات قليلة عن المكان الذي كان يجلس فيه حتى رأى مشهداً عجيباً. حدق في الجدار ذي الحديد المبروم. جفل شعر رأسه من جذوره. شعر بالسرور المباغت في كيانه لأن وجه كيهيكا كان هناك مثبتاً ضمن إطار في الحانوت. طفق الوجه يكبر ويزداد تشوهاً كلما أطال تحديقه إليه. لقد أثار فيه ذلك الوجه - وقد كان واضح القسمات على الجدار الأبيض - الانفعالَ والرعبَ نفسَيهما اللذين أحسَّ بهما وهو يحاول خنق عمته في ليلة من الليالي حين كان صبياً. ها قد وضعوا ثمناً لرأس كيهيكا - ثمناً - لِـ - رأس - كيهيكا.

سار ميوغو باتجاه مدير المنطقة تعشي أبصاره دهشة وصدمة مكبوتتان. لقد طلب الله من إبراهيم أن يقدم ابنه إسماعيل كضحية محروقة فوق أحد الجبال في أرض موريّاه (فلسطين). فبنى إبراهيم مذبحاً هناك وسطّر الحطب بانتظام وقيّد ابنه ومدّده على المذبح فوق الحطب. ومدّ إبراهيم يده وتناول السكين كي يذبح ابنه. وإسماعيل مستلقياً هناك، كان ينتظر أن يبتر السيف رأسه عن جسده. كان يعلم علم اليقين بأن السيف سيهوي بين لحظة وأخرى - كان واثقاً لهنيهة بأن الساطور البارد سيأتيه بالموت. وفجأة سمع إسماعيل صوت الرب. بكى. ها قد نجا من الموت. «ها قد نجا من الموت» ردد ميوغو هذه العبارة بينه وبين نفسه. سار في قلب هذه الرؤيا، وفي رأسه المحموم جلجلة الأفكار التي حازت على المقومات المنطقية مما يطبعها بطابع الحلم. كانت المحاكمة في غاية الوضوح، في غاية البهجة، إذ شرحت له أشياء ما كان بمقدوره حلها وهو يحيا حياته الطبيعية، إنني إنسان مهم. يجب ألا أموت. إن إبقائي على نفسي حياً، سليماً، قوياً - أنتظر تنفيذ مهمتي في الحياة - هو واجب تجاه نفسي، تجاه رجال الغد ونسائه. فلو أن موسى مات في الدغل من كان منا عرف بأن القدر قد هيأه ليكون إنساناً عظيماً؟

اختلطت هذه المشاعر النبيلة بأفكار المكافأة النقدية والاحتمالات المختلفة المفتوحة أمامه. لسوف يشتري مزيداً من الأراضي. لسوف يبني بيتاً ضخماً، ولسوف يعثر بعد ذلك على امرأة يتخذها زوجة وينجب أطفالاً منها. إن غرابة هذه الخطة وقربها منه زاداه نشوة على نشوته الراهنة. قبل الآن، ما كان يفكر في النساء كرجل، وأما الآن فقد بدأت تمر في ذهنه صور فتيات عديدات كان قد رآهنّ في القرية من قبل. لسوف يفجّر انتصاره أمام عيني شبح عمته. ولسوف يتوطد مركزه في المجتمع. سيكون قد قطع نصف المسافة باتجاه السلطة. وماذا تعني العظمة غير السلطة؟ ما هي السلطة؟ القاضي صاحب سلطة: يمكنه أن يحكم على إنسان بالموت دون أن يضع إنسان آخر سلطته، حكمه القضائي، موضع

تساؤل، ودون أن يفرض عليه العقوبة الجسدية بالمقابل. نعم - كي تكون عظيماً يجب أن تحتل مثل هذه المكانة التي يمكنك أن توزع منها الألم والموت على الآخرين دون بادرة احتجاج من أي إنسان آخر - كمدير المدرسة، كالقاضي، كالحاكم العام.

وصل إلى المكتب بأقصى سرعة تقريباً. كانت هذه المكاتب قد بُنيت مؤخراً لتكون قاعدة تتيح سرعة الوصول منها إلى جميع القرى المجاورة. كان يحرس المدخل شرطيان يحملان البنادق ويلبسان سترتين سوداوين بقبتين عاليتين. ميوغو، بحالته الراهنة، شعر بنفاد صبره حيال هذه الأشياء غير الحقيقية التي تعترض سبيله.

- أبوسعي مقابلة مدير المنطقة؟ - سألهما وهو يحاول اجتيازهما، مستكيناً إلى الحلم الذي في سريرته.

- ماذا تريد؟ وشده أحد الشرطيين إلى الخلف من كفه.

- أنا - أريد مقابلته على انفراد. قال وقد بلغت منه الدهشة أي مبلغ.

- أتقابله وأنت تحمل المجرفة والساطور؟ وطفق يقهقه.

- أقول لك ماذا تريد منه؟

- لا أستطيع - ليس لك.

ضحك الشرطيان وسخرا من إجابات ميوغو. أخذا ساطوره ومجرفته وألقيا بهما على الأرض.

- لا يمكنك ذلك، لا يمكنك ذلك! أتسمع؟ أنت أيها الفلاح، ماذا تريد؟

- يجب علي - إنه - إنه أمر هام. بدأ الخوف يتسلل إلى نفسه. فتّشاه تفتيشاً دقيقاً وهما يدفعان به بفظاظة.

- يجب أن يخلع ثيابه.

- يا لطول هذا الرجل. قد يكون طول قضيبه بطول غُرمول الحمار.

- كيف تتدبر أمرك مع النساء؟ آه؟

- النساء؟ إنك تمزح. حتى العاهرة السمينة تهرب من منظره.

- قد يكون يمارس ذلك مع النعاج - أو البقرات. بعض الناس يفعلون ذلك ليلاً، وقهقه ضاحكاً.

- قهقه زميله أيضاً. أو مع العجائز من النساء - يرشيهن أو يقسرهن على ذلك - وقهقه عالياً.

قهقه زميله عالياً أيضاً.

خرج جون ثومبسون، مدير المنطقة، ونهرهما وصاح بهما أن يكفا عن الضحك. حدثاه عن ميوغو فطلب منهما أن يسمحا له بالدخول، فتنفس ميوغو الصعداء وهو يقفز داخل المكتب، وشعر بامتنان عميق نحو ذلك الإنسان الأبيض الذي أنقذه من المذلة والمهانة. والآن بعد أن أضحى داخل المكتب لم يعد يعرف كيف يبدأ حديثه. لقد كانت تلك المناسبة هي المرة الأولى التي يقابل بها إنساناً أبيض في مثل هذا المقر المغلق. حدق إلى الجدران قبالته وقد عقد عزمه على ألا ينظر، ما أمكنه ذلك، في وجه الإنسان الأبيض.

- ماذا تريد؟ أجفل هذا الصوت ميوغو.

- كيهيكا - جئت أقابلكم بهذا الخصوص.

انتصب ثومبسون في كرسيه لسماع ذلك الاسم. ثم وقف بعد ذلك ويداه تتلمسان طريقهما إلى حافة الطاولة وكأنه يبغي تدعيم نفسه. حدق إلى ميوغو. كان الرجلان بطول واحد تقريباً. أحجم ميوغو، متعمداً، عن النظر في عيني الرجل الآخر. جلس الرجل الأبيض ثانية.

- نعم. تابع.

- أنا أعرف - وبلع ريقه. سيطر الهلع عليه. خشي أن يخونه صوته.

- «أنا أعرف» تابع بصوت خفيض، «أعرف أين يمكن العثور على كيهيكا هذه الليلة».

وعادت إليه الآن من جديد تلك الكراهية التي كان قد شعر بها اتجاه كيهيكا من قبل. وبدأ يرتجف بغضب مظفّر وهو يفضي بتلك القصة التي

قرّحت أجفانه طيلة أسبوع. عاش لفترة قصيرة من الزمن بهجة لذيذة نقية معجباً بجرأته وبذلك الشيء الذي تبدى له فجأة بأنه عمل عظيم ينطوي على شجاعة أخلاقية. في تلك اللحظة كان بالنسبة إليه ثمة فعلاً نوع من الصفاء في فعلته، لقد وقف خارج حدود الخير والشر، مستمتعاً بسلطان معرفته الخاصة وقوتها: أفلا يحمل في ذهنه مصير حياة إنسان ما؟ قلبه - سريرته - كان طافحاً. وقفت دموع الانفراج على زوايا عينيه. لقد بقي أسبوعاً بطوله يتصارع مع الشياطين، وحيداً، في كابوس لا نهاية له. كان هذا الاعتراف أول اتصال له بإنسان آخر. شعر بامتنان عميق تجاه الإنسان الأبيض الذي استمع إليه بأناة والذي أزاح هذا العبء عن كاهل ميوغو وأنقذه من الكابوس. بل إنه تجرأ على النظر إلى الإنسان الأبيض، الصديق الجديد. انتشرت ابتسامة عريضة على وجه ميوغو ولكنها سرعان ما تجمدت واستحالت إلى تكشيرة تشبه الازدراء حين قابل وجه الإنسان الأبيض وعينيه المليئتين بالألغاز.

وقف مدير المنطقة مرة ثانية. دار حول المائدة وذهب إلى حيث كان يقف ميوغو. أمسك بميوغو من ذقنه وأمال رأسه إلى الخلف، وعلى حين غرة رشق البصاق على الوجه الأسود. تراجع ميوغو خطوة إلى الخلف ورفع يده اليسرى كي يمسح بها البصاق عن وجهه، ولكن الإنسان الأبيض عاجل وجه ميوغو، قبل أن يمسح البصاق، بصفعة قوية واحدة.

«قدم لنا الكثير من الناس المعلومات الكاذبة عن هذا الإرهابي. أسامع أنت؟ لا لسبب إلا لأنهم يريدون المكافأة. سنحتفظ بك هنا، وإذا كنت لا تقول الحقيقة. فلسوف نشنقك هناك، خارج هذا المكتب. أتسمع؟».

عاد ميوغو إلى كابوسه. الطاولة، الوجه الأبيض، السقف، الجدران، بدأت تدور به وتدور. ثم فجأة توقف كل شيء. حاول تثبيت نفسه. وفجأة مادت الأرض التي كان يقف عليها. ها هو يتهاوى على الأرض. دفع بذراعيه في الهواء. كان القعر بعيداً جداً وما تمكن أن يرى إلا الظلمة. ولكنه عرف بأن القعر يحتوي على أحجار ناتئة حادة. كان كالريشة في مهب الريح. لم

تستطع أن تسعفه الدموع. وبصرخة مخنوقة، تمزق جسده على الأحجار المتكسرة والصخور الناتئة، عند قدمي الإنسان الأبيض. كانت صدمة الاكتشاف عميقة جداً حتى إنها خدّرته. لم يشعر بأي ألم ولم ير أي دم.

- أتسمع؟

- أجل.

- قل يا أفندي.

- «أجل يا -؟».

وقفت الكلمة في حلقه وسدته. أطلق فمه المفتوح جمجمة مبهمة. تكوم الزبد على شدقيه. حدق بالإنسان الأبيض ولكن الومض الدامع في العينين حجبه عن ناظريه، وبعدئذ بدأت الطاولة، الكرسي، مدير المنطقة، الجدران المطلية بالأبيض - الدنيا كلها - بالدوران بشكل متسارع مرة أخرى. تشبث بالطاولة كي يجمد نفسه، لم يعد يريد النقود. لم يعد يريد معرفة ما أقدم عليه.

***

يقيناً أبلغكم يقيناً، دعوا حبة
قمح تسقط على الأرض وتموت، قد تبقي
وحيدة: ولكنها إنْ ماتت فإنها تعطي غلالاً وفيرة.

(إنجيل يوحنا) القديس جون 12 :24
(آية وُضع تحتها خط أسود في إنجيل كيهيكا)

ورأيت سماءً جديدة وأرضاً جديدة: لأن السماء
الأولى والأرض الأولى قد تم تجاوزهما.

سفر الرؤيا 21 :1

الفصل الرابع عَشر

استعادت كينيا استقلالها من البريطانيين في 12 كانون الأول عام 1963. قبل منتصف الليل بدقيقة واحدة أطفئت الأنوار في مدرج نيروبي الرياضي وخيم الظلام على كل الناس الذين احتشدوا هناك من كل أنحاء البلاد ومن العالم لمشاهدة احتفال منتصف الليل. وفي الظلمة تمّ إنزال العلم البريطاني على جناح السرعة. وحين أضيئت الأنوار ثانية كان العلم الكيني الجديد يطير ويرفرف ويتموج في الهواء. عزفت فرقة موسيقى الشرطة النشيد الوطني وتعالت هتافات الجماهير بشكل متواصل حين رأت أن العلم كان أسود وأحمر وأخضر. كان الهتاف كأنه قعقعة شديدة لعدد كبير من الأشجار المتهاوية فوق الوحل الكثيف في المدرج الرياضي.

في قريتنا - وعلى الرغم من تساقط الرذاذ - تدفق الرجال والنساء والأطفال إلى الشوارع وهم ينشدون ويرقصون في الوحل. لقد علقوا المصابيح على عتبات البيوت لإضاءة الشوارع المظلمة. وكما هي العادة في أمثال هذه المناسبات، كان بعض الشباب يسيرون على شكل زمر يحملون المشاعل، ويكمنون ويتهامسون في الزوايا والأزقة المعتمة، وهم يفتشون -في واقع الأمر- بين الجمهور عن رفيقات يطارحونهن الغرام. كانت الأمهات قد حذرن بناتهن من خطر الاغتصاب في الظلمة. رقصت الفتيات في الوسط وهن يدفعن بأردافهن إلى الخلف على نحو مثير، ويدركن في الوقت نفسه، بأنهن موضع إعجاب الرجال القابعين في

الزوايا. كان كل إنسان يتوقع حدوث شيء ما. كان هذا «الترقب» والشك الذي رافقه - كالمرأة التي تتمزق بين الرهبة والبهجة إبان آلام المخاض - نتيجة للشعور بوجود توتر مشحون خلف تلك الزعقات والصيحات والضحكات. كان الناس ينتقلون من شارع إلى شارع وهم يهزجون. أنشدوا المدائح لجومو وكاغيا وأوغينغا. لقد تذكروا واياكي الذي تحدى، حتى قبل عام 1900، الناس البيض الذين جاؤوا إلى داغورتي متشبهين بليوغارد. وما غفلوا عن ذكر أبطال من قريتنا أيضاً. حتى إنهم نحتوا الكلمات لوصف أفعال كيهيكا في الغابة، أفعال لم يكن لها نظير إلا أفعال ميوغو في الخندق وفي معسكرات الاعتقال. لقد خلطوا ترانيم عيد الميلاد بأناشيد ورقصات لا تتم تأديتها إلا خلال شعائر الدخول حين يُختَنُ الفتيانُ وتُخْفَضُ الفتياتُ ليدخلوا مرحلة المسؤولية كرجال ونساء. وكان يكمن خلف كل هذا ذلك التوتر الذي كان يقتفي أثرنا من شارع إلى آخر. وفي مكان ما اقترحت إحدى السيدات أن تمضي وتهلل لميوغو، الناسك، عند كوخه. التقطت الجماهير هذا النداء وأخذت قبل اتخاذ القرار، تشق طريقها من خلال الرذاذ والظلمة باتجاه كوخ ميوغو. بقي الكوخ محاصراً لمدة تزيد على الساعة. كان اسمه على كل شفة ولسان. نسجنا حول اسمه الخرافات الجديدة والأفعال الخيالية. كان الأمل يحدونا أن يخرج ميوغو ويشاركنا بهجتنا ولكنه لم يفتح الباب لطرقاتنا. وحين أزفت ساعة منتصف الليل انفجر الناس كلهم في هرج واحد طويل. ثم أطلقت النساء الزغاريد الخمس التي يطلقنها في العادة للتهليل بالمولود أو حين ختانه. أطلقن هذه الزغاريد لكيهيكا ولميوغو، بطلي الإنقاذ، من قريتنا. بعد هذا سرعان ما تفرقنا جميعاً وعدنا لأكواخنا المختلفة لانتظار الصباح حيث تبدأ احتفالات الاستقلال عملياً.

تحول الرذاذ في الهزيج الأخير من الليل إلى تَهطالٍ غزير. لمع البرق - وتلاه الرعد - وأضاء أكواخنا بالنور الأبيض - الأحمر لمدة ثانية أو ثانيتين، حتى لو كان لا يجد منفذاً إليها إلا صدوع الجدران. ازداد عويل

الرياح مع هطول المطر وكانت العاصفة. صدر صوت أجش، بالإضافة إلى ذلك الدوي المتواصل الذي استمر طيلة الليل، عن الأشجار والأسيجة المتكسرة والمترنحة حين كانت العاصفة تجلد الأوراق والأغصان. هوت بعض سقوف القش المتداعية بكل بساطة من جراء المطر مما أدى إلى تشكل البرك الصغيرة فوق أرض الأكواخ. ولكي يتجنب الناس التبلل كانوا يدأبون على نقل أَسِرَّتِهم من بقعة إلى أخرى، وما إنْ يفعلوا ذلك يتبَعُهم وَكَفٌ مِن جديد. كانت العاصفة هوجاء حتى إنها اقتلعت بعض الأشجار من جذورها وكسرت أغصان وجذوع الأشجار الأخرى.

هذا ما شاهدناه صبيحة اليوم التالي ونحن في طريقنا إلى ساحة قرب رونجي حيث كانت ستقام فيها الألعاب الرياضية والرقصات احتفالاً بالاستقلال. لقد خرّبت العاصفة الغلال التي على سفوح الوادي تخريباً سيئاً. وحفرت المياه الهادرة صدوعاً ومجاري متعرجة في كل الحقول المنحدرة. وتناثر ما اقتلع من حبات البطاطا وغلال الفول في كل مكان من بطن الوادي. وأما أوراق نباتات الذرة التي صمدت وبقيت منتصبة فقد كانت ممزقة شر ممزق.

كان الصباح نفسه داكناً جداً حتى إننا خشينا أن تنعدم الحياة في النهار. إلا أن المطر توقف، وأصبح الهواء رقيقاً عليلاً وارتشح إلى قلوبنا دفء حميم من الأرض الحبلى.

وقع الاختيار على تلك الساحة من جانب لجنة الحزب المشرفة على احتفالات الاستقلال باعتبارها تتوسط كل النجود المحيطة بالقرية. وكانت الساحة تنحدر بشكل خطير باتجاه حوانيت رونجي، ولذلك فقد كانت العلامات الحوارية البيضاء – لتحديد مسارات الألعاب الرياضية – ترتفع في نتوءات حادة وتهوي في حفر وأخاديد سطحية.

أولاً جاء دور السباقات المدرسية وألعابها الرياضية. لقد بدا الأطفال في غاية الأناقة بأزيائهم المدرسية الخضراء والزرقاء والبنّية.

وكان لكل مدرسة زمرتها من المشجعين الذين كان يتعالى ضجيجهم

وهتافهم حين كان الأطفال يركضون ويسقطون على الأرض وينهضون ثانية لمتابعة السباق. كان في الساحة جوقتان من الشباب مزودتان بالأبواق والطبول بغية الترويح عن الناس في فترات الاستراحة بعزف الأنغام العسكرية المظفرة. كانت هاتان الجوقتان تنتميان إلى جناح الشبيبة في الحزب. تلت الألعاب والسباقات المدرسية رقصات تقليدية؛ صبيانٌ قُلْفٌ وبناتٌ بَظْراوات، أدخلوا البهجة على قلوب الجماهير برقصة «الماثو» العنيفة. لقد طلوا وجوههم - بنين وبنات - بالحوّار وبأكسيد الحديد الأحمر، وربطوا الصنوج حول ركبهم. رقص الشباب والشابات رقصة موكو نغوا، بينما رقصت النساء الأكبر سناً، وهن يرتدين الملابس الجلدية المينغو والميثورو وأطواق الخرز، رقصة اندومو. طيلة ذلك الصباح كان غيكونيو يهرول من مكان إلى آخر ومن مجموعة إلى أخرى، للإشراف على حسن سير الأمور. كان هذا واجبه وكان مزهواً به، وأراد أن يجعل منه ظفراً مجلجلاً.

لم يكن جمهور المتفرجين بذلك العدد الغفير الذي توقعه غيكونيو. وثمة جمود خيّم على الفصل الصباحي - شيء يناقض ما يمكن أن يتوقعه المرء في الاحتفال بعيد الاستقلال - أي على الألعاب الرياضية والرقصات.

ولكن فجأة حوالي نهاية الفصل الصباحي حدث شيء أذاب ذلك الجمود. لقد أعلن عن إجراء سباق لمسافة ثلاثة أميال، اثنتا عشرة دورة حول الساحة. وكان يحق الاشتراك به لجميع الشيوخ والشباب والنساء والأطفال. أحيا الجمهور هذا التدبير المفاجئ (لم يكن هذا السباق على جدول الاحتفالات) وأثار حماسته. وطفق الناس يتصايحون في كل مكان ويتجادلون، يحض واحدهم الآخر على الاشتراك بهذا السباق. وكانت كلما تقدمت امرأة حياها الجمهور بالضحك والتصفيق العنيف إطراء لاشتراكها، ثم لواروي حين تقدم هذا العجوز بأسماله وملاحفه للاشتراك في السباق. اغرورقت عينا مومبي، التي كانت تجلس إزاء

وامبوي، من الضحك وهي تشاهد واروي يخشخش بملابسه وهو يعبر الساحة إلى نقطة البدء. كان الأطفال يختالون جيئة وذهاباً حول الشيوخ المشتركين في السباق.

- «هيا نشترك في السباق» قال موارا لكارانجا.

- «إن عظامي متيبسة»، نفر كارانجا وأشاح بنظره بعيداً عن مومبي صوب العدائين ذوي الثياب المتنافرة.

- هيا يا صاح. لقد كنت ذات مرة من أمهر العدائين للمسافات الطويلة. أتذكر تلك الأيام في مانغو؟

- وهل ستشترك أنت؟

- «نعم - وخصمك» قال موارا وشد كارانجا من يده.

إن الظهور المفاجئ لكارانجا أذهل غيكونيو الذي انتقل، كي يتحاشى النظر إلى كارانجا، إلى حيث كان يقف واروي وابتدره بحديث ودي. كان كارانجا متردداً أيضاً لأن فكرة اشتراك غيكونيو في السباق ما خطرت بباله. غير أن احتقاره للنجار ملأ له قلبه وجعله يقرر عدم الانسحاب من السباق، متذكراً سباقهما القديم نحو القطار. إن تلك المسرحية لما تنته بعد ولسوف تمثل ثانية بحضور مومبي وفي مكان لا يبعد عن محطة القطار نفسها إلا ياردات قليلة. فلربما هذه المرة يربح السباق - ومومبي أيضاً، وإلا فلماذا دفعت إليه بتك الرسالة القصيرة، حاكم الأمر بتفاؤل حذر عندما انحنى كي يحل شريط حذائه. كان موارا يتحدث إلى الجنرال ر وإلى الملازم الأول كويتاندو وبدا عليه كأنه يؤكد أمراً ما بسبابة يده اليمنى. أصبح المتنافسون الآن، وقد كانوا حفنة من النساء والرجال وتلاميذ المدارس، على أهبة الانطلاق. أطبق الصمت المطلق على الساحة كلها لمدة لا تزيد على الثانية قبل انطلاق الصفارة. ثم رافق هرج نقطة البدء جلبة الصياح الصادر عن المتفرجين. أخذ العداؤون يطأ واحدهم الآخر. وقع صبي على الأرض ونجا بأعجوبة دون أن تمسه الأقدام المتراكضة بأذى.

خرج واروي من السباق مباشرة تقريباً. ذهب وجلس إزاء وامبوي ومومبي.

- «أهذا أنت؟ لن أمحض قوتك الثقة بعد الآن» أغاظته مومبي. «لقد جلبت العار على كل نسائك المخلصات».

- «فليتسابق الأطفال» قال وهز رأسه ببطء. «كنا في أيامنا نركض أميالاً وأميالاً خلف قطعاتنا التي كان يسرقها (الماساي)، ولم يكن الأمر هزلاً، أقول لك».

قبل نهاية الشوط الأول حذا عدة عدائين حذو واروي وانسحبوا. لم تكمل الشوط الثالث من النساء إلا امرأة واحدة. وفي نهاية الشوط بعد انسحاب عدة متسابقين من السباق، لاحظت مومبي على حين غرة حضور كارانجا. توقف تصفيقها فجأة، انكمش حماسها وارتدت إلى ذكريات البارحة. لقد أربكها مرأى كارانجا وغيكونيو على الساحة نفسها حتى إنها أصبحت الآن تتمنى لو أنها بقيت في البيت مع ذويها. لماذا جاء كارانجا على الرغم من رسالتها التحذيرية؟ أو ربما ما استلم الرسالة؟ وحينما شاهدت الجنرال ر في السباق تذكرت ما كان الجنرال قد قاله قبل يومين. لقد تنبّهت الآن، بعد أن أصبحت على معرفة أدق بالموقف، للسخرية التي كانت كلماته تنطوي عليها. لقد تغيرت الظروف بعد أن كتبت تلك الرسالة. وقتها لم تكن قد علمت بعد أن الإنسان الذي خان أخاها كيهيكا عملياً هو الآن بطل القرية. فكيف بوسعها أن تفضي بهذه الحقيقة لأي إنسان؟ أتستطيع أن تتحمل جلب المزيد من الشقاء إلى ميوغو الذي ظهرت عيناه ووجهه في غاية التشوه من الألم؟ تذكرت أصابعه على فمها وأصابعه الأخرى وهي تتلمس طريقها نحو عنقها بشكل أخرق. ثم ذلك الفراغ المرعب في عينيه. وفجأة أمام سؤالها له أزاح يديه عن جسدها وركع أمامها مهشماً تائباً خانعاً.

«يا مومبي!» واختنقت الكلمات في حلقه. مدّ نحوها يديه قليلاً، على نحو واهن، ثم على غير انتظار أخفى وجهه بهما. كل هذه المتغيرات

المفاجئة في مزاجه وملامحه أفقدتها الكلمات. ولكنها على الرغم من خوفها منه وضعت يداً مرتعشة على كتفيه.

- اسمع يا ميوغو! رأيت أخي ميتاً. كان هناك مدير المنطقة والشرطة.

- إن لك عينين وأذنين. أفلا تعلمين من خان أخاك؟

- كارانجا! كنت أنت بعيداً هناك. الجنرال ر هو من قال لنا ذلك.

- لا.

تراجعت عنه إلى الخلف. لقد أدركت الحقيقة في صرخته الجوفاء، في نظرته.

- أأنت؟

- أنا - نعم - أنا.

لم ينظر إليها. أثار صوته شفقتها. توسل إليها. ولكن لم يكن لها مناص من الاشمئزاز والارتجاف. تحركت باتجاه الباب بعيداً عن القامة الجامدة لبطل القرية. لم تكن لديها أية كلمات. لا مشاعر. لا شيء. فتحت الباب بشكل آلي ولكن بسرعة. ليلة ظلماء. كان يبدو عليها أنها تسير وتركض في آن واحد... يا للظلام المدلهم. لم تكن تظهر حتى أشكال البيوت أو الأشياء. المطر يتساقط رذاذاً. أصوات الرجال والنساء الذين كانوا يهزجون أهازيج عيد الاستقلال، كانت تصل إليها ضمن الرذاذ كأنها قادمة من قرية أخرى، بعيدة جداً.

في الصباح قالت لوامبوي: «لا يود ميوغو المشاركة بهذه الاحتفالات أليس لنا طريقة لتركه وشأنه؟». هذه المعرفة التي كانت تحملها في سريرتها ورطتها بمأزق جديد: إما كارانجا أو ميوغو. ولكنها لم تكن تريد الموت لأي إنسان ولا الأذى بسبب أخيها. تمنت لو كان بمقدورها التحدث إلى غيكونيو الذي قد يجد مخرجاً من هذه المعضلة. لماذا يا ترى تجاهل كارانجا رسالتها إليه؟ تساءلت مرة أخرى. وفجأة أصبحت حانقة على نفسها: ماذا يهمها من أمره، ذاك الإنسان الذي حطم حياتها؟

- ما خطبك؟ سألتها وامبوي.

- لا شيء. أجابت مومبي بسرعة وتابعت تصفيقها الحاد.

بينما كان غيكونيو يعدو كان يحاول التفكير بأشياء أخرى: الوجوه شبه المألوفة بين صفوف الجماهير، الحوانيت الجديدة في رونجي بعيداً في أسفل المنحدر، وخلفها منطقة المستوطنة. هل سيضع الاستقلال الأرض بين أيدي الأفارقة؟ وهل سيمثل ذلك أي فارق بالنسبة لمالك صغير في القرية؟ سمع قطاراً يدمدم في محطة رونجي. فكر بأبيه في مناطق وادي ريفت: أما زال على قيد الحياة؟ كيف يبدو شكله اليوم؟ ونفذ بعد ذلك إلى الساحة العريضة لطفولته، صباه، قصة غرامه بمومبي، كيهيكا، حالة الطوارئ، المعتقلات، الحجارة على الرصيف، العودة إلى البيت والخيانة الزوجية، خطرت في ذهنه بلمح البرق ضمن هذا السباق. كيف كانت مومبي تطغى على حياته. إن مجرد غيابها عنه جرده من سلاحه وخلاه إنساناً منهاراً. هز رأسه غاضباً وقسر نفسه على التركيز على السباق الراهن. ها هو وكارانجا متنافسان مرة أخرى ولكن على ماذا يتنافسان؟ على من هما يتنافسان؟ إن كارانجا يسخر مني ليس إلا، خطر في ذهنه. غلى حقده وهو يلهث فمسح العرق عن جبينه. تابع عدوه، ألهبته الرغبة في الانتصار. حافظ على ترتيبه قريباً خلف كارانجا. كان هدفه الحفاظ على مسافة معينة، مدخراً طاقته للشوط الأخير أو ما يقاربه حين سيندفع وقتها كالسهم إلى الأمام واثقاً أن عضلاته سوف تستجيب لمشيئته.

كان موارا يحتل الترتيب الأول في الشوط السابع. على بعد عدة ياردات خلفه كان يتبعه كارانجا، ثم الجنرال ر، غيكونيو، الملازم الأول كوينانذو وثلاثة رجال آخرين، كلهم على ذلك الترتيب. كان معظم المتسابقين الآخرين قد انسحبوا. كان المتفرجون حول الساحة يقفون ويهتفون مرة لهذا الرجل ومرة لذلك الرجل. هيا، هيا، كانوا يصيحون. كان لسباق المسافات الطويلة دائماً شعبيته في ثاباي. كان الناس يحتقرون سباق المسافات القصيرة ناظرين إليه بأنه سباق أطفال. وحتى أولئك

الذين كانوا يضمرون حقداً خاصاً لكارانجا، الزعيم الحكومي السابق وقائد الحرس القومي، فقدوا الآن، وهم في ذروة حماس المناسبة، مشاعرهم المريرة حياله وبدؤوا يهتفون له مشجعين.

وكارانجا أيضاً كان يتذكر مشهداً من زمن بعيد، حين وقف في محطة القطار هناك يغالب معرفته بأن غيكونيو ومومبي قد تركا بمفردهما خلف المتسابقين. ويلتاه كم كان يتحرق شوقاً لتلك المرأة! يا إلهي كم ناح الغيتار على مومبي في الغابة! ليته ما تردد وانتظر الغد، لكان ربما قد فاز بها. وفيما بعد حين تقدم لخطوبتها رفضته - بابتسامة. لقد كان ذلك الرفض هو ما شده إليها بشكل يتعذر محوه، فترقب الفرصة السانحة. ولذلك حين اقتيد غيكونيو إلى المعتقل، سرعان ما أدرك كارانجا بأنه يجب ألا يسمح لنفسه بالانقياد بعيداً عن مومبي. فباع الحزب وخان العهد مقابل بقائه قريباً من مومبي. ودفعه دولاب الأحداث فيما بعد إلى تزايد اعتماده على الإنسان الأبيض، مما أمدّه بالسلطة - سلطة العفو والحبس والقتل. كان الرجال يجثون أمامه وجلين. كان يحتقرهم ولكنه كان يخافهم أيضاً. وأما النساء فقد كن يفرشن أجسادهن العارية له، حتى نساء بعض أكابر الناس كن يأتينه تحت جنح الظلام. ولكن مومبي، مومبيه، لم تكن تذعن وما كانت نفسه تطاوعه على قسرها. ويا للسخرية، كما فكر فيما بعد وكما كان يفكر الآن، لم تضطجع تحته إلا حين وقف على حافة الهزيمة. لقد شعر بهزة آنية مشحونة بالانتصار العميق ولكنها تحولت بعد ثوان، بعد ممارسة الجنس معها، إلى عزلة تامة ومذلة مطلقة. لقد استغلها ولهذا السبب، كما ظن، صبت احتقارها عليه. لم يعد بمقدوره وقتها أن ينظر إلى وجهها - ليس بعد ذلك النعل الذي ارتطم بوجهه وأثار في عينيه دموعاً أغشت له بصره. لقد كان دائماً يتمنى أن تأتي مومبي إليه، بملء إرادتها، باعتباره إنساناً مهماً في نظرها، إنساناً لا سبيل لمقاومته. وها هو الآن يركض من أجلها. أفلم تتح له هي نفسها الفرصة للمرة الثانية؟ لقد انتشلته رسالتها من هوة يأس مرير. ها قد ارتحل آل ثومبسون، وسيرحل الإنسان الأبيض

عما قريب. كان كارانجا يعتقد بأن السلطة البيضاء باقية فعلاً ما بقي هنالك آل ثومبسون. ولربما كان السبب يتمثل في أن ثومبسون كان أول إنسان أبيض رآه كارانجا وقابله. وذلك لأن ثومبسون، مدير المنطقة، كان يبدو للناس في ثاباي، قبل الطوارئ، رمزاً لسلطة الإنسان الأبيض ورفعته. لقد وفّرت السلطة البيضاء لكارانجا أمناً مخيفاً – وبدأ الآن ذلك الأمن، الذي تزعزع من جذوره، يتداعى أيما تداع. طرق الدروب المظلمة. لم يكن بوسعه رؤية النور. ثم جاءته الرسالة. حذرته من حضور احتفالات اليوم. فلماذا؟ لقد طلب منه موارا من قبل حضور الاحتفالات ولكنه، إذ كان في هوة اليأس، رفض الحضور. ما بدّل له رأيه إلا رسالتها التي جعلته يعيد النظر بالأمر ويقلبه ظهراً لبطن طوال الليل. كانت كل لحظة تمر عليه تزيد من حدة فضوله لرؤية مومبي. وأما ثاباي فليست في خاتمة المطاف إلا قريته: فمن ذا الذي يجرؤ على القول بأن كارانجا لا يستطيع الذهاب إلى بيته؟ كان كارانجا يشعر بالاطمئنان في مكان ما، في حنايا فؤاده، لسطوة قوته الجسدية على مومبي. أفلم تعتن بطفله، بعد كل شيء، عناية الأم؟ لم يأخذ تحذيرها على محمل الجد. إنها طريقة المرأة في فعل الأشياء. لقد تعزز هذا الرأي لديه حينما وصل مع موارا إلى رونجي، حيث عرف بأن مومبي قد هجرت زوجها. تغلغلت رسالتها في أعماق قلبه. طيلة حياتي وأنا أركض من أجلها، خطرت له هذه الفكرة المريرة لهنيهة لا أكثر. يجب ألا يسمح لأمثال هذه التصورات أن تلهيه عن إحراز النصر الراهن. وما السباق الحالي إلا آخر سباق له. إذا فاز بمومبي فإن حياته ستبلغ ذروة الكمال. فلا الاستقلال ولا تهديداته، ولا شيء آخر على وجه الأرض، يمكن أن يمسّه بسوء. ولذلك استحث الآن خطوه وزاد من تسارعه. يجب أن يدرك موارا في الشوط العاشر. يجب أن يتخلص من غيكونيو الذي يكاد يطبق عليه من الخلف.

لأن غيكونيو الآن كان قد تجاوز الجنرال ر واحتل الترتيب الثالث، كزّ أسنانه مستثيراً عزيمته. كان يعلم بأن مومبي تشهد السباق وما كان يريد أن

يصبح موضع مهانة أمامها من عشيقها. لقد جاءت كي تسخر منه. هكذا ظن. لقد جاءت كي تبرهن عن استقلالها الآن. ذهب مرتين إلى المكان الذي كانت تجلس فيه كي يتحدث مع وامبوي عن أمر ما، وتجاهل وجودها عن عمد. هذا ما جعله يبدو هزأة مما زاد في حنقه. لاحظ أن كارانجا يزيد من سرعته وفعل هو الشيء نفسه. حتى الآن لم يخترق أحد الترتيب الذي كان قائماً في الشوط الثامن بيد أن الجمهور أدرك الحماس والتوتر القائمين.

حتى مومبي نسيت الآن الهمّ الذي في قلبها، جرفتها اللحظة. تمنت أن يفوز غيكونيو، وابتهلت أيضاً لكي يخسر. لقد انتقدت ركضه الأخرق ولكنها كانت تتابع تقدمه بانفعال. هتفت للجنرال ر والملازم الأول كويناندو الذي كان خلف غيكونيو مباشرة. هيا، هيا. كان قلبها يخفق وهي تلوح بمنديل أبيض. كانت كلما مرّ بها كارانجا تشعر بالارتباك، وأنى لها أن تخفي هذا الشعور.

كان الجنرال ر يركض بارتياح. كان قبل حالة الطوارئ يشترك بكل سباق ذي مسافة طويلة، حتى إنه طرح نظرية حول هذا الموضوع. «إنه يختبر طول المدة التي يمكنك بها تحمل المشاق» كان يقول: «أنت تقول لنفسك: لن أستسلم، سأخوضه إلى نهايته». كان لجسده تناسق جميل. وإذ كان يعدو كان يتدرب على دوره في المشهد الذي كان سيحدث عصر ذلك اليوم. لقد طلبوا منه أن يخطب بدلاً من ميوغو. لقد عقد عزمه على ألا يخيّب فأل كيهيكا به. كيهيكا الذي كانت روحه سترفرف، بانتصار، فوق الاجتماع.

لم يكن ذهنه مشغولاً بذلك الأمر، لقد عاد، دون سابق إنذار، إلى نايزي مسقط رأسه. المدرسة والتعليم: كان ذلك حلم طفولته وتوقعاته. تذكر كيف كان يقوم بأعمال شتى من مثل حراثة حقول الآخرين بالأجرة. كان والده رجلاً متعجرفاً كثيراً ما إن يعود إلى البيت ثملاً حتى يوسع أم الصبي لكماً بقبضاته. كانت تبكي وتعول كالحيوان الحبيس في الأقفاص.

ميوهويا - ذلك كان الاسم الحقيقي للجنرال - كان إما يلطو بمكان ما أو يهرب من البيت. كان يمقت نفسه لصغر حجمه وفقدانه الشجاعة، ولكنه لم يكن يبكي كبقية الأطفال - ولا حتى حين يضربه والده. «لا بد لي من اصطياده يوماً ما» أقسم سراً لنفسه. لم يبح بخطته لأيّ إنسان - حتى لأمه. لسوف يقتل هذا الطاغية ذات يوم. ولسوف تزغرد أمه وقتها امتناناً، على الرغم من أنها لم تكن تتذمر قط من الأعمال المجهدة التي كانت تقوم بها ولا من الكلمات التي كانت تنهال عليها. حين شب عن الطوق خبت عنده الرغبة بالانتقام وأرجأ يوم الحساب إلى مستقبل مجهول. ولكن ذلك اليوم حان على غير انتظار. عاد إلى البيت ميوهويا، وقد كان يافعاً مختوناً منذ عهد قريب، ووجد أباه يمارس هوايته المفضلة. وفجأة شعر الشاب بأن الفرصة مواتية له. «إن كنت حريصاً على حياتك فإياك أن تمسها ثانية» صاح بأبيه. في البداية، عقلت الدهشة لسان الأب حتى إن يده تجمدت في الهواء. هل ما يسمعه صحيح؟ هل وجد هذا الحمل الهزيل صوته؟ وثارت ثائرة الأسد بشكل أدخل الرعب على نفس ميوهويا. ولكنه بعد قليل لاحظ الخوف يكمن في عيني الأسد. شيء ما تقصّف في سريرة ميوهويا فأمسك بذراع أبيه وضربه. تفجرت عنده سنوات البغض والخوف على شكل بهجة مخيفة. اشتبك الأب والابن في عراك: حياة أو موت. بيد أن ميوهويا لم يكن قد وضع في حسبانه خيانة العبد. تناولت المرأة هراوة وقاتلت إلى جانب زوجها. أصبح ميوهويا الآن هو من عقلت لسانه الدهشة وأسقط في يده. «إنه أبوك - وزوجي» كانت تصيح به وهي تهوي بضربة على كتفه. هرب ميوهويا من البيت، ولأول مرة في حياته أجهش بالبكاء. لا أفهم الأمر، لا أستطيع لفهمه سبيلاً. في تلك الليلة نفسها انتشر النبأ. ابن تطاول على أبيه. طُرد ميوهويا من القرية. كان في غاية السعادة حين جنّده البريطانيون في حربهم. ولكنه ما نسي تلك التجربة، مطلقاً.

سمع مومبي تهتف له وهذا ما أرجعه إلى الحاضر. ثمّن هتافاتها بزيادة

تسارع خطواته وسرعان ما تجاوز الملازم الأول كويناندو. ركض بشكل جنوني. أراد أن ينسخ الماضي من ذهنه. إنه لم يعد يريد أن يعيش طفولة مماثلة.

وهكذا تسارعت خطوات المسرحية. بذل كويناندو جهداً مضنياً كي يقلّص المسافة بينه وبين الجنرال. ولكنه لسبب ما أخفق في قسر همته على السباق. خارت قواه وشعر بنفسه جثة هامدة. لازمه هذا الشعور لمدة يومين وما فهم له سبباً. لقد مر بالتأكيد في تجارب أسوأ خلال الحرب الثانية للإنسان الأبيض وفي الغابة أيضاً. كان فخوراً لكونه طباخاً للإنسان الأبيض في تلك الحملات. بعد الحرب، كان يتحدث عن ذلك بزهو حتى شعر بالإحباط نتيجة البطالة الدائمة التي فتحت له عينيه بعض الشيء. كان كويناندو واحداً من أولئك الناس الذين تورطوا في مآزق مع أرباب العمل لأنه كان دائم الشكوى. كان يعدد الخدمات التي قدمها للإنسان الأبيض خلال الحرب مما يؤهله، كما كان يدعي، لمعاملة أفضل. ففي معمل أحذية قرب بيته قال مرة لرب العمل على مرأى من العمال الآخرين: «أريد مزيداً من النقود. يجب أن يكون لي سيارة كسيارتك»، فطرد من العمل مما أخمده لفترة من الزمن. ذهب بعد ذلك يعمل لصالح امرأة. الشيء الذي كان يؤرقه الآن كان هذا: لقد حارب في الغابة وقتل بلا شفقة، ولكن لم يؤرق عليه نومه أي مشهد من المشاهد الدموية التي شارك فيها، بل على النقيض من ذلك: لقد زوده نضاله من أجل الحرية بهدف ما، جعل منه رجلاً. فلماذا إذاً يرتجف من شبح تلك المرأة؟ لقد انصرمت عدة سنوات على تركه خدمتها... لقد كان يحب كلبها وبدا هذا بأنه يروق لها إذ كانت تقدم الهدايا لكويناندو في كل عيد ميلاد. ثم فجأة بدأت الأفكار تراوده مرة ثانية: ليس لها زوج وتملك بيتاً كبيراً. فلماذا؟ لماذا يجب عليه أن يعيش هو، الرجل، في كوخ من غرفة واحدة؟ واتته الجرأة أخيراً وطفق يفضي بأفكاره للناس الآخرين: إنها تعيش بمفردها، وليس من المصيب أن تعيش امرأة بمفردها. سأتولجها يا صاح،

وسأغوص في أعماق ذلك الثقب. ضحك الآخرون لحديث كويناندو الشيق. ولكن ما بدأ كطرفة عنده أصبح هوساً. سنحت له الفرصة خلال الطوارئ. هو ورجلان آخران طرحوها أرضاً. كان يرتجف من الخوف والحقد الدفين. كان يكره الإنسان الأبيض - أي واحد. ها هو الآن ينتقم منهم جميعاً. لقد شعر بعويلهم المذعور يتمثل في تنفس المرأة المسعور. الإنسان الأبيض لا شيء. الإنسان الأبيض لا شيء. أنا أفعل بك الآن ما فعلته بنا - نحن الناس السود - قال لنفسه وهو يبضع تلك المرأة ويعتريه الخوف واليأس الوحشي. هرب والرجلان الآخران إلى الغابة. وطوى النسيان تلك الحادثة طيلة السنوات التالية إلى أن ذهب إلى غيثيما لمقابلة موارا. وهنالك كانت أمامه الدكتورة لايند. حتى في هذه اللحظة، بينما كان يخوض السباق. جعلته فكرة تلك المقابلة المفاجئة يرتجف. بدأ شبحها ينهش في حياته. سرعان ما انقلب ترياق الاستقلال في فمه إلى حنظل. كان الجنرال ر يسبق كويناندو بخطوات عديدة. استثار كويناندو همته بصعوبة. صدر دوي عن الجمهور حقن أطراف كويناندو بقوة دفع جديدة. ليس عليك إلا الكفاح. ليس عليك إلا الكفاح، وطفق يلهث.

في بداية الشوط الحادي عشر اندفع غيكونيو وسبق كارانجا. ها هي موجة جديدة من الصراخ والهياج تهلل لخرق الترتيب الذي كان من قبل. هذه الموجة أمدت كارانجا بزخم جديد وهو يحاول القيام بمحاولة لاستعادة المركز الأول من خصمه. وسرعان ما أدرك غيكونيو موارا الذي بذل أعتى جهوده عبثاً. أدركه كارانجا أيضاً وسبقه. خارت قوى موارا وسرعان ما سبقه جميع المتسابقين. كان الصراع الآن بين غيكونيو وكارانجا. ليس إلا قلة من الناس ممن كانوا يدركون أن ثمة دوافع وعواطف خفية تكمن خلف هذا الصراع. وأما الجمهور فما كان ليشعر إلا بالمراهنة الخاصة والتوتر الشديد. كان الاثنان في الشوط الأخير فرسي رهان. وفي لحظة معينة بدا كارانجا وكأنه على وشك أن يسبق غيكونيو. بيد أن غيكونيو بدا وكأنه يعدو بفعل قوة شيطانية. كان

هنالك في الواقع مسحة من التهور بالطريقة التي كان يعدو بها الاثنان. مط الناس أنفسهم ووقفوا على رؤوس أصابع أقدامهم.

ولكن حدث في هذه الآونة شيء على غير انتظار. فبينما كان غيكونيو يركض نازلاً عن الهضبة زلت قدمه بخصلة حشيش طرحته أرضاً مما أدى إلى تَصَيُّدِ كارانجا أيضاً في هذه المفاجأة. ران الصمت على الساحة برمتها. جاء الجنرال ر وخلفه بقية المتسابقين، وتجاوز الاثنين وبلغ غاية الشوط. ثم اضطربت الساحة بالهرج والمرج. وتدافع الناس إلى المكان الذي وقع فيه الرجلان وتكوما فوق بعضهما بعضاً. حينما وقع غيكونيو أنزلت مومبي المنديل الذي كانت تلوّح به. «رباه» صاحت واندفعت إليه عبر الساحة. جثت على ركبتيها وتفحصت رأسه بدقة. كان غيكونيو في غاية الإرهاق والغضب حتى إنه لم يكن يعلم ما يدور حوله. كان كارانجا الأول بينهما الذي استعاد قواه ورفع نفسه متكئاً على مرفقه الأيسر. ولكنه لدى رويته رأس غيكونيو بين يدي مومبي – يا لرقة هاتين اليدين – عشي بصره وغاص على الأرض من جديد. كان الناس في جلبة حول مكان الحادث. ولما رأت مومبي أن الأذى لم يلحق بغيكونيو تذكرت صدودهما. فشقت طريقها وسط الزحام وقد اعتراها الارتباك ومضت إلى البيت قبل أن يتمكن إنسان من التحدث إليها. تفرقت الجماهير أيضاً والناس يتجادلون ويتفكّرون: من كان من المحتمل أن يفوز بالسباق من هذين الاثنين؟ كان بعضهم إلى جانب كارانجا وبعضهم الآخر إلى جانب غيكونيو. ولما ابتعد الناس عن الأنظار قلة منهم شاهدوا أن غيكونيو ما يزال مطروحاً على الأرض. كان يتصبب عرقاً وكان وجهه متغضناً من شدة الألم. حاول النهوض. أنّ قليلاً، ثم جلس ثانية على الأرض. وما علم الناس بأن غيكونيو قد كسر ذراعه الأيسر إلا بعد إدخاله المستشفى.

وهذا ما ختم الفصل الصباحي.

بعد الظهر أشرقت الشمس وصَرَّحَ النهارُ وتبدد الضباب الذي عشش في الهواء صباحاً. وأما الأبخرة فقد كانت تتصاعد من الأرض كأنها أبخرة

روث البقر المقذوف حديثاً. انتشر البخار الدافئ وتمعجّ على شكل خطوط رفيعة في السماء الصافية. كان سيقام بعد الظهر الاحتفال الرئيس لإحياء ذكرى الأبناء الأموات ولإرساء الأسس لمستقبل جديد. بدا أن كل الناس ينتظرون هذه المناسبة ويعدون أنفسهم لها، فجاء إلى الاجتماع معظم سكان قريتنا باستثناء العجائز وقلة ممن كانوا مرضى أو عرجان. كان هذا اليوم يوم كيهيكا، ويوم ميوغو، كما كان يومنا نحن أيضاً.

أناس آخرون من أنديا، لاري، ليمورو، انغيسا، كابيت، كارارابون، جاؤوا بالشاحنات والحافلات واصطفوا أرتالاً في سوق رونجي. كان هناك تلاميذ المدارس ببزاتهم الخاكية الرسمية من خضراء وحمراء وصفراء - ومن كل الألوان الموجودة في قوس قزح، بالإضافة إلى أطفال القرية بأطمارهم البالية وبالذباب المحتشد حول أفواههم وعيونهم الرمدة، علاوة على النساء اللواتي كن يلبسن الألبسة الجلدية ويزيّن أعناقهن بأطواق الخرز. وكان ثمة نساء أخريات يلبسن الخام المرقش بالزهور الذي يكشف عري أكتافهن اليسرى، وأخريات يرتدين الفراك العصري، ومجموعة أخرى منهن يرتلن ترانيم عيد الميلاد المخلوطة بأناشيد تقليدية وأهازيج الاستقلال. كان الرجال يقفون صامتين أو يتحدثون عن الآفاق التي فتحها الاستقلال. كما كان هناك العاطلون عن العمل من الذين يرتدون سترات ما مسّها الماء أو الصابون قط: هل ستصبح الحكومة الآن أقل صرامة على الذين لم يتمكنوا من دفع الضريبة؟ هل ستكون هناك فرص عمل أكبر؟ هل ستكون هناك أراض أكثر؟ كان الموسرون من الباعة والتجار وملاّك الأراضي يبحثون آفاق العمل: أما وقد صار لنا الآن سلطة سياسية فهل من الممكن فعل شيء ما تجاه الهنود؟

جلسنا. غيثوا، الذي كنا ندعوه تحبباً «بطلنا وحيد الساق»، أجهش بالبكاء وذرف الدموع السخية، دموع الفرح العظيم.

كان الجمهور منسقاً: ثمة شيء جميل ومثير للمشاعر يكمن في منظر كتلة جماهيرية ضخمة تجلس في فوضى منظمة.

غرست شجرة في البقعة التي شنق فيها كيهيكا. كان قربها خروفان أسودان، لا تشوبهما شائبة، مربوطين إلى صخرة ليكونا القربان الكبير. تم اختيار واروي وشيخين هرمين من قرية كيهينجو لاقتياد القربان بعد انتهاء الإشادة بأولئك الذين قضوا نحبهم في النضال. واحتل والدا مومبي، ميوغوا ووانجيكو، كرسيين بارزين قرب المنصة. وأما كراسي الخطباء الرئيسين وقادة الاحتفالات فقد أعدت حول الميكروفون الذي كان ينتصب على المنصة العالية. وأما مومبي التي علمت في القرية بنبأ الذراع المكسورة لغيكونيو، فقد ذهبت إلى المستشفى.

انتظرنا.

ومرة ثانية ظهر ذلك التوجس الثقيل الذي كان قد خيم على قريتنا منذ الليل. وبدا أن معظم الناس لا يزالون يتوقعون أن يخطب ميوغو. لقد أرادوا رؤية شخصه وسماع صوته. الحكايات التي راجت حول قوة ميوغو انتقلت من شفة إلى أخرى وكانت هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن ذلك الحشد الكبير. كان من المحال دحض الإشاعات العديدة المتناقضة التي انقلبت بين عشية وضحاها إلى ضرب من الخرافات المثيرة. ولم يكن ليأخذ أي إنسان، من قريتنا على الأقل، أي تكذيب على محمل الجد. قال بعض الناس بأنه تعرض في المعتقل لإطلاق الرصاص ولكن لم تمسه أية طلقة بسوء. وبفعل تلك القوى كان ميوغو مسؤولاً عن حالات فرار عديدة من المعتقل قام بها رجال ذهبوا بعد هربهم لمتابعة النضال في الغابة. ومن كان بمقدوره سوى ميوغو أن يهرب الرسائل من المعتقلات إلى أعضاء البرلمان في إنكلترا؟ كما كان هناك من ألمح إلى أنه كان في معركة (ماهي) وحارب جنباً إلى جنب مع كيهيكا. كانت هذه الحكايات تدور في الاجتماع بمنتهى البساطة. أنشدنا النشيد تلو النشيد عن كيهيكا وميوغو، فوّحدت بين قلوبنا قدسية صامتة. لقد توقعنا بشكل غامض، كأولئك الذين جاؤوا من أمكنة بعيدة لرؤية ميوغو وهو يصنع الخوارق، بل ويكلم الله، أن شيئاً عجيباً لا مناص من حدوثه سيحدث،

لم يكن هذا الإحساس في الواقع إحساساً بهيجاً، بل كان إحساساً مربكاً بقدر لا مفر منه.

وقف سكرتير الحزب بدلاً من غيكونيو. كان نايامو رجلاً قصيراً ذا بنية ضخمة، ألقي القبض عليه بالجرم المشهود مخبئاً طلقات في جيوبه إبان حالة الطوارئ. يقال بأن أعمامه الموسرين (كانوا من الموالين) رشوا الشرطة مما أدى إلى إنقاذه من حكم الإعدام الذي كان مصير كل أولئك الناس الذين تضبط الأسلحة والذخائر في حوزتهم، بالإضافة إلى حداثة سنه إذ لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة، فسجن سبع سنوات بدلاً من الإعدام. استدعى نايامو الآن الأب موريس كينغوري لافتتاح الجلسة بتلاوة الصلاة. كان كينغوري قبل عام 1952 واعظاً ذائع الصيت في كنيسة الكيكويو الأرثوذكسية اليونانية، وهي إحدى الكنائس الأنكليكانية العديدة التي انفصلت عن المؤسسة التبشيرية. وحين حظرت هذه الكنائس بقي كينغوري عاطلاً عن العمل لفترة طويلة قبل أن يلتحق بمديرية الزراعة خلال عملية تجميل الأراضي في المقاطعة المركزية، ويعمل كمرشد فيها - عمل ما زال يمارسه حتى هذا اليوم. كان من عادته كواعظ أن يرتل الأناشيد ويتلو الصلوات بشكل مسرحي. كان يرفع صوته ويشخص ببصره إلى السماء، ثم يخفضهما فجأة. وكثيراً ما كان يخبط على صدره ويشد شعره وثيابه. كانت كلماته تتأرجح بين الاعتراض والخنوع، بين الاعتدال والتفجع، بين الوعد والوعيد. وقف الآن على المنصة يحمل إنجيلاً في يده.

كينغوري: لنبدأ الصلاة. يا رب افتح لنا قلوبنا.

الجمهور: وأفواهنا ستفيض بالشكر لك.

كينغوري: يا إله إسحاق ويعقوب وإبراهيم، يا من خلقت أيضاً الغيكويو وومبي، ومنحتنا، نحن أبناءك، هذه الأرض، أرض كينيا، نحن، في هذه المناسبة التي ستتذكرها أمم الأرض قاطبة بأنها اليوم الذي نجّيت فيه أبناءك من المصريين، نبتهل إليك الآن أن تجعل دموعك تتدفق علينا،

لأن دموعك، يا رب، هي البركات الخالدة. لقد أريقت الدماء من أجل هذا اليوم.

إن كل عمود في أكواخنا قد تعمد بالدم، ليس دماء القرابين وإنما دماء أبنائنا وبناتنا الذين قضوا كي تكتب لنا الحياة. وفي كل مكان من قرانا، في السوق، في المزارع، لا، بل حتى في الهواء، نسمع نواح الأرامل واليتامى، نمر بهم ونتحدث إليهم بصوت عال كي نخفف من مصابهم، لأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً لهم، يا رب، لا نستطيع أن نفعل شيئاً. ولكن صيحة راشيل في أعماقنا لا يمكن طمسها، لا يمكن طمسها أبد الآبدين. رحماك يا رب إسحاق وإبراهيم، إن الرحلة عبر الصحراء طويلة. نحن بلا ماء، نحن بلا طعام، وأعداؤنا جادون في إثرنا، يركبون العربات وصهوات الخيول بغية إعادتنا إلى فرعون. لأنهم كارهون أن يرحل شعبك، يمنعهم الغلّ في قلوبهم من السماح لشعبك بالرحيل. ولكن بمعونتك وإرشادك يا رب، واثقون من بلوغنا شاطئ كنعان والسير عليه. أنت يا من قلت بأنه ما إن يجتمع اثنان أو ثلاثة بعضهم ببعض حتى تهبهم كل ما يطلبون، نتوسل إليك الآن بصوت واحد أن تبارك عمل أيدينا ونحن نحرث التربة وندافع عن حريتنا؛ إذ مسطّرٌ في كتابك: اطلبوا تمنح لكم، اقرعوا الأبواب ولسوف تعثرون. هذا كله نطلبه باسم يسوع المسيح إلهنا، آمين.

الجمهور: آمين.

وبدأ الناس بالأناشيد تقودهم زمرة الشبيبة بالطبول والغيتارات والمزامير وصفائح التنك. ومرة ثانية بعثوا التاريخ من جديد ونفخوا فيه الحياة من خلال الكلمات والأصوات: تحويل ملكية الأرض، واياياكي، هاري ثوكو، فرض الضرائب، العمل الإجباري في مزارع البيض، الانفصال عن البعثات التبشيرية، وآه، التعطش والنهم الرهيب للثقافة. نشيد جومو (لقد جاء بيننا كالسهم الناري)، إقامته في إنكلترا (إقامة مومبي مؤقتة في أرض فرعون)، وعودته (جاء ممتطياً صهوة سحابة من دخان ونار لإنقاذ أبنائه). اعتقل، ونفي إلى لودوار وعاد في اليوم الثالث

من مارالال إلى وطنه. عاد إلى وطنه في عربة. ما كان لبوابات الجحيم أن تصده. والآن ترتعش الملائكة أمامه.

تلا نايامو اعتذارات من نائب المنقطة، ومن أعضاء قيادة المنطقة الذين ذهبوا جميعهم إلى نيروبي لتمثيل منطقة رونجي في الاحتفالات الوطنية. لم يأت على ذكر سبب غياب ميوغو.

الخطوة التالية كانت الخطابات. عدد معظم الخطباء مجدداً آلام حالة الطوارئ، أو تحدثوا عن نمو الحزب. كانوا فخورين بكيهيكا، ابن القرية البار، الذي لن يُنسى نضاله من أجل الحرية أبد الدهر، أعادوا تكرار خصاله في الشجاعة والتواضع وحب الأرض. كان موته تضحية من أجل الأمة.

وعند انتهاء كل خطيب كانت تهتف الجماهير أو تنشد، حتى لو لم يكن ذلك أكثر من تكرار تقوم به النساء والرجال لنقاط جرى التحدث عنها من قبل. صوت غيثوا، حين كان يصيح هاتفاً أو منشداً، كان يطغى على أصوات كل الجالسين قربه. وطيلة الوقت كان يعتقد معظم الناس أن ميوغو سيخطب عما قليل. كلما جلس خطيب كانوا يظنون أن الخطيب التالي سيكون ميوغو ولا بد. ولكنهم صبروا وتصابروا بأناة لأن أشهى طبق من الطعام لا يقدم إلا في النهاية.

في النهاية أعلن نايامو أن الجنرال ر، الرجل الذي حارب جنباً إلى جنب مع كيهيكا، سيخطب بدلاً من ميوغو. ظروف خارج إرادة أي إنسان حالت دون حضور ميوغو هذا الحفل. قوبل هذا الإعلان بالصمت. بعد قليل صاح رجل من إحدى الزوايا مطالباً بميوغو بصوت عال. وسرعان ما لقي هذا الطلب استجابة جماعية من جميع أنحاء الساحة، حتى إن الحفل ضجّ باسم ميوغو في تساوق يتسم بالتهديد. بعدئذ انفجر هذا التساوق في جلبة غير منظمة، وقف الناس، وتشكلت زمر منهم، وجادلوا كلهم وأَومَـؤوا واحتجوا وكأنهم قد خدعوا في هذا الحفل. استشار نايامو الكبار وقرروا أن يقوموا بمسعى أخير لمناشدة ميوغو الحضور. إعادة الحشد إلى النظام استغرقت زمناً من نايامو والكبار بعد أن أعلنوا

عن إيفاد بعثة من شخصين في الحال لإحضار ميوغو. وُطلب من بعثة الكبيرين ألا تقبل جواباً بالنفي من ميوغو. وإلى أن تعود البعثة هل يتفضل الحضور بالجلوس والإصغاء إلى كلمات الجنرال؟ جلس الناس ثانية وهم ينشدون نشيد الخندق.

وقفز إلى الخندق.

والكلمات التي قالها للعسكري اخترقت قلبي

كالحربة.

إنك لن تضرب هذه المرأة، هو قال.

إنك لن تضرب امرأة حبلى، قال للعسكري.

كان يكمن خلف هذه الكلمات صوت شيء يشبه قرقعة حبل ينقطع. بعدها خيم على الناس صمت مطبق.

وقف الجنرال ر أمام الميكرفون وعيناه الحمراوان تحاولان أن تسبرا أغوار هذا الجمهور الأخرق. تنحنح مرتين. كان يعرف ماذا يريد أن يقول. لقد تدرب على أداء هذا الدور، عدة مرات، كلمة كلمة. ولكنه الآن وهو يقف على شفير الكارثة، وجد من العسير عليه أن يطوف ببصره على المشهد الذي تحته أو أن يحدق إليه. تقوقع في صورة واحدة - حياته في الغابة التي مرت في ذهنه مرور البرق: رأى الكهوف المظلمة في غابة كينني، الهروب المتواصل من القبائل في غابة نياتداروا، العطش، الجوع، اللحوم النيئة وأخيراً انتصارهم في (ماهي). يجب أن تحدثهم عن كل هذا - صوت في سريرته ألح عليه. حدّثْهم كيف خططت لذلك أنت وكيهيكا. ولكن ما عتمت هذه الصورة أن تبددت وتلاشى الصوت أيضاً. ها إنّ الأب جاكسون كيغوندو ينتصب أمامه الآن، يسخر منه، يكيل له الاتهام. «لقد بدا مثل أبي» اعترف الجنرال ر ذات مرة في لحظة ضعف أمام الملازم الأول كويناندو وذلك بعد وقت قصير من مقتل خادم بيت الله. كان جاكسون يعظ باستمرار ضد الماو ماو في الكنائس

والمحافل العامة التي كان يعقدها توم روبسون. كان يدعو المسيحيين للقتال إلى جانب الإنسان الأبيض، أخيهم في الدين المسيحي، لإعادة النظام وسيادة الروح. والآن تألفت أمام الجنرال ر كل تفصيلات ذلك المشهد حين حاصروا بيت الواعظ ومزقوه إرباً. لم يبد جاكسون أي خوف. ركع والسواطير تتهاوى عليه حتى الموت وهو يصلي لنجاة أعدائه. كاد هذا الفعل يفقد الجنرال ر رباطة جأشه فطلب من أتباعه أن يغرزوا سواطيرهم في جثة الرجل حتى يشترك الجميع بالإثم. فلماذا يظهر وجه الرجل فجأة أمامه الآن؟ يجب أن تموت، خاطب الوجه، ولكن الكلمات ارتجت عليه. تشبث بمكبر الصوت كي يثبت نفسه. وفجأة أدرك أن الجمهور قد كف عن الأناشيد وأنهم يراقبونه. هذا ما أثار الهلع في نفس الجنرال ر. خرجت الكلمات من فمه وبدا عليه كأنه يستجدي المغفرة ويدلي بشهادته أمام محكمة جماهيرية. انتصب أمامه جاكسون، المدعي، بوجهه الدامي. هل كان كل الناس يرون هذا الوجه أم أنه في ذهنه فقط؟ تساءل الجنرال ر من خلال هلعه. نظر مباشرة أمامه وخاطب الوجه الذي كان يسخر منه.

«أنت تسأل لماذا حاربنا، لماذا عشنا في الغابة مع الوحوش. أنت تسأل لماذا قتلنا وسفكنا الدماء».

«كان الإنسان الأبيض يركب السيارات. كان يعيش في بيت فسيح. كان يذهب أطفاله إلى المدرسة. ولكن من كان يحرث الأرض التي تنبت القهوة والشاي وحشيشة الحمى وليف السيزال؟ من كان يحفر الطرقات ويدفع الضرائب؟ لقد عاش الإنسان الأبيض فوق أرضنا. كان يأكل ما نزرع ونطهو. حتى فتات الموائد كان يلقيها لكلابه. ذلك هو السبب الذي ذهبنا من أجله إلى الغابة. كل من لم يكن معنا كان ضدنا. وذلك هو السبب الذي قتلنا من أجله إخوتنا السود. لأنهم كانوا بيضاً في سرائرهم. وإنني أدرك أن هذه الحرب لما تنته حتى الآن. حصلنا على استقلالنا اليوم. وغداً سوف نسأل: أين هي الأرض؟ أين الطعام؟ أين هي المدارس؟

فلنقم إذاً كل هذه الأشياء الآن، لأننا لا نريد حرباً أخرى... لا أريد سفك المزيد من الدماء بيدي... بأيدينا هذه...».

وجد الجنرال ر أن من الصعب عليه متابعة خطابه. تبدد منه القلق حين نظر في وجوه هؤلاء الناس. كان يعلم أنهم خلفه، وأنه في حديثه عن التغيير كان يتحدث باسمهم. اختفى الوجه الساخر للأب جاكسون. تابع الآن خطابه بصوت هادئ رزين.

«الآن لم تمض سنوات عديدة على ذلك اليوم الذي شنق فيه كيهيكا بحبل على إحدى الأشجار هنا. لقد جئنا كي نحيي ذكراه، ذكرى ذلك الإنسان الذي مات دفاعاً عن الحقيقة والعدالة. نحن، رفاقه، نحب أن نزيح الستار أمامكم جميعاً عن حقيقة موته حتى تأخذ العدالة مجراها. يقال، وأنا واثق أنكم جميعاً تعرفون القضية هذه، بأن كيهيكا قد اعتقل على يد قوات الأمن. ولكن هلا توقفتم وسألتم أنفسكم بضع أسئلة؟ هل اعتقل في معركة؟ لماذا كان بمفرده؟ لماذا لم يكن يحمل السلاح؟ أأنبئكم بالخبر اليقين؟ في تلك الليلة كان كيهيكا في طريقه لمقابلة إنسان ما - وهو الذي خانه».

توقف عن الكلام ليفسح المجال لكلماته أن تتغلغل في النفوس. تلفت الناس بعضهم إلى بعض وبدؤوا الهمهمة. كانت المسرحية أكثر إثارة حتى مما توقعوا.

- «تابع» صاح إنسان ما.

- «كلنا آذان مصغية» ارتفعت عدة أصوات معاً.

تابع الجنرال ر.

- «قد يكون الإنسان الذي غدر بكيهيكا موجوداً هنا الآن، بين صفوفكم. لذلك نطلب منه أن يتقدم إلى هذه المنصة ويدلي باعترافاته أمامنا جميعاً تكفيراً عن ذنبه».

تلفت الناس هنا وهناك ليروا ما إذا كان سيتقدم إنسان ما. انتظر

الجنرال ر مستمتعاً بالتوتر. ها هي المسرحية الآن تتجلى للعيان كما تصورها. وعلى الرغم من أنه كان يعرف المكان الذي يجلس فيه كارانجا فإنه لم يكن بوسعه أن يراه. كان الجنرال قد طلب من موارا والملازم الأول كوينياندو ألا تغيب أعينهما عنه.

- «يجب ألا يتصور أن بإمكانه الاختباء» تابع الجنرال ر، «لأننا نعرفه. كان صديق كيهيكا. وكانا يأكلان ويشربان معاً».

- «هيا وانطق اسمه» صاح غيثوا واقفاً.

بينما تعالت صيحات حادة بين زمرة من الناس متعطشين للثأر تقريباً.

- «إنني أمنحه الفرصة الأخيرة. فليتقدم كدليل على تكفيره عن ذنبه».

فجأة كفّ الناس عن الدمدمة والصراخ، جلسوا متوترين، والعيون كلها تلفتت في الاتجاه نفسه لرؤية الرجل الواقف. كان رجلاً طويلاً، مهيباً، بيد أن القريبين منه لاحظوا الاضطراب على وجهه. لم يكن قد تنبه إنسان لدخول ميوغو المسرح. كان يرتدي سترة قذرة وينتعل خفاً مصنوعاً من كاوتشوك شاحنة عتيقة. إنه ميوغو، همس أحدهم. انتشرت الهمسة وأصبحت أعلى صوتاً. صفق الناس. صاح الناس. ها قد جاء الناسك أخيراً كي يتكلم. نسي الناس المسرحية السابقة. زغردت النساء الزغاريد الخمس بصوت عال للابن المظفّر. غضب الجنرال ر من ميوغو لأنه أفسد ذروة المسرحية الأولى. هل يهرب كارانجا؟ لم يكشف الجنرال ر عن غضبه بل ترك مكبر الصوت مباشرة لميوغو. انتظر الناس أن يتحدث ميوغو.

«لقد سألتم عن يهوذا» بدأ حديثه. «سألتم عن الرجل الذي أودى بكيهيكا إلى هذه الشجرة هنا. ذلك الرجل يقف أمامكم الآن. لقد زارني كيهيكا ليلاً ووضع حياته بين يدي وأنا بعتها للإنسان الأبيض. وبقي هذا الأمر ينغّص لي عيشتي طيلة هذه السنوات».

كان في أثناء ذلك يتكلم بصوت واضح. متوقفاً عند نهاية كل جملة.

ولكنه حين أوشك على النهاية وهن صوته وخفت حتى وصل إلى مستوى الهمس. «الآن ها أنتم تعرفون».

حتى الآن لم يقل أحد شيئاً بعد. ولم يقل أحد شيئاً حتى بعد أن ابتعد عن المنصة. والناس دون أي تحرك ظاهري منهم أفسحوا له الطريق. أطرقوا برؤوسهم وتحاشوا النظر في عينيه. بكت وانجيكو. (لقد كان وجهه هو ما أبكاني وليست ذكرى ولدي - هكذا قالت لمومبي فيما بعد). فجأة نهض غيثوا من زاويته ولحق بميوغو. ضحك ورفع إحدى عكازيه مشيراً بها إلى ميوغو وصاح: «دجّال - ذئب في ثياب حمل». وشهّر بميوغو واصفاً إياه بأنه أفّاك وتحداه إلى النزال. «انظروا إليه، انظروا إليه - ذلك الإنسان الذي حسب بأنه سيكون زعيماً لنا».

وقهقه ضاحكاً. قهقهات غيثوا وصوته زادت من حدة الصمت المطبق الذي كان يخيم على السوق. ثابر الناس على الجلوس برؤوس منكسة لدقيقة أو ما يقاربها بعد مغادرة ميوغو وغيثوا. ثم وقفوا وبدؤوا يتحدثون وهم يبتعدون في اتجاهات شتى، وكأن الاجتماع انتهى باعتراف ميوغو.

خبا ضياء الشمس وطفقت الغيوم تتلبد في السماء. تخلف عن الانصراف نايامو، واروي، والجنرال ر وحفنة من الكبار الآخرين، لاستكمال طقوس القربان قبل هبوب العاصفة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

كـــارانجـــا

ولكن المطر لم يهطل بغزارة فيما بعد. كان رذاذاً متواصلاً لم يتغير في تسارعه أو في حجم قطراته. وبدا أن المنطقة برمتها ستعيش يوماً من أيام الرذاذ القارس الذي كان يهمي بلا انقطاع. في أمثال هذه الأيام لم تكن تشرق الشمس ولا تغرب بتاتاً. وتستعصي عليك معرفة الزمن إذا كنت بلا ساعة.

كان كارانجا في كوخ أمه في ثاباي يحشو بعض الثياب في حقيبته.

ألا تريد مني أن أحضر لك كأساً من الشاي؟ سألته أمه للمرة الثانية. كانت تجلس على كرسي قرب الموقد. كانت ظهرها محنياً ضعف انحنائه الطبيعي، متكئة إلى الأمام تسند ذقنها ويديها على ركبتها المطوية. لقد هرمت وايريمو وغارت عيناها ونتأ فكاها. كانت تراقب بعينيها الآن حركات ابنها الخرساء عند الباب.

- لا، قال كارانجا بعد برهة صمت كأن الكلام والحديث يؤلمانه.

- إن المطر يهطل في الخارج. فنجان من الشاي يدفئ أحشاءك - بما أنك تقول بأنك لم تمضي الليلة هنا.

- قلت لك من قبل بأنني لا أريد شاياً - ولا أي شيء آخر، قال وارتفع صوته بغضب واضح. كان الغضب الذي يوجهه كارانجا إلى وايريمو أقل من الغضب الذي يوجهه في الواقع إلى الحقيبة التي يحملها في يده. إلى الكوخ المطمور بالدخان، إلى الرذاذ في الخارج، إلى الحياة والأشياء بشكل عام.

- على رسلك! كنت أتحدث وحسب، قالت وايريمو بصوت مشحون بالتراجع. لم يكن فهم تلك العلاقة بين كارانجا وأمه من الأمور السهلة. كانت الزوجة الثالثة من بين الزوجات الأربع اللواتي اقتناهن والد كارانجا لإسرافه في دفع مهر العروس على شكل ماعز وقطعان. لقد تزوجهن، نعم، ومن ثم تركهن لشؤونهن الخاصة. لقد ابتنى لنفسه كوخاً يبعد ميلاً عن كوخ زوجاته، مراعياً البعد نفسه في العواطف والمعونة عن كل واحدة منهن ومن أولادهن. كان يزور كل زوجة بدورها ليغرس فيها طفلاً وينسحب إلى كوخه بعد ذلك. مات كل أبناء وايريمو أثناء الولادة إلا كارانجا الذي بقي منهم على قيد الحياة كدليل مادي وحيد على زيارات بعلها المفاجئة لمخدعها، كانت وايريمو تعقد الآمال الكبار على ابنها وتعول عليه بعد أن تبلغ مرحلة الشيخوخة. بيد أن كارانجا أبدى منذ نعومة أظفاره ميولاً لم تكن تنم عن الخصال السوية لابن مجد. كان يغني ويعزف الغيتار ويطارد النساء.

«يجب أن تكف عن اللعب بتلك الآلة» كانت تتذمر وايريمو، «يجب أن تقوم بعمل مفيد»؛ كثيراً ما كانت تقول له ذلك وهي تهدده بكسر الغيتار أو إحراقه. لطالما تشاجرا. ولكنها في تلك اللحظات النادرة التي كان يظهر فيها التآلف بين الابن والأم، كانت برفق تروي له إحدى القصص تبين له فيها مصير كل إنسان كسول. لقد كان كارانجا يتذكر أمه أكثر ما يتذكرها من خلال تلك القصص. وفي أوقات الكروب كان يتوق إلى أمه.

«ذات مرة من زمن بعيد» كانت تبدأ قصتها، «كانت هنالك امرأة فقيرة وليس لها إلا صبي واحد. أرادت أنجوكي - لأن ذلك الاسم كان اسمها - أن يتأكد ابنها أنهما فقيران وأن حصولهما على ما يتبلغان به من طعام لا يكون إلا بالعمل المضني. كان ابنها يستيقظ كل صباح ويلمع حذاءه ويكوي ثيابه بعناية ويمضي إلى أترابه في الحوانيت والشوارع. وكان يعود في الأمسيات بصحبة زمرة من الشباب والشابات ويطلب من أمه تقديم الطعام لهم. كانت أنجوكي امرأة سخية وتحب حضرة الشباب في بيتها، فكانت تقدم لهم الطعام وتروي لهم القصص. ولكن حزنها كان

يزداد يوماً بعد يوم لأن ابنها لم يكن يحمل مجرفة أو ساطوراً ويمضي بها إلى المزرعة. ولكنها كانت تخفي حزنها عن ابنها كي تتفادى إرباكه أثناء وجود الناس في البيت. كانت أنجوكي امرأة طيبة القلب وكان الناس دائماً يطرون كرمها وكدّها، مما كان يدخل البهجة على قلب الابن لأنه كان في الواقع فخوراً بأمه حتى إن الناس دعوه بابن أنجوكي.

في أحد الأيام عاد إلى البيت برفقة ثلاثة من أصدقائه المقربين من قرية بعيدة. لقد زارهم عدة مرات وكانوا دائماً يغرقونه بالطعام والشراب. وتحدث إليهم بدوره عن بيته ووعدهم مراراً بوليمة مماثلة إذا ردوا له الزيارة. ولذلك طلب من أمه أن تولم لهم. أشعلت أنجوكي ناراً زكية وفرشت ستاراً نظيفاً على الطاولة. وجلبت الصحون والملاعق بعد أن نظفتها. ثم عادت إلى المطبخ. كان ابنها في غاية المرح وتحدث لضيوفه عن أمه وطبخها. عادت أنجوكي من المطبخ بثلاثة صحون وكان على كل صحن حذاء لامع. ووضعت الصحون والأحذية فوق الطاولة.

«من المؤسف أنني لم أذهب اليوم إلى المزرعة» قالت، «لقد أمضيت اليوم بطوله ألمع هذه الأحذية وليس في بيتنا ما يؤكل سواها».

خجل ابنها ولم ينبس ببنت شفة. في صبيحة اليوم التالي تناول ساطوراً ومجرفة وبقي يعمل في المزرعة إلى أن غابت الشمس.

- «آه. أنا المقصود بتلك القصة» أجاب كارانجا، «حسناً سأذهب غداً معك إلى المزرعة».

أثناء حالة الطوارئ شجبت وايريمو انضمام ابنها إلى الحرس القومي وتسلّمه الرئاسة في القرية وأفضت له بذلك.

«لا تقف ضد الشعب يا بني. إن الإنسان الذي يتجاهل صوت شعبه لا بد من أن يصل إلى نهاية وخيمة».

ولكنها على الرغم من أنها كانت تخجل من ممارساته فقد تشبثت به لأن الصبي - كما كانت تقول - الذي يخرج من رحمك لا يمكن نبذه.

أنهى كارانجا حزم الأمتعة في الحقيبة. وبعدئذ، كفكرة لاحقة، التفت إلى أمه.

- أما زال غيتاري هنا؟

- فتّش عنه في تلك الكومة القائمة في الزاوية.

لقد أغفل كارانجا غيتاره إلى هذه اللحظة، وكفّ عن العزف عليه نهائياً أثناء حالة الطوارئ. نقّب ضمن كومة من الأواني المتكسرة والقرع إلى أن وجد الآلة في القعر. كان الخشب متصدعاً، مكسواً بالغبار والسخام وتفوح منه رائحة الدخان. كانت أوتاره قد استرخت وانقطع منها اثنان. حاول أن ينفض عنه طبقة الغبار والسخام، ثم تخلى عن هذه الفكرة. شد وتراً أو وترين من الأوتار المسترخية. عبث بالأوتار قليلاً. طنّت الآلة دمدمة صاخبة لأن الغبار كان يتساقط في الثقب. سار إلى الباب. كان لا يزال الرذاذ ينهمر خارج الكوخ.

- إلى أين أنت ماض تحت هذا المطر؟ سألت وايريمو. وقف كارانجا عند الباب كأن السؤال قد صدمه. استدار حول نفسه ببطء، لمعت عيناه الكئيبتان بشكل طفيف. كان صدره يعلو ويهبط. كاد أن يقول شيئاً ما حين دخلت عينيه نفثة من الدخان. سعل قليلاً وتنحى جانباً. التمعت الدموع في عينيه. لقد هربت منه اللحظة.

«لا أعلم» أجاب، «إنني عائد إلى غيثيما» أكمل بصوت حازم. خرج وكانت حقيبته وغيتاره يتدليان على ظهره. لم تتزحزح وايريمو من مجثمها قرب الموقد.

كان الرذاذ ينقر ويضرب الغيتار والحقيبة مما أفضى إلى سرعة تحلل الغبار والسخام وانسيابهما إلى الأسفل. سار باتجاه موقف الحافلة في المركز التجاري لثاباي، والضباب الداكن يلفه دون أن يلتفت يمنة أو يسرة. وصلت حافلة إلى الموقف، أنزلت ركاباً ثم انصرفت عائدة. مضى كارانجا بتلك الخطى الثابتة التي يخطوها إنسان ليس في عجلة من أمره لبلوغ غايته. رأى مومبي (لا بد من أنها قد نزلت من تلك الحافلة) تجتاز

الطريق باتجاه القرية، تحمي رأسها من المطر بمشمع واق. تسارعت دقات قلبه فجأة بما يشبه الشلل واستحالت إلى خفقان سريع لمرأى مومبي. ولما كانت تسير تحت رحمة الضباب والرذاذ فإنها بدت في ذلك الوقت جميلة أجمل منها في أي وقت مضى.

ولكن أنّى له أن ينسى ذلك الاهتمام العميق الذي ظهر على وجهها عندما انحنت فوق غيكونيو إثر سقوطه؟ هذا ما دفع بكارانجا للعودة إلى مهاوي الألم واليأس. ليتها رمقته بلمحة خاطفة، مهما كانت طفيفة، لكان له أمل ما، ولكنها بدت غير مدركة لوجوده بتاتاً.

كان قلب كارانجا لا يزال يخفق، لم تلمحه مومبي إلا بعد أن أصبحت قيد أنملة منه، فعقلت لسانها الدهشة وشهقت.

- كيف هي أحوال غيكونيو؟ بادرها بالسؤال دون أن يعيره اهتماماً كبيراً. خمّن بأنها قد ذهبت إلى المستشفى حين تغيبت عن حضور الاجتماع.

- إنه على ما يرام. قالت لي الممرضتان بأنه قد يغادر المستشفى قريباً.

- بحثت عنك في الاجتماع. أردت أن أراك. كان في نيتي شكرك على الرسالة.

- إنها ليست شيئاً ذا بال. لم تكلفني أيما جهد. ولكنك تجاهلتها على ما يبدو.

- ما كنت أعرف وقتها ما كان ينطوي عليه هذا التحذير. ظننت بأنك كنت تريدين رؤيتي.

- لا.

- أبداً؟

- لن أراك ثانية. تحادثا بسرعة تفاديا للرذاذ.

- شكراً لك على كل حال. قال بعد هنيهة: أكانوا يبغون قتلي؟

- لا أعلم.

– أنا أعلم. أخبرني موارا بذلك.

– ومن موارا هذا؟

– إنه يعمل معي. عندما جاء ميوغو إلى الاجتماع –.

– وهل جاء ميوغو إلى الاجتماع؟

– نعم. واعترف –.

– اعترف؟

– أفلم تسمعي؟ جاء إلى الاجتماع وأمامنا جميعاً نطق بها. يبدو عليه أنه رجل شجاع.

– أي نعم. وافقت وبدأت تبتعد عن كارانجا حين استفاقت من هول الصدمة. إن المطر غزير وعلي أن أنصرف إلى البيت – قالت.

– أفلا أستطيع... أفلا يمكنني أن أرى الطفل... لآخر مرة؟

– أفلا تستطيع أن تكون رجلاً وتخليني وشأني يا كارانجا؟ قالت بشكل مثير للمشاعر، ومضت حالاً. بقي كارانجا يتطلع إليها وهي تسير إلى أن ابتلعها الضباب وأكواخ القرية.

– أي نعم. إنه رجل شجاع قال وهو يتطلع في اتجاهها. بل إنه أنقذ حياتي: فما السبب؟

ثابر كارانجا في مسيره وتبلل رأسه وثيابه بالماء. وصلت حافلتان واحدة إثر أخرى. كانت الحافلة التي تحمل اسم «المنقذ الضيق» في المقدمة، وفي إثرها مباشرة حافلة «الإنسان المحظوظ».

– نيروبي؟ سأله الجابي وقد تناول منه الحقيبة.

– بل غيثيما! قال وهو يشد قبضته على حقيبته.

– إذاً هيا بسرعة، أسرع. وصفر الجابي حتى قبل أن يجد كارانجا مقعداً له وبدأت تتحرك حافلة «المنقذ الضيق». ثم أدركتها حافلة «الإنسان المحظوظ» وسبقتها. وطفقت الحافلتان تتسابقان لاقتناص الزبائن الواقفين في المواقف التالية.

«اضغط مدوسة البنزين ولتحترق الحافلة»، حض الجابي السائق على زيادة سرعته. كانت كلتا الحافلتين تبغيان الوصول إلى نيروبي كل منهما قبل رفيقتها بغية شحن الناس العائدين إلى بيوتهم من احتفالات الاستقلال في المدينة.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى وصلت الحافلة موقف غيثيما. غادرها كارانجا وتابعت الحافلة سيرها وقد تأخرت عن الحافلة المنافسة قرابة نصف ميل. دخل كارانجا إلى استراحة على جانب الطريق. كان المكن يغص بالناس تفادياً للمطر. أسند حقيبته وغيتاره إلى الجدار في إحدى الزوايا وجلس إلى طاولة شاغرة صغيرة. حين جاء النادل طلب منه كارانجا الشاي وفطيرة بمرق العجل. أسند رأسه بين يديه، مرفقاه على الطاولة، وحدق في الفراغ. كان الذباب يتكوم فوق صدوع الطاولة المليئة بالرواسب الثقيلة للسكر المسود والزيت وفتات اللحم والبطاطا النتنة. جاء الطعام ولكن رائحة المرق المسفوح أثارت في نفسه الإحساس بالحاجة للتقيؤ. دفعه جانباً، ثم ارتشف بعض الشاي، حدق ثانية في الطاولة دون أن ينتبه إلى الذباب أو الرواسب على الصدوع. عند الباب كان الناس يدمدمون عن الاستقلال وجومو والمطر. كان كارانجا يقلب في ذهنه حوادث النهار ظَهراً لبطن، متوقفاً تارة هنا وتارة هناك، عند أي خيط يفضي إلى نوع من الترابط المنطقي للأحداث.

تذكر بشكل سديمي ذلك الكابوس الذي خيم عليه في الاجتماع حين توجه الجنرال ر بندائه إلى الخائن كي يتقدم إلى المنصة. كان موارا يجلس إزاء كارانجا، كما كان الملازم الأول كويناندو يجلس على بعد ياردات قليلة منه. كان الاثنان يتبادلان النظرات المريبة فيما بينهما ويوجهانها فيما بعد نحو كارانجا. ولم يتيقن بأن كلمات الجنرال ر موجهة إليه إلا حينها فقط. وسرعان ما ربط بينها وبين تحذير مومبي له. لو سار إلى المنصة لمزقه الناس بأظافرهم شر ممزق. طافت في ذهنه صورة عابرة لكل تلك الأيدي وهي تعمل تمزيقاً بلحمه. أفلم يكن هذا ما كان يخشاه حينما

ارتحل ثومبسون عن البلاد؟ كان مذعوراً من السلطة السوداء: كان يخاف أولئك الرجال الذين طردوا آل ثومبسون وكانوا يهددونه. فكر في الوقوف والإفضاء بإنكاره العلني لأية مسؤولية له في اعتقال كيهيكا، بيد أن الهلع سمّره في الأرض. وظهر ذلك الرجل، ميوغو، الذي أزاح باعترافه العبء عن كاهل كارانجا. التفت موارا إلى كارانجا بعينين طافحتين بالحسد. «لقد أنقذك» قال موارا ومضى بعيداً على جناح السرعة.

حين فكر كارانجا بهذا أصابته رعدة لا إرادية لفكرة ما كان من المحتمل أن يتعرض له لولا وصول ميوغو في الوقت المناسب. شاهد كارانجا ذات مرة، حين كان صبياً، كلاباً تمزق أرنباً. لقد مزقت الكلاب أطرافه وهرول كل كلب بقطعة تقطر منها الدماء. والآن تخيل كارانجا نفسه مثل ذلك الأرنب. ولكن لماذا أخشى الموت، سأل نفسه، وهو يتذكر العديد من الرجال «الإرهابيين» الذين ساهم بمصرعهم برفقة أفراد الحرس القومي بقيادة الضباط البيض؟ وقتها، بشكل ما، لم يكن يشعر بالإثم. وحين كان يطلق الرصاص عليهم كانوا يبدون كالحيوانات أكثر مما يبدون مثل الكائنات البشرية. كانت هذه الممارسة في البداية لا تثير فيه أكثر من رعشة ولكنها كانت تجعله يشعر بأنه إنسان جديد، قسم من جبروت غير منظور يتمثل رمزه بالإنسان الأبيض. وبدأ بعد ذلك إدراكه لهذه السلطة، لهذه المقدرة على التخلص من حياة كائن بشري بمجرد شدّ الزناد، يستحوذ عليه حتى صار ضرورة بالنسبة إليه. ها قد مضت تلك السلطة الآن، ومومبي نبذته في خاتمة المطاف. فلأي سبب إذاً أنقذ ميوغو كارانجا؟ رشف رشفة أخرى من الشاي. لقد أصبح الشاي بارداً فنحّاه جانباً. كانت الحياة فارغة فراغ الظلمة وفراغ الضباب اللذين يغلفان الأرض. فدفع ثمن الوجبة التي لم يأكلها وتناول حقيبته وغيتاره ومشى باتجاه الباب.

«يا صاح» ناداه النادل، «خذ، لقد نسيت بقية الحساب».

استدار كارانجا، أخذ النقود ودون أن يعدها غادر الاستراحة. حتى إنها لم تسمح لي برؤية الطفل، فكر بأسى، وهو يتخذ طريقه إلى غيثيما.

لماذا أريد أن أرى الطفل هذا اليوم؟ لم تخالجه مثل هذه الرغبة من قبل. اندفعت سيارة قربه وكادت تدهسه. تنحى جانباً ولكنه اقترب أكثر من ذي قبل من الجرف وكاد يلامس السياج الشائك على غير دراية منه. ها قد مضى ثومبسون، ها قد فقدت مومبي. كان فكره يقفز من فكرة إلى أخرى دون أي ترابط منطقي. كانت الأحداث في حياته تقفز فجأة ثم تختفي. ماذا لو كان كيهيكا حياً وظهر أمامه الآن على الطريق؟ أجفل كارانجا وأصابه الهلع من السياج ومن الظلمة.

تضاءلت قطرات المطر واستحالت إلى رذاذ خفيف متقطع. تبللت ثيابه والتصقت بجسده بشكل ثقيل. لقد مضى لرؤية كيهيكا مترجحاً على إحدى الأشجار. فتش في قلبه عن الشفقة أو الأسى الذي يشعر به الإنسان حين يفقد صديقاً. لم يجد، بدلاً من ذلك، إلا القرف: كان الجسد شنيعاً، كما كانت الشفتان اليابستان، حيث كانت تتراقص حولهما بضع ذبابات، قبيحتين. ما هي الحرية؟ كان كارانجا قد سأل نفسه وقتها. هل الموت بتلك الطريقة يعني الحرية؟ هل الذهاب إلى المعتقل يعني الحرية؟ هل أي ابتعاد عن مومبي يعني الحرية؟ وسرعان ما باح بالسر بعد هذا وانضم إلى الحرس القومي بغية إنقاذ حياته الخاصة، أول مهمة نفذها كانت ارتداء البرنس. البرنس - وهو بمثابة كيس أبيض - كان يغطي كل جسده باستثناء العينين. وخلال عمليات التفتيش كان الناس يمرون في أرتال أمام الإنسان المتجلبب بالبرنس. كان مثل هذا الإنسان، بهزة من رأسه، ينتقي أولئك الناس المتورطين مع الماو ماو.

إنها الذات المتسربلة بالبرنس هي ما كان يراها كارانجا أمامه الآن، بشكل نابض بالحياة، من خلال الظلمة. كان بوسعه تقريباً أن يمس الثقبين اللذين كان الإنسان داخل البرنس يرى العالم من خلالهما. ليس هذا إلا صورة في الذهن، طمأن نفسه. كان الآن على مقربة من مفترق سكة الحديد. سمع قطاراً يدمدم من بعيد. تذكر السباق إلى القطار. اقتربت الدمدمة وازدادت جلبتها. ذات يوم جُمع الناس من القرى في

محطة رونجي لإجراء عملية التفتيش. مروا أمامه واحداً واحداً، وتعرف كارانجا – وهو داخل البرنس – عبر العديد من الناس واستمتع بفكرة عدم تمكن أي فرد بينهم من معرفته. زحل المشهد فجأة إلى اجتماع عصر ذلك اليوم. «يبدو إنه إنسان لا يخلو من الشجاعة» فكر بينه وبين نفسه. وهي وافقت على هذا أيضاً. برزت أمامه صورة ميوغو على المنصة – كالشبح – واختلطت بصورة المتسربل بالبرنس. وقف كارانجا قرب المفرق، متفكراً بالعيون العديدة التي كانت تحدق بميوغو في الاجتماع. أصبح القطار الآن قريباً جداً حتى إنه سمع صريف العجلات على القضبان الحديدية. شعر بذلك الصريف في لحمه، شعور مماثل خالجه ذات مرة في محطة رونجي من زمن بعيد. أصبح الآن مدركاً أيضاً للعيون العديدة الغاضبة وهي تراقبه في الظلمة. كان القطار على بعد ياردات قليلة من المفرق. خطا خطوة إلى الأمام. عَسْعَسَتْ عبره الأنوارُ وباتت الآلة والعربات في غاية القرب منه بحيث إنّ هواءها قذفه إلى الخلف. مادت الأرض تحت قدميه. وحين اختفى القطار، تعمق الصمت المطبق الذي كان حوله. وبدا الليل مدلهماً أكثر مما مضى.

* * *

ميــوغــو

كانت مومبي تريد أن تركض وتمشي وتسلم جسمها للرذاذ - كله في وقت واحد. فهرولت وهي تلهث تحت وطأة عبء ما كان لها سبيل لإزاحته عنها. إن نبأ اعتراف ميوغو كان له عليها وقع الخاتمة لعصر يوم مثقل بالأحداث. ففي مستشفى تيمورو لم ينبس غيكونيو ببنت شفه ولم يعر وجودها اهتماماً. «يعتقد بأنني أتملق إليه كي يرجعني» قالت لنفسها بمرارة وهي تراه يطبق جفنيه ويشيح بوجهه بعيداً عنها متظاهراً بالنوم لدى وصولها. «ولكنني لست عائدة إلى بيته حتى لو ركع أمامي»، عقدت عزمها على ذلك. وحين وصلت مومبي مبتلة إلى البيت وجدت ميوغوا ووانجيكو ناعسْين صامتين قرب الموقد، وأما الطفل فقد كان نائماً على أرض الكوخ. كان الدفء في داخل الكوخ نقيضاً بهيجاً للوحل والضباب والرذاذ في خارجه. استبدلت مومبي ثيابها المبللة دون أن تقول كلمة. ساقاها بالكاد تقويان على حملها.

- كيف حاله؟ بادرتها وانجيكو بعد أن جلست.

- «لن أعوده ثانية»، انفجرت بلهجة شملت أمها وأباها وكل الأشياء الأخرى التي كانت تعترض سبيلها دائماً في بحثها عن الطمأنينة بين الركام والأنقاض. «حتى لو سمعت بأنه على فراش الموت».

- «تطرقي إلى هذه الأمور برفق» عنّفتها وانجيكو بكلماتها هذه التي كانت تقارب حد السخرية. «أمثال هذه الكلمات لا تقال في هذا البيت. ويجب أن تتذكري بأنه سيبقى زوجاً لك ما دام لم يسترجع مهره».

- لن يكون زوجاً لي مطلقاً.

- صه!

وتدريجياً خفّفت وانجيكو من غلوائها إلى أن وافقت مومبي على العناية بغيكونيو ما دام نزيل المستشفى.

«إن الإنسان المريض لا يُترك وحيداً في المستشفى. حتى الخصم يجب إنقاذه من الخطر. وبالإضافة إلى ذلك ليس عليك أن تذهبي بمفردك إلى تيمورو. فهناك وانغري، امرأة ليس لها نظير في الدنيا، في كدها ورقة قلبها».

شعرت مومبي بحاجة الآخرين إليها مرة أخرى. فأصغت إلى وانجيكو التي حدثتها عن ميوغو وعن الاجتماع بالتفصيل. استمر ميوغوا في تنكيس رأسه من شدة النعاس قرب النار، وقد أصبح هرماً لا يتكلم في هذه الأيام إلا حين يعود كاريوكي إلى البيت في عطلاته المدرسية. سمعت مومبي القصة بأكملها وشعرت بأن عليها أن تفعل شيئاً ما. وماذا بوسعي أن أفعل؟ واجهت شعورها بهذا السؤال الذي كانت تعلم أنْ ليس بمقدور أحد إجابتها عليه. جعلتها النار تشعر بوطأة النعاس. كانت منهكة من التعب وتوصل الإنهاك إلى أطرافها. إلى كتفيها، إلى رأسها وقلبها. يدس نفسه في كل مفصل من مفاصلها. كم تاقت أن تتلطى خلف أمها العجوز وتشعر ببعض العزاء. ماذا بوسعي أن أفعل، تساءلت ثانية. أصغت إلى الضجة المخنوقة للمطر المتساقط فوق سقيفة القش وأسلمت نفسها لذلك الإرهاق الذي خيم عليها وكأنما ليعفيها من حاجة التصرف العاجل. بقيت مومبي في مقعدها سلبية في روحها وجسدها حيال كارثة وشيكة أحست بها بعينيها وأذنيها. «سأرى ميوغو غداً. لقد كان موجوداً أيضاً ولذلك فإنه يعرف». أغرت نفسها أن تندس في الفراش على أرض الكوخ قرب طفلها. «الظلمة حالكة والمطر غزير».

نهضت مومبي ووانغري باكراً وذهبتا معاً إلى المستشفى. استوى غيكونيو في جلسته بسريره. كانت ذراعه ملتفة بالجبس.

أخبرتاه بما دار في الاجتماع وعن الاعتراف المذهل الذي أدلى به ميوغو. أصغى للقصة مطرق الرأس بعض الشيء.

لاحظت وانغري وومبي أن غيكونيو بدأ يرتجف بشدة حتى إن الأغطية التي كان يتدثر بها طفقت تهتز لاهتزازه.

ما خطبك؟ سألته أمه وهي تظن بأنه يرتجف من شدة الألم في ذراعه. لم يبد على غيكونيو أنه سمع سؤال أمه. كان شاخصاً ببصره إلى الجدار المقابل، إلى شيء يقع خارج حدود المستشفى. وبعد صمت طويل التفت غيكونيو إلى المرأتين. كان أكثر هدوءاً. لقد تبدلت ملامح وجهه الصارمة وانفرجت أساريره قليلاً. لقد ولى العبوس. وحين استهل الكلام كان صوته خافتاً خاشعاً مشوباً ببعض الخجل. «لقد كان رجلاً شجاعاً في سريرته» قال، «لقد صمد في وجه ما أغدق عليه من مغريات الشرف والثناء. كان من الممكن أن يكون زعيماً. دلّاني على إنسان غيره يكشف عن مكنونات نفسه أمام جميع العيون كي تتوجه إليه بالتقريع؟». صمت وسمح لعينيه أن تدغدغا مومبي، ثم أشاح ببصره بعيداً وقال: «يجب أن تتذكرا أن من كان يحق لهم أن يرفعوا حجراً على ذلك الرجل ليسوا إلا قلة قليلة بين أولئك الحضور كافة. وليس بإمكانهم أن يفعلوا ذلك قبل أن أفتح أنا، بل نفتح جميعاً مغاليق قلوبنا وتنكشف عارية أمام الدنيا بأسرها كي ننظر فيها».

حين سمعته مومبي يتحدث بهذا الشكل شعرت بأنها تجنح فوق الغيوم ومن ثم تنشدّ عائدة إلى الأرض بذعر شديد. «كان علي أن أذهب إليه قبل مجيئي إلى هنا» خطرت لها هذه الخاطرة.

حالما عادت مومبي إلى ثاباي اندفعت إلى كوخ ميوغو وفتحت الباب على مصراعيه. وجدت كل شيء على حاله كما تركته في تلك الليلة. كان من الواضح أن النار لم توقد في الكوخ منذ يوم أو يومين. كان السرير بحالة فوضى يتدلى منه على الأرض دثاره المهترئ وتنتأ منه خصل الهلْب. أغلقت مومبي الباب خلفها وهرعت تطلب الجنرال ر في كوخه. وجدت الكوخ مقفلاً. «حسناً سأعود غداً».

عادت مساءً ولما لم تجد أي أثر للنور في كوخ ميوغو، بدأت تتلمس طريقها وسط الظلمة ونادت مذعورة بأعلى صوتها «ميوغو». ليس من جواب، أين مضى، أين مضى الناس كلهم؟ تلفتت حولها متراجعة صوب الباب. لم تكن تبغي أكثر من دليل واحد، أي دليل يكذب لها الأجوبة التي كانت تتصارع في سريرتها - كأصداء لا تعد ولا تحصى ترجّع كلماتها ومخاوفها وسط الظلمة. فتحت الباب، دب في كيانها الذعر أكثر من ذي قبل، وطفقت تعدو تلك المسافة بطولها، تحت الرذاذ وفي الدروب الزلقة، إلى بيت ذويها.

على الرغم من أن مومبي لم تكن مدركة للحقيقة، فإنها قد أعادت تمثيل الحركة نفسها كما مثلتها في تلك الليلة التي تركت فيها ميوغو في كوخه بمفرده. الفارق الوحيد كان وجود النور وقتها في الكوخ مما أتاح لميوغو أن يرى على وجهها ما ترجمه بأنه احتقار ورعب. بقي واقفاً لمدة طويلة يحملق في المقعد الذي تركته لتوها. فيما بعد أغلق الباب، أطفأ النور واتجه إلى سريره. استلقى على السرير مدركاً بأنه قد فقد شيئاً ما. ولمع من خلال الظلام، مرات عديدة، ذلك الاحتقار الذي كان على وجه مومبي، وسرت في كيانه رعدة ما كان لكبتها سبيل لديه. فلماذا كان ما تتصوره مومبي عنه مهماً بالنسبة إليه الآن، هذه الليلة؟ لقد كانت قيد أنملة منه. لقد تمكن من رؤية وجهها والشعور بنَفَسِها الحار. لقد جلست هناك وتحدثت إليه وأعطته لمحة عن عالم جديد. لقد محضته الثقة واطمأنت إليه. هذه الثقة البسيطة هي ما أجبره على الإفصاح لها بالحقيقة. لقد انكفأت عنه. لقد فقد ثقتها إلى الأبد. بالنسبة لها الآن، كما حاكم ورأى وشعر، أصبح يمثل الخسة والحقارة بعينهما.

وفجأة سمع أهالي القرية حول كوخه يهزجون أهازيج الاستقلال. كانت كل كلمة مديح تحمل إليه سخرية نافذة. فما الذي فعله من أجل القرية؟ ما الذي فعله لأي مخلوق؟ ومع ذلك فإنه بدأ الآن يرى هذه الثقة التي لا يستحقها في ضوء جديد وكأنها أحلى ما في الوجود. «ستخبرهم

مومبي»، تَصوّر في نفسه. وبدأ يشاهد الاحتقار والرعب، ليس على وجه مومبي فحسب، بل على وجه كل إنسان في القرية. هذه الصورة النابضة بالحياة في ذهنه جعلته يضطرب ذعراً.

ما غمض له جفن تلك الليلة. كانت صورة مومبي تختلط بصورة القرية وصور معسكرات الاعتقال. كان يحدق بصورة مومبي وسرعان ما تستحيل إلى صورة عمته أو صورة المرأة العجوز.

استيقظ باكراً وشعر بطمأنينة عجيبة. خيمت عليه السكينة طيلة الصباح. لقد تبددت تلك الصور المعذبة لليلة السابقة فأصيب لغيابها بالذهول. فكيف تجد السكينة لنفسه سبيلاً في الوقت الذي كان يعلم فيه ما هو مقدم عليه؟

ومع ذلك فحين حانت اللحظة ورأى الحشد الكبير بددت له الشكوك كل تلك السكينة. وجد الجنرال ر يقف خطيباً وهذا ما ذكره بكارانجا. لماذا لا أترك كارانجا يلقى الملامة؟ ولكنه استبعد هذا الإغراء واعتلى المنصة. وإلا فكيف يستطيع أن ينظر في وجه مومبي بعد اليوم؟ بدأ قلبه يخفق في أحشائه، شعر بالعرق يتصبب من يديه وهو يسير ضمن ذلك الجمهور الكبير. ارتعشت يداه وما كانت ساقاه ثابتتين على الأرض. كان كل شيء في ذهنه واضحاً وحاسماً. لسوف يقف هناك ويعترف بالجريمة أمام الملأ. تشبث بهذه الرؤيا. لا شيء، حتى الهتافات والأهازيج والمدائح. يمكن أن يثنيه عن عزمه في تحقيق هذا الهدف. لقد كان وضوح هذه الرؤيا هو ما بث فيه الشجاعة حين وقف أمام مكبر الصوت وأمام ذلك الصمت المطبق. وحالما صدرت منه أولى الكلمات شعر ميوغو بالخفة. ها قد انزاح عن منكبيه عبء سنوات عديدة. لقد أصبح حراً واثقاً مطمئناً.

ولكن لمدة دقيقة ليس إلا.

ما إن أنهى كلامه حتى تحول الصمت الذي حوله والخفة التي بداخله والحرية المفاجئة، إلى عبء ثقيل على نفسه. تشوشت تخوم رؤياه،

وسيطر عليه الهلع حين نزل عن المنصة وسار بين صفوف الناس الذين ران عليهم الصمت الآن. لقد كان في أتم الإدراك لنفسه، لكل خطوة خطاها، لكل تلك الصور التي اندفعت إلى ذهنه وبدأت تتلاطم فيه على شكل نسق واحد متواصل: ها قد أصبح مسؤولاً عن كل ما فعله في الماضي، وعن كل ما سيفعله في المستقبل. هذا الإدراك بث الذعر في نفسه. لا شيء الآن، وفي هذه الدقيقة، يجعله يعود إلى ذلك المكان. ماذا لو قام كل أولئك الناس وغرزوا أظافرهم وأسنانهم في جسده؟

تحولت هذه الخاطرة في ذهنه إلى حقيقة. لم يدخل كوخه. سمع ضحكة غيثوا وشعر بأنه مطارد. ما كان يريد أن يموت. أراد أن يعيش. جعلته مومبي مدركاً لخسارة كانت مجرد احتمال أيضاً. لطى خارج كوخه واختلس النظر فيما حوله: إلى القرية، إلى مركز كابوي التجاري وإلى الطريق الذي يمتد خلفه. هل سيقوم الناس ويأتون إليه؟ لاحظ أن الغيوم بدأت تتلبد في السماء. ربما عليه أن يهرب من القرية قبل هطول المطر، بدأ السير باتجاه الطريق. سار ياردات قليلة وتصور بأنه قد يقابل بعض الناس القادمين من رونجي. سيسلك الطريق الآخر، عبر القرية، ويصل إلى الشارع الآخر الذي يسير في اتجاه نيروبي. وهناك سيبدأ حياة جديدة.

بعد أن صمم على هذا هرع إلى شارع القرية الرئيس الذي كان يسلكه دائماً في طريقه إلى المزرعة. ولكن ها قد بدأ الناس يتقاطرون إلى القرية بعد أن انفض الاجتماع. سرعان ما سوف تعج الشوارع والأكواخ بالناس ولن يتسنى له بعدها الخروج. عجّل في خطاه. واجه الآن كوخ المرأة العجوز. بدأ يتحرق رغبة لدخول الكوخ وشعر برغبة لا تقاوم لدخوله ورؤية العجوز الآن لآخر مرة. ولكنه قرر أن يمضي قبل هطول المطر وحلول الظلام.

داهمته قطرات المطر الأولى قبل أن يتحرك بضع خطوات. من الأفضل له أن يحاول اتقاء المطر، فكّر. إذا كانت العجوز في الكوخ أفلا

تستطيع أن تخفيه بشكل ما، حتى ساعة حلول الظلام حيث يتمكن وقتها من التسلل خفية؟ قلص خطواته، عبر الشارع، وكبت نداء قوياً كان يحضه على الابتعاد مباشرة ودخل الكوخ. كانت العجوز تجلس قرب الموقد الخامد وقد دفنت قدميها في الرماد. رفعت رأسها ببطء لدى دخوله. كان لعينيها في الكوخ المعتم قليلاً بريق عجيب.

- أنت - ها قد عدت! قالت وقد تغضّن وجهها بابتسامة نصف جامدة بفعل شيء ليس من هذه الدنيا.

- نعم، قال وجسده يتحرق شوقاً للهرب لكنه كبت هذه الرغبة أيضاً.

- «كنت أعلم بأنك ستعود، كنت أعلم بأنك ستعود كي تأخذني إلى البيت». كانت تبدو مهيبة في غبطتها. حاولت النهوض ولكنها عاودت الجلوس مترنحة في مقعدها. قامت ببطء مرة ثانية.

«بقيت أنتظرك طيلة هذه السنين - عرفت بأنهم لم يقتلوك بالفعل - هؤلاء الناس، أتعلم بأنهم لم يصدقوني حين أخبرتهم، وحين أخبرهم بأنني رأيتك؟»

سارت صوبه. ولكن ميوغو لم يكن مصغياً لجمجمتها الوحشية لأن وجهها سرعان ما تبدل فجأة. حدق ميوغو مباشرة في عيني عمته. هزّه غضب جديد. ليست الحياة إلا تكراراً متواصلاً لما حدث البارحة وما قبل البارحة. ولكنها لن تفلت منه هذه المرة. لسوف يضع حدّاً لتلك الابتسامة الماكرة وذلك البريق الساخر في عينيها. ولكنه قبل أن يستطيع حراكاً تعثرت العجوز وعادت إلى مقعدها. كانت الابتسامة لا تزال مرسومة على وجهها. لم تتحرك ولم تقدم على أية حركة طفيفة. وأدرك فجأة: الشخص الوحيد الذي كان مديناً له ها قد مات. طمر وجهه بيديه ووقف هكذا لبضع ثوان.

بعدئذ أغلق الباب خلفه وانصرف تحت الرذاذ المنهمر. لم يكمل طريقه كما خطط من قبل، بل بدلاً من ذلك مشى عائداً إلى كوخه. في الكوخ أشعل السراج وجلس على السرير. لم ينزع ثيابه المبللة. حدق في

الجدار قبالته. لم يكن أي شيء على الجدران: لا أطياف دماء، لا خطوات مسرعة خلفه، لا معسكرات اعتقال، حتى مومبي بدت كشيء غامض من عهد سحيق. كان بين الفينة والأخرى يربت على إطار السرير بشيء من الغضب. كان الماء يتقطر من شعره نزولاً على وجهه وعنقه بخطوط متعرجة. تقطر الماء من سترته، أيضاً بخطوط متعرجة، نزولاً على ساقيه وعلى الأرض. علقت قطرة في جفنه الأيمن وتوزع نور السراج إلى أجفان عديدة صغيرة. غاصت القطرة بعد ذلك في أعماق عينه، ذابت في داخلها وانسفحت كالدمعة على وجهه.

لم يمسح عينه ولم يفعل أي شيء آخر.

سمع قرعة على الباب. لم يجب.

انفتح الكوخ ودخل الجنرال ر يتبعه الملازم الأول كويناندو.

«إنني على أهبة الاستعداد» قال ميوغو ووقف دون أن يتلفت إلى زائريه.

«ستعقد المحاكمة هذه الليلة» قال الجنرال ر بوقار. «وامبوي سيكون القاضي. كويناندو وأنا سنكون الكبيرين الوحيدين اللذين سوف يسمعان أقوالك».

«أفعالك وحدها سوف تدينك» أكمل الجنرال ر دونما غضب أو مرارة واضحة. «أنت – ليس بوسع أي إنسان أن يهرب من أفعاله البتة».

اقتاده الجنرال ر وكويناندو وخرجا به من الكوخ.

واروي، وامبوي

طَمَحَ واروي ببصره خارج الكوخ متحاشياً ذلك الفراغ الكئيب في عيني وامبوي.

«ما زال هذا الرذاذ ينهمر منذ يومين»، علق قائلاً وقد حثه على قول شيء ما ذلك القلق الذي كان يخيم على كوخ وامبوي. جلس لاطياً قرب الباب وقد طمر يديه وقدميه تحت الدثار. وأما الأقسام الوحيدة العارية من جسده فقد كانت تلك الرقبة التي طرقتها التجاعيد وذلك الرأس الأشيب. كانت وامبوي تجثم قبالته، تتلفت عيناها الفارغتان إلى واروي بين لحظة وأخرى، ومن ثم تسرحان نحو الضباب والمطر خارج الكوخ.

«يمكن أن يدوم مثل هذا الرذاذ أياماً عديدة»، قال بصوت كئيب. وغرق كلاهما يتأملان بصمت صورة الأطفال المحرومين الذين فقدت الحياة بالنسبة إليهم حرارتها ولونها وإثارتها. لم يكن ثمة نار في الموقد. مزق من قشور البطاطا وقشور الذرة والحشيش كانت تتبعثر بإهمال فوق أرض الكوخ وكأن الكوخ قد هجر لمدة يوم أو يومين. في ظل ظروف مغايرة كان هذا الوضع يذهل واروي أو أي زائر آخر لأن كوخ وامبوي كان واحداً من أكثر أكواخ القرية ترتيباً. لقد كانت تكنس أرضه مرتين يومياً على الأقل، كما كانت تنظف الأواني المنزلية التي كان لكل آنية منها مكانها المحدد في الرفوف المختلفة المبنية في الجدران. وأما بالنسبة للجدران الطينية فقد كانت مطلية بالمغرّة (أوكسيد الحديد) البيضاء التي جلبتها من ويرو، وكثيراً ما كانت تتفحص الصدوع كي تملأها في الحال

وتعيد تجبير المناطق المهترئة. «ليس للإنسان أي مكان آخر إلا حيث يريح رأسه» هذا كان ردها الغامض على الإطراءات العديدة التي كانت تنهال على حسن ترتيبيها. لم يكن واروي قد شاهدها منذ يوم القربان العظيم؛ فطيلة اليومين الأخيرين اعتزل الناس في ثاباي بعضهم بعضاً وتجنبوا، بموافقة ضمنية عامة، المناقشات العلنية حول يوم الاستقلال. كانت هنالك أمور تحيرّ واروي، أسئلة كان يبحث لها عن إجابات في سريرته. وحينما أخفق في ذلك جاء لزيارة وامبوي. ومع ذلك فإنهما يتحادثان الآن كأنهما لا يعرفان عما يتحدث الآخرون ويشعران بالخجل من بعض الموضوعات في حضرة كل منهما.

- «ربما هذا البرد هو الذي قتلها» حاول ثانية.

- من؟

- العجوز.

- «أي نعم»! أجابت بشكل لا علاقة له بالأمر وتنهدت. «نسيناها جميعاً في ذلك اليوم. ما كان يجب أن نتركها وحيدة. كانت عجوزاً. قتلتها الوحدة».

- لماذا ماتت في ذلك اليوم، أسأل نفسي دائماً. كانت تعيش بمفردها أليس كذلك؟

- «حينها كانت الحياة تضج حولها. الدخان وصخب الأطفال. ولكن في ذلك اليوم. كلنا ذهبنا إلى الاجتماع، كلنا بلا استثناء. لم يكن ثمة دخان في أي مكان، كما لم يكن هنالك تضاحك الأطفال وصخبهم في الشوارع. كانت القرية خالية من الناس». تحدثت وكأنها تحبك قضية جدلية.

- ولكن لم في ذلك اليوم؟ أصر واروي على شكوكه، وبدا أنه هو أيضاً منهمك في قضية جدلية في سريرة نفسه.

- «كانت تعيش العزلة، ألا تسمع؟ جاء ابنها إليها. غيتوغو كان من أخذها إلى البيت في ذلك اليوم»، اختتمت حديثها بحنق متوتر.

- «نعم. بدأت الأشياء تتغير في قريتنا منذ ذلك اليوم الذي بدأت ترى فيه أطياف الموتى».

نظرت إليه وامبوي ولكنها لم تقل شيئاً هذه المرة.

«وفي ذلك اليوم»، تابع واروي، «يا لذلك اليوم! أولاً غيكونيو كسر ذراعه». توقف فجأة والتفت إلى وامبوي. كانت تتطلع إلى الرذاذ في الخارج، دون أن تعير اهتماماً لكلماته، للتساؤلات التي في قلبه. وعندما نظر في الاتجاه نفسه رأى مومبي تبرز فجأة من قلب الضباب على بعد ياردات قليلة من الباب. دخلت مومبي الكوخ وقد تبللت قدماها بالماء وتلطختا بالوحل. كان الماء يتقطر من الكيس الذي كانت تغطي به رأسها وظهرها. خلعت الكيس ونفضته قليلاً قبل أن تعلقه على أحد الرفوف. قدمت لها وامبوي مقعداً عند الباب.

«الطقس بارد» قالت مومبي وهي تستجمع شتات نفسها، وتهمس وهي تستنشق الهواء من خلال أسنانها المطبقة. «لست محظوظة اليوم. إن أمي توقد النار الآن في البيت، لذلك هربت إلى هذا المكان لأنني أعرف أن النار دائماً مشبوبة هنا. انظروا ماذا وجدت».

- هل ذهبت اليوم إلى المستشفى؟ سألت وامبوي.

- نعم. كنت هناك مع حماتي. إنني أذهب كل يوم إلى هناك.

- كيف حال الذراع؟

- إنها ليست مكسورة. مجرد خلع. قريباً سيخرج غيكونيو.

«لا بد من أن أمراً ما جرى خطأ...» بدأ واروي ثانية، متتبّعاً أفكاره الخاصة على مهل. «لقد مضى كل الناس. قبل دقيقة واحدة كان الملعب يعج بالناس، كما في أيام هاري، في المسيرة. ثم بطرفة عين انصرف الجميع، وأصبح الملعب خالياً تماماً. لم يبق فيه إلا أربعة (أم هل كنا خمسة؟). ذبحنا الخروفين - وصلينا من أجل قريتنا. ولكنه كان كمذاق الماء الساخن في فم إنسان عطشان. لم يكن كما كنت أنتظر طيلة هذه السنوات».

- «أنت تقول ذلك، وكان الشيء نفسه بالنسبة لي، بالنسبة لأي إنسان. لم يخامرني الشك لحظة واحدة بأنه هو... بأن ميوغو هو من فعل ذلك». وبجهد كبير نطقت وامبوي بالاسم الوحيد الذي كانت تتحاشاه مع واروي. لم تقل مومبي شيئاً، لهنيهة.

- «لم يلمحه إنسان منذ ذلك اليوم» أجاب واروي وكأن مومبي قد توجهت بسؤال ما.

- «ربما أزلج باب الكوخ على نفسه» قالت وامبوي.

- «لقد ذهبت إلى هناك في الليلة الماضية. لم يكن الباب مقفلاً أو مزلجاً من الداخل. ولم أجد أحداً في الكوخ».

- لربما غادر القرية، علق واروي.

- أو لربما كان في المرحاض حين دخلت الكوخ.

- ولكنني عدت إلى الكوخ هذا الصباح قبل ذهابي إلى المستشفى.

ريح خفيفة أمطرت وجوههم بوابل من الرذاذ. مسحت وامبوي وجهها بظاهر يدها. نكس واروي رأسه ومسح وجهه بالدثار، بينما مالت مومبي إلى الخلف كأنها تنوي تحريك مقعدها ولكنها لم تفعل شيئاً. حافظ الجميع على جلستهم قرب الباب.

«ربما كان بمقدوري إنقاذه. ربما كان ذلك بمقدوري لو أنني ذهبت إلى كوخه تلك الليلة» ندبت مومبي.

- عم تتحدثين؟ سألت وامبوي بشكل عاجل وأشاحت ببصرها بعيداً عن مومبي.

- عن ميوغو.

- «لم يكن ثمة شيء يمكنه إنقاذه». قالت وامبوي ببطء. «أتسمعينني؟ لم يكن بوسع أي إنسان إنقاذه. لأنه... لم يكن ثمة شيء يمكن إنقاذه».

«ولكنك لم تري وجهه يا وامبوي، لم تري ميوغو»، قالت مومبي بصوت يغلب عليه الحماس. ثم خفضت صوتها وأكملت. «أقصد الليلة السابقة للاجتماع. حينما أرسلتني لمقابلته - لقد تبدلت ملامح وجهه

وكأنه يعاني ألماً في سريرة نفسه - أعني - كان وجهه مختلفاً حين أخبرني عن...».

عن ماذا؟ سأل كل من وامبوي وواروي معاً. بدا هذا النبأ كأنه استأسر باهتمامهما.

- عن كيهيكا، أخي.

- إذاً كنت تعرفين؟

- نعم. هو أخبرني بذلك.

- «ربما كان عليك أن تخبرينا بهذا قبل الاجتماع». قالت وامبوي بصوت ينم عن الاتهام. ثم تلاشى اهتمامها بهذا الأمر برمته.

- ما كنت أريد حدوث أي شيء. وما عرفت أبداً بأنه جاء فيما بعد إلى الاجتماع

- «ذلك صحيح»، وافق واروي، وتابع سرد أفكاره بصوت ينم عن الحيرة وخيبة الأمل. «لقد خدعتني عينها. ولكنني أسائل نفسي دائماً: لماذا فعل كل ما فعل في الخندق وفي المعتقل؟».

كانت مومبي هي الأولى بينهم التي انتشلت نفسها من هذا الاستيطان قالت: «يجب أن أنصرف الآن. إنني واثقة بأن النار قد تأججت في موقدنا. وربما يجب علينا ألا نقلق كثيراً حيال الاجتماع... و... حيال ميوغو. يجب أن نعيش».

- نعم، علينا تعمير القرية، وافقها واروي.

- «والسوق غداً، وحراثة الحقول وتجهيزها استعداداً للموسم القادم» علقت وامبوي وهي تحاول أن ترى بعينيها ما خلف الرذاذ والضباب.

- «وعلينا أن نعتني بالأطفال أيضاً» اختتمت مومبي قولها وهي تتناول الكيس الذي يقيها من المطر استعداداً لمغادرة الكوخ. ثم استدارت فجأة ونظرت إلى العجوزين وكأنها تنظر إلى ينبوع الحكمة القديمة التي ينهل منها الشباب أسرار الحياة والسعادة.

- هل رأى أحدكما الجنرال ر ليلة الاجتماع؟

شخصت وامبوي ببصرها إليها وقد تبدى الذعر في عينيها. كان واروي أول من أجاب على السؤال دون أن يزحزح بصره عن المطر.

- ما رأيته مذ خطب في الاجتماع.

- ولا أنا أيضاً، قالت وامبوي بلهجة تخلو من أية مسؤولية حيال احتمال قيام الشرطة بالتحقيق معهم.

خرجت مومبي. لاحقها واروي ببصره وهو يتمتم لنفسه: لا بد من أن شيئاً ما قد جرى خطأ. لقد خدعتني عيناه، تانك العينان. ربما لأنني هرمت وأصبح بصري شحيحاً.

بقيت وامبوي في جلستها تراقب الرذاذ والضباب الكالح لعدة دقائق. بدأت الظلمة تتسلل إلى الكوخ. تاهت وامبوي في خضم إدراك راسخ زاخر بالهزء المرير من نشاطها في الحرب من أجل الحرية. «ربما كان علينا ألا نحاكمه نحن» تمتمت. ثم هزت نفسها محاولة استجلاب أفكارها إلى الزمن الحاضر. يجب أن أوقد النار. وعلي في البداية تكنيس الغرفة. بئس القذارة لسرعان ما تتجمع في كوخ نظيف. ولكنها لم تنهض لفعل أي شيء.

جَمع الشمل

كان وامومو آخر معتقل حل به غيكونيو لمدة عام كامل. كان المعتقلون في هذا المعتقل يعملون على تنفيذ خطة ري جديدة في سهول مويا في إمبو. كانوا يحاولون استصلاح الأراضي البور لتحويلها إلى حقول صالحة لزراعة الأرز. وعندما كان يشتغل غيكونيو بشق القنوات كان يشخص ببصره عبر السهول المنبسطة ويرى هضاب امبري ونيامني التي تفصل إمبو عن أو كامبني، وكان يعرف بأن الأرض التي خلف الهضاب تعود إلى وا كامبا. ولكنه كثيراً ما كان يتخيل أن البيت وومبي هناك خلف هذه الهضاب.

وفي صبيحة أحد الأيام الصافية رأى كرينياغا، فحركت مشاعره تلك القمم التي كانت مكسوة بالثلوج والتي بدت تطاول عنان السماء في الأفق البعيد، وانهمرت الدموع من عينيه. وعلى الرغم من أنه لم يكن يولي اهتماماً للمناظر الطبيعية فإن منظر ذلك الجبل الخرافي، بذروته التي تشق الضباب، قد هدأ من مشاعره بعض الشيء.

برزت هذه التجربة من جديد في مخيلة غيكونيو وهو يتماثل للشفاء في مستشفى تيمورو. ذكرته رائحة الدواء في المستشفى بعفن السبخات المنتشرة على طول نهر تانا. وهناك في مويا، في ذلك اليوم نفسه، فكر ثانية بشكل جاد بحفر كرسي خشبي وتقديمه كهدية زواج إلى مومبي. وبدأت تتوضح معالم هذه الفكرة له بينما كان يعمل تحت الشمس وسط عفونة النهر والتربة الموحلة. لسوف يحفر الكرسي من جذوع أشجار

(الميوري) الصلبة التي تنمو حول جبل كرينياغا وهضاب نياندارو‌ا. لسوف يستند مقعد الكرسي على ثلاث قوائم محفورة على شكل ثلاثة وجوه متجهمة ترزح تحت وطأة عبء ثقيل. ولسوف يزين المقعد بالخرز الذي يمثل نهراً وقناة. وسيكون ثمة معول أو رفش بجانب القناة. وبقي غيكونيو سبعة أيام بعد ذلك يفكر في الحفر. كانت وجوه الرجال تتغير باستمرار. غيّر وضعية مناكبهم وأيديهم ورؤوسهم مراراً. كيف السبيل لنقش نهر بالخرز؟ ألا يجب عليه أن يستبدل المعول بساطور؟ كان يشغل ذهنه بالتفاصيل الصغيرة لتناسي كدّه الجسدي. ثمة أمل كان يحدوه في أن يصنع هذا الكرسي حالما يغادر المعتقل.

غيكونيو وهو على سريره في المستشفى عاودته الرغبة في حفر الكرسي واستحوذت عليه. لقد مضت أربعة أيام على وجوده في تيمورو. كان طيلة الأيام الثلاثة الأخيرة يفكر بميوغو واعترافاته. أبوسعه هو، غيكونيو، أن يستجمع مثل تلك الشجاعة ويحدث الناس عن خطوات الرصيف؟ كان في الليل يستعيد ذكريات حياته وتجاربه التي عاناها في المعتقلات السبعة. ماذا قدّمت له على وجه التحديد كل تلك السنين؟ كان يشعر بوخز الضمير كلما عبرت فكره خاطرة من الخواطر. لقد خانته شجاعته. لقد باح بالسر خلافاً للقسم الذي حلفه لكتمانه. فأي فرق بينه وبين كارانجا أو ميوغو أو بينه وبين أولئك الناس الذين خانوا شعبهم صراحة وتعاونوا مع الإنسان الأبيض لإنقاذ أنفسهم؟ كانت لدى ميوغو كل الشجاعة للإقدام على مواجهة إثمه وخسرانه كل شيء.. ارتعد غيكونيو لفكرة خسارة كل شيء. كل صباح كانت مومبي ووانغري تجلبان له الطعام. حاول في البداية ألا يتحدث مع مومبي. بل إنه وجد أن النظر إليها يسبب له الألم. ولكنه بعد اعترافات ميوغو وجد نفسه يحاول استنباط أفكار مومبي ومشاعرها. ما الأمر الخبيء خلف وجهها؟ ما رأيها بميوغو وباعترافه؟ وبدأ يزداد شوقه للحديث معها عن ميوغو وعن حياته هو في المعتقل. ماذا تراها تقول عن تلك الخطوات التي كانت تقض له

مضجعه؟ تسربت إلى ذهنه خاطرة جديدة. إنه ما رأى نفسه قط أباً لأبناء مومبي. خطر على ذهنه الآن: كيف سيكون شكل ابنه من مومبي؟

وما تذكر غيكونيو مويا ورغبته بحفر الكرسي إلا في اليوم الخامس. تحرك في سريره بالمستشفى محترساً ألا يستلقي على ذراعه الملفوفة بالجص. كانت مشاعره حيال تلك الرغبة طفيفة في البداية، كتلك المشاعر التي كان يحس بها لدى مرأى الخشب. ولكنه بعد أن بدأ يفكر بالأمر زاد انفعاله احتداماً وتلهفت يداه للمس الخشب والإزميل. إنه سوف يحفر الكرسي الآن، بعد المستشفى، قبل معاودته عمله، أو في ساعات فراغه من عمله. استنبط النموذج بالتفصيل. غيّر الأشكال. إنه – سيحضر الآن رجلاً نحيفاً ذا قسمات صارمة على الوجه. مطرق الرأس، منحني المنكبين، رازحاً تحت وطأة عبء ثقيل. يده اليمني ممدودة كي تلامس يد امرأة ذات قسمات صارمةً على الوجه أيضاً. وأما الشكل الثالث فسيكون لطفل تلتقي فوق رأسه أو على كتفيه يدا الرجل والمرأة. ولكن أي مثال يجب أن يصنع من الخرز على المقعد؟ أحقل بحاجة للتعشيب والعزق؟ أمعول؟ أزهرة فول؟ إنه سيصل إلى قرار نهائي حول هذا الأمر عندما يحين الوقت المناسب.

في اليوم السادس لم تظهر مومبي في المستشفى. فشعر بالغم وأصابته الدهشة حين اكتشف بأنه مشتاق لزيارتها أيما اشتياق. بقي طيلة اليوم قلقاً وهو يتساءل عما حدث لها. هل كفّت عن زيارته نهائياً؟ هل صدّها صمته المطبق؟ انتظر الفجر بفارغ الصبر. انتظر صباح اليوم التالي. إذا هي لم –.

ولكنها جاءت بمفردها. كانت تأتي لزيارته في العادة مع وانغري.

– «إنك لم تأت البارحة» بادرها معاتباً.

جلست مومبي على السرير صامتة برهة من الزمن قبل أن تجيب.

– كان الطفل مريضاً، قالت بمنتهى البساطة.

– ماذا – ماذا حل – به؟

- مجرد زكام - أو إنفلونزا.

- هل أخذتها - أخذته إلى المستوصف؟

- نعم. أجابت باقتضاب. حاول غيكونيو ألا يتلفت إليها. بدأت مومبي وقد عيل صبرها تتأهب للخروج.

- متى ستغادر المستشفى؟ سألته.

- في غضون يومين. والتفت إليها الآن والتقت عيناه بعينيها. بدت وكأنها لم تكن تتطلع إليه. ذهل لذلك الإرهاق الذي بدا في عينيها. من يدري كم ظلت على هذه الحال؟ ما الذي طرأ لها خلال الأيام القليلة الماضية؟

- «إنني ذاهبة الآن»، قالت، «قد لا أعودك غداً - أو اليوم الذي يليه». وبدأت تضع أشياء في الحقيبة بكل تصميم. أراد أن يقول لها: لا تذهبي، ولكنه قال فجأة: «هيا نتحدث عن الطفل».

مومبي وقد وقفت على قدميها. أصيبت بالذهول لسماع هذه الكلمات. فجلست ثانية وتطلعت إليه.

- أهنا في المستشفى؟ سألته دون كبير اهتمام.

- الآن، نعم.

«- لا، ليس اليوم»، قالت وقد نفد صبرها وكأنها مدركة الآن لاستقلالها فعلاً. أصيب غيكونيو بالدهشة للهجة الحسم في صوتها.

- حسناً. بعد مغادرتي المستشفى. قال وبعد فترة صمت مربكة أضاف: هل ستعودين إلى البيت، وتوقدي النار، وتهتمي بالأشياء كي لا تصدأ؟

فكرت بهذا القول هنيهة وقد أشاحت بوجهها بعيداً. ثم التفتت إليه، في عينيه مباشرة.

لا يا غيكونيو. يحاول بعض الناس طمس الأمور ولكن ليس لهم سبيل إلى ذلك. ليست الأمور بتلك البساطة. إن ما جرى بيننا لا يمكن

تسويته بجملة واحدة. نحن بحاجة لحديث طويل نفتح فيه قلبينا بعضنا لبعض، ونتفحصهما، ونخطط بعد ذلك للمستقبل الذي نريده. ولكنني الآن يجب أن أنصرف لأن الطفل مريض.

«هل سوف – هل ستأتين غداً؟» سألها وهو عاجز عن إخفاء قلقه ومخاوفه. وأدرك في الحال بأن عليه في المستقبل أن يقيم وزناً لعواطفها ولأفكارها ولرغباتها – لقد أصبحت مومبي امرأة جديدة. فكرت بسؤاله لهنيهة أيضاً.

«حسناً. قد أعودك غداً»، قالت واستأذنت بالانصراف. سارت بخطوات ثابتة حزينة ولكنها مطمئنة. تابعها ببصره إلى أن اختفت عند الباب، وغاص بعدئذ مجدداً في سريره. فكر بهدية العرس، كرسي محفور من خشب (اليوري). «سوف أغير شكل المرأة. سأحفر شكل امرأة كبيرة – حبلى بطفل».

* * *

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

يسعدنا انضمامكم إلى قناة
مكتبة ياسمين
معكم نكبر ونستمر بكل جديد

اضغط هنا .. اتبع اللينك

المحتويات

تقديم 9
الفصل الأول.. 13
الفصل الثاني.. 25
الفصل الثالث 35
الفصل الرابع.. 53
الفصل الخامِسُ 71
الفصل السادس 83
الفصل السّابعُ.. 99
الفصْل الثّامِنُ.. 161
الفصل التاسع 171
الفصْل العاشِرُ.. 201
الفصْل الحَادي عَشر 211
الفصْل الثاني عَشر.. 217
الفصْل الثالِث عَشَر.. 231
الفصل الرابع عَشر.. 261
كـــارانجـــا.. 287
ميـــوغـــو 297
واروي، وامبوي.. 305
جَمع الشمل.. 311